في الريف المصري

مصطفى علي الهلباوي

في الريف المصري

تأليف
مصطفى علي الهلباوي

هنـــداوي

في الريف المصري

مصطفى علي الهلباوي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٥ ٢٣٥٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

خطاب إلى المؤلف	٩
مقدمة	١٣
١- من ذكريات الصبا	١٧
٢- ريفنا المصري	٢٣
٣- فلَّاحنا	٤٧
٤- المرأة في ريفنا	٩١
٥- آمال ورغبات	١١١

إلى أنصار «حقوق الإنسان» في مصر!
صرخة ألم، وصيحة حق!

مصطفى علي الهلباوي

خطاب إلى المؤلف

بقلم الأستاذ الكبير الدكتور منصور فهمي
(أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية)

عزيزي مصطفى

ربع قرن مضى — وليس بقليل أن ينقضي من حياة المرء ما ينوف عن خمس وعشرين سنة — إذ كنت تلميذًا في المدرسة الفرنساوية، حين كانت تلك المدرسة في شارع الدواوين، وحين نزحت من ربوع الريف الذي نشأت فيه؛ لأصيب قسطًا أوفى في الدراسة الثانوية، وأذكر أن أستاذ اللغة العربية — وكان المرحوم محمد بك دياب — طلب إلى تلاميذ الفرقة التي كنتُ بها أن يكتبوا موضوعًا إنشائيًّا عن سكنى الأرياف وسكنى المدن، وعند هذا السؤال فاضت نفسي بالحنين إلى القرية التي نشأت فيها، والمروج التي درجت عليها، والعشير الذي رعاني بعطفه، وفاض على قلمي الناشئ أثرٌ من فيض هذا الحنين، فكتبتُ ما شاء الله أن أكتب، واصفًا الشمسَ المشرقة على الحقول، وذاكرًا قومًا تهز ضحكاتهم العالية طلق الهواء، ومتخيلًا الأنعام الآمنة السارحة، ومحدثًا عن الفَرَاش يتفقد الزهر البسام، والنحل يرتشف من كئوس النبت رحيقَه المختوم، وذكرت غير ذلك مما اتصل بنشأتي وكان له أثره في نفسي الفتية، وكنت مخلصًا حين كتبتُ، وكنت شاعرًا حين وصفتُ، وكأن أثرًا من ذلك الإخلاص وشعاعًا من تلك الشاعرية نفذ إلى قلب أستاذي الشيخ، فحنَّ هو الآخَر إلى عهوده

بالصبا، وبأيام الريف الذي شبَّ فيه وترعرع، فجاء مبكرًا في ذات يوم إلى المدرسة ودعاني إليه، ولقيني بأطيب الكلمات هاشًّا مستبشرًا، وكأن ما مسستُ به نفسَه من عواطف عن الريف وأحاديث الريف، بعث في شيخوخته الفانية حياة وأملًا ونشاطًا!

وهكذا قد تتشابه الأمور في مجاري الأقدار، فلقد كان فيما كتبت عن شئون الريف مبعثٌ لذكريات حلوة تجدَّد من أثرها ارتياحٌ لنفسي وسرور ما أحوج النفس إليه.

للأيام أحكامها، وللظروف شأنها في أمر الإنسان، فتخلق فيه عادات غير التي نشأ عليها، وتحبِّب إليه ما كان لا يحب، وتبغِّض إليه ما كان لا يبغض، ولعلها حكمة بالغة حين أوصانا السلف الصالح بأن نحب هونًا ما، ونبغض هونًا ما.

قضت الأيام أن تعيش في المدينة كما عاش غيرك من قبلُ، وأن تهيئ لك المدينةُ مقاصدَ أخرى، وتكيِّف عصبك وذوقك وعقلك بكثير من شئونها، وهكذا أصبحتَ ترى في الأرياف رغم حبك لها عيوبًا، وتلمس فيها عوجًا، وترى مواضع للشفقة لا يعزِّيك عنها إلا أن تصيح بإصلاح الناقص، وتقويم المعوج، وتغيير المكروه، ومن الحق أن ترفع الصوت عاليًا لتنشد الخير للريف وأهله؛ وذلك لأن المدينة علَّمتك أن في حياتها من الخير ما يصح أن يتجمل به الريف، وأن الحضارة وسَّعت من الحسنات ما إذا أُضيف منها إلى حياة البداوة لكسبَ الإنسان اللَّذَّتين وباءَ بالحسنيَيْن، وكلنا أو أكثرنا مثلك، طابت له الأرياف في حياتها، وأحس بخير المدينة؛ فأصبح يتمنى أن لو جادت الحضارة بشيء من محاسنها على الريف، وجاد الريف بشيء من محاسنه وطيباته على المدينة!

وما هو إلا أن نشعر جميعًا بما تشعر، وننشد ما تنشد، حتى يتكون من مشاعرنا وأناشيدنا لحنٌ اجتماعي وصوت قاهر يردِّد الإصلاح للريف، ولا يلبث الزمن عند هذا الصوت القاهر إلا أن يلبي الدعوة، ونرى من الريف المعيب جنات، ونرى في القرية المهملة المنبوذة موطنًا تتغذى منه الأنفسُ مبادئَ الجمال!

إذا كان ما كتبت لا يؤثِّر فيمَن كتبت لهم من قرائك الذين تحسبهم مسئولين عن إصلاح الريف، وإذا كان قلمك فيما نمَّقه وأجاد فيه، لا يؤثر في القارئ بحيث يشعر بشعورك في الأمر ويفكر بفكرك، فإن فيما كتبت فضيلةً كبرى من فضائل القروي المثقف؛ إذ يتذكر بالخير مسقط رأسه، ويهيج شوقه إلى ميدان طفولته ونشأته فيقول: «ذهبت أقضي فروضَ الذكرى والوفاء لقريتي التي غذتني رضيعًا، وتعهدتني صبيًّا، وشاهدتني أحبو على

أرضها، وأعبث بمائها، وأجري في حقولها، وأتعلم مبادئ القراءة والكتابة فيها.» ثم يردِّد: «إلى الريف! إلى ذلك الحمى الهادئ، وهذا المعبد الساجي الخاشع، إلى مهبط النفوس الثائرة، ومسكن القلوب المُعَنَّاة، ومجمع الآمال الشاردة ...» ويقول: «ما أجمل تحية الشمس لأبناء الريف! وما أجلَّها حين تطلع من خِدْرها، وتتلفت من حولها، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها، وبسلطان دولتها، تصحو من نومها، وتنهض من سريرها، تتزايل أعضاؤها من فتور النوم، ويتراخى جسمها ويتهدل من كسل الراحة وسكرة اللين، ونعومة الرخاوة تظهر على عيونها الدُّعْج الناعسة الفاترة، والنائمة اليقظة، والمتبلدة النشطة، وعلى جفونها الخامدة الساكرة، وفي نظراتها المتكسرة الحيية.»

وجميل بالفتى المصري الناشئ أن يشعر بمصريته، فيما لبلاده من خصائص ولبيئته من مميزات، وفيما لعشرائه من عادات، ولأيامه من ذكريات، فيذكر الكتاب كما ذكرت، ويذكر الريفيات كما ذكرت، ويذكر الأغاني كما ذكرت، وفي تلك الذكريات المتصلة بمصر الصميمة، وبسني حياتك الماضية، معنًى دقيق للوطنية والقومية، فإذا كنتُ أنا اليومَ أغتبط كل الاغتباط؛ إذ أرى أحد أبنائي النجباء في التلمذة، يعترف بالجميل للقرية؛ أمنا المشتركة، ويريد لها الإصلاح، فإني طالما تألمت حين رأيت فئة من الشبان تناسوا نشأتهم، وعاشوا لأنفسهم لاهين لاعبين، ناعمين بما تقدِّمه لهم الحضارة، متناسين مصر، وريف مصر، وفلاح مصر، الذين نشَّئوهم وانتظروا منهم لأنفسهم المعونة!

لستُ أدري أستظل محتفظًا بكلِّ ما جاء في كتابك من آراء، أو ستغيِّر الأيام فيها ما من شأنه أن يتغير مع الأيام؟ على أنه ليس بهامٍّ في نشأة الفتى خطأ الرأي أو استقامته، ولكنَّ الهامَّ رغبتُه في الخير، واشتعال وجدانه بالواجب، وتفكيره فيما يدعو إلى التفكير، وإنك فيما كتبتَ تشعر وتفكر، وما أسعدنا بشبابنا حين يشعر ويفكر، ولك إذن أخلص دعواتي وإعجابي وحبي الصادق.

ديسمبر سنة ١٩٢٨

مقدمة

كتبتُ هذه «الرسالة» أو هذه «الأحاديث» متأثِّرًا بعاملين قويين ملَكَا عليَّ مشاعري، واستوليَا على كل كياني: وهما الرحمة والوفاء، وما أحسب أن فكرةً من الفِكَر استأثرت بنفسي واستبَدَّتْ بعقلي مثل هذه الفكرة أو هذه العقيدة التي أذيعها في هذه السطور ممزوجةً بلحمي ودمي، مندمجة في كل سائري وعالمي.

أخذت نفسي بنشدان وجه من وجوه الإصلاح في مصر لأفتتح به حياتي الجامعية، فلم أرَ موضوعًا أجدرَ بالحديث وأولى بالعناية وألصق بذاتيتي من موضوع «الريف المصري».

ولقد خامرَتْني هذه الفكرة منذ سنين، وأخذت في عقلي وقلبي أدوارها التي يأخذها كل الأحياء، حتى إذا شعرت بضغطها ونمائها ويفاعتها، أخرجتها من عالم الباطن إلى عالم الظاهر، أو من عالم النفس إلى عالم الوجود!

فكَّرت في حال الفلاح المصري كثيرًا، وفي لون الحياة التي يحياها في عصر النور والعرفان والحرية والحق والجمال، في عصرٍ لا أظن أن الأدوار التي مرَّت بها الإنسانية كلها بلغ فيها التنازُعُ على البقاء في الحياة، ما بلغه في هذا العصر المتوثب الطامح المسلَّح بكل صنوف الآلات والقوى.

وسط هذا العالم الصاخب المضطرب المتنازِع على الحياة الموفورة السامية، الطامح في نور جديد يرشده إلى عالمٍ أرقى، وإلى حقيقة أسمى وإلى منزلة أقدس …

في هذا العصر الطامح المجاهد، والذي تفتحت فيه العيون التي أغمضها الجهل، فرأت نور الوجود كما أراد الله أن يكون، والذي تحرَّرت فيه العقول — أو كادت تتحرر — من قيود التعصب وأسْر العماية، ومن سلطان البابوات والملوك وأعداء العقل، فأمكنها أن تشع شعاعها على هذا العالم الذي أراد الله أن نعرفه ليمكننا أن نفهمه ونستمتع بما فيه من نور وحق وجمال، ولكن أبَتِ السياسةُ وأبى الدين — أستغفِرُ الله — ولكن أبى الساسة

وبعض رجال الدين أن نعرف هذا العالمَ الذي نعيش فيه، وأن نرى هذا النور الذي خُلِق من أجلنا.

في هذا العصر الذي كاد يقضي على كل صنوف الاستبداد وألوان الاعتساف وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، يعيش الفلاح المصري العيشةَ التي كان يعيشها زميلُه الفلاح في حكم الرومان والبطالسة والعرب والمماليك، كأنه لم يَدْرِ بعدُ ماذا حدث في العالم، وماذا طرأ على «الإنسان»!

شعرت بهذه الحال السيئة الأليمة، وبهذه الحياة التي يحياها فلاحنا في القرن العشرين، فحركني باعث الرحمة والرثاء لحاله، وأنا منه وهو مني، وباعث الوفاء لهذا البلد الأمين الذي شقي ببعض أبنائه، والذي نُكِب بتلك الأدوار والعصور السود التي مرَّت على حياته، حتى غدا تاريخه سلسلةً متصلة من الجور والبؤس والظلام، لا تكاد حلقة تنفصم عن حلقة، وباعث الوفاء لهذا الريف الذي حبوتُ على أرضه وعشت تحت سمائه وترعرعت بين حقوله، والذي يعاني من صنوف الإهمال والتغافل ما يعاني، في الوقت الذي نأخذ منه كل شيء ولا نعطيه أي شيء، بل نحرمه كلَّ ما نستمتع به نحن من علم، ومن حرية، ومن رغبات النفس والشعور بالحياة!

يحيا فلاحنا حياةً لا ترضاها نفسٌ أبيَّة كريمة تحركها أبسط صنوف الرحمة والوفاء لهذا الفلاح ولهذا البلد، حياةً لا يقبلها رجل يغار على بلده ويعرف معنى الوفاء له، ويود له النهوض والمكانة التي تليق بسابق مجده وقديم حضارته الأولى، حياةً يتقزَّز منها كلُّ فرد يقدِّر لفظةَ «إنسان»، وتدفعه الشفقة والرثاء لأخيه «الإنسان»!

من الاحتقار لـ «الإنسان» أن يعيش الفلاح المصري هذه العيشة النكداء، ومولاه الغني يلبس الحرير ويتوسَّد الدمقس بما يقتطع من لحمه، ويشرب من دمه، ويعيش في ترفِه وعزِّه على كدِّه وبؤسه، ومع ذلك لا يكلِّمه إلا بالنظرات الشزراء، وبالخدود المنتفخة، والوجه المتورم من الصلف والتيه والتعسف، ولا يعامله إلا بالسِّباب والتعذيب، ولا يخاطبه إلا باللطم «والركل»، وحكوماته المتعاقبة المتغيرة عليه، والتي تمتص مواردنا ومرتبات موظفيها من عَرقه ومن دمه، لا تكافئه إلا بتجاهله واحتقاره، وإن سخت في الكرم وجادت بالعطاء تكافئه بمعسول الأماني ومكذوب الأمل بما تلقي من وعود، وبما تحبِّر من كلام، وبما تزوِّق من خطب!

من الاحتقار للوطنية المصرية وللنهضة القومية الكبرى، وللبعث العالمي، و«للروح الإنسانية العامة»، وللدماء التي أُرِيقت، والأرواح التي زُهِقت، والضحايا التي تكدَّست

في ظلمات القبور، والأشلاء التي تبعثرت في الأجواء تحت أزيز الرصاص وقذف المدافع، وللنساء التي أُيِّمت والأطفال الذين يُتِّموا، وللبيوت التي خُربت، وللعائلات التي نُكبت في أبنائها وفلذات أكبادها، من الاحتقار لصيحة الحق وقومة العدالة وهبَّة الحرية؛ أن نستمتع ببعض ما بذلنا في سبيله من مهج وأرواح، ثم يبقى الفلاح المصري في حقله وفي أركان داره المتهدمة المظلمة القذرة بين مواشيه وحميره، لا يفرِّق كثيرًا بين الجور والعدل، ولا بين الحق والباطل، بل ولا بين الحرية والعبودية!

مضى الزمن الذي كان فيه الإنسان يصبر على الضيم ويخنع للذل، ويقبِّل مُكرَهًا يد جزاره وذابحه، وبادت تلك الأعصر التي كانت فيها الإنسانية مقسمة إلى قسمين أو صنفين من الخلق؛ إنسان وشبه إنسان، للأول الغُنْم والترف والعز والسلطان، وعلى الثاني الغُرْم والذل والشقاء والهوان!

لم يُرِدْ خالق الإنسان حين خلقه وسوَّاه، إلا أن يكون هذا «الإنسان» مالكَ نفسه وسيد أمره، له مما في هذا العالم من نور ومن حرية ومن علم ومن جمال، نصيبٌ موفور يليق بوجوده السامي وخلقه العالي، فما بال الإنسان نفسه يجعل من نفسه إلهًا أو شيطانًا يعبث بالخلق ويقسِّم الناس إلى رءوس وأذناب، وإلى أسياد وعبيد، في عصرٍ انمحت فيه كلمة «العبد» وعلت كلمة «الإنسان»؟

ولهذا فليست هذه الرسالة إلا صيحة الحق وصرخة العدالة، أضمنها هذه السطور التي تكاد تحترق من لهيب الأسى، والتي لو بُدلت عيونًا لَشفت ولَترجمت عن حرقة الشقاوة وذلة الدموع وجراحات الألم، صيحة من صميم القلب، وصرخة من اللحم والدم، يبعثها شاب أمَضَّه الألم ولاعه الأسى، إشفاقًا على هذا الصنف من الإنسان الذي له اسمه وليس له مسماه، وله لفظه وليس له معناه!

وإني لم أحرص على نشر هذه الرسالة أو هذه الأحاديث إلا لأني أحب أن أؤرِّخ بها حياتي الجامعية، وأن أفتتح هذه الحياة التي أرجو أن تكون مباركة خصبة بنشدان وجه من وجوه الإصلاح والإحياء المصري والبعث القومي، وأن يتوج هذا الافتتاح بأشرف وأنبل ما في الإنسان؛ الرحمة والعدالة!

وأحب أن يلاحظ حضرات القراء الكرام أني حين فكَّرت في كتابة ثم نشر هذه الرسالة الصغيرة، لم أبغِ بها إلا أن أصِلَ الفلاحَ المصري بالبيئة المدنية المصرية لأنها تجهله كل الجهل؛ ولذلك لا تقدِّر بؤسه ولا تفهم لغة آلامه، وملاحظة ثانية أيضًا هي ألا يعطوا هذه السطور صبغة أكثر من أنها «أحاديث»؛ إذ لست أنحل لها صفة «كتاب» ولست أدعي لها

صفة «التحقيق العلمي»، وإنما ملاحظات رأيتها، وخواطر لعبت برأسي، وآلام شعرت بها، ونداء باطني هتف بي، فسطرتها على الورق كما هي لتكون صورة من شعوري الأول، وصدًى لنفسي المضطربة الجياشة بكل ألوان الشعور وصنوف الإحساس!

وملاحظة ثالثة: هي أني حين أردت أن أكتب عن الفلاح المصري وعن ريفنا، لم أختَرْ إلا صنفًا واحدًا من الفلاح هو الغالبية العظمى في كائننا القومي، وهو الفلاح الذي لا يملك شيئًا بل يعيش إما مأجورًا أو مستأجرًا، فإن خلت هذه السطور من التعرض لصنوف الفلاح الأخرى، فذلك لأني لم أشأ أن أمسَّها بالتصوير أو أتعرض لها بحديث.

وإني لسعيد جِد سعيدٍ بين أطواء نفسي وأمام محكمة ضميري، كلما فكرت أني بذلك كل جهدي لأكون أمينًا في تصوير ريفنا المصري وحياة فلاحنا، صادقًا في التعبير عن شكواه وآلامه.

ولست أنكر أن هذه الأحاديث قد ينقصها «وحدة الفكرة»، أو تزاوج المعاني واتساقها اتساقًا منطقيًّا منظمًا، وتعليل هذا أني أحببتُ أن أصوِّر مختلف مشاعري، وما يقع عليه بصري، وما تجيش به نفسي، وما يستغرق فيه عقلي وتأملاتي حين شعوري وإحساسي وأنا في ريفنا وبداوته، وبين فلاحنا وسذاجته، دون أن أراعي في ذلك «الوحدة الفكرية» أو «الصبغة الفنية»؛ ولذلك نحلت لهذه السطور المبثوثة في هذه الأوراق صفة «أحاديث»؛ لتدل على نفسي وعلى شعوري وعلى قصدي حين كنت أكتب، وحين كنت أشعر، وحين كنت أفكر.

هذا نصيبي الآن من الإصلاح المصري وواجبي من الإحياء القومي، أقدِّمه خير ما أكون مغتبطًا وراضيًا؛ لأنه مظهر للفكرة «الإنسانية» التي أحبها وأحترمها، وأعمل على هداها ونهجها، وأعيش في سبيل تحقيقها ونجحها، ولأنه جانب من «نفسي»، وعصارة من دمي، وشطر من وجودي، ولأني أشعر بأني أرضيت به ضميري، ووثقت فيه بنفسي، حين قمتُ ببعض واجبي، واضطلعت بجزء من مسئوليتي، ولا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها!

مصطفى الهلباوي
سبتمبر سنة ١٩٢٧

الفصل الأول

من ذكريات الصبا

غادرتُ المدينة — أستغفر الله — بل هي التي أقصتني عنها، وأبعدتني عن ملاهيها ونواديها، عن حدائقها ورِياضها، عن فاتناتها وساحراتها، عن مشاهد حسنها ومعابد جمالها، عن الصراع فيها بين الحياة وأبنائها، عن الشعور فيها بمعنى «الحياة» شعورًا يتغلغل في أجزائها وأرباضها، عن مدارسها ومعاهد العلم وكعبة الثقافة فيها، ومناط آمال الشباب المصري الطامح في عهد جديد، ونور جديد، يقوده إلى «العالم الجديد»، ويُنزِله منزلة «الإنسان الجديد»!

نعم! فارقت القاهرة، وحيل بيني وبين الجامعة، مهبط آمالي ومعقد رجائي وحقل جهودي ووادي أحلامي، وقالوا: عطلة!

أنَّى أذهب إذن لأقضي شهور تلك العطلة الطويلة المملة، لأعطي بدني حقَّه من الراحة وعقلي حقَّه من الرياضة؟ … إلى الريف! إلى ذلك الحِمى الهادئ، وهذا المعبد الساجي الخاشع! إلى مهبط النفوس الثائرة، ومسكن القلوب المُعَنَّاة، ومجمع الآمال الشاردة، ومسرح الأحلام الهائمة!

أُقصيت إذن عن المدن لأستعيض عن صخبها وحضارتها، بهدوء القرية وبداوتها، ولأستبدل بابن القاهرة المتحضر المتعلم، ابن القرية الساذج الجاهل، فكثيرًا ما نجنح إلى البساطة والبداوة والجهل، نطلب فيها قناعة الرضا وهدوء الاطمئنان وجلال البداوة، ونستجم فيها من جهاد العلم ومن اضطرابه وتذبذبه، وشكوكه وحيرته، ومن صلف الحضارة وتكاليفها، وهل حياتنا يا صاح إلا مزيج مضطرب من الحضارة والبداوة، والعلم والجهل، والنور والظلام، والحق والباطل، وما شئت من هذه الظاهرات المتناقضة المتعاكسة التي هي سر نظام الوجود، والنغم أو الاتساق الذي ينظِّم اضطراب موسيقى الحياة؟

هل حياتنا إلا تفاعل الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والقوة والضعف، والإيمان والشك، وفي هذا التفاعل وهذا الازدواج قوة الحياة، وجمال الوجود، ووحدة العالم، وكمال الإنسانية جميعًا؟

ذهبت إذن أقضي فروض الذكرى والوفاء لقريتي التي غذتني رضيعًا، وتعهدتني صبيًّا، وشاهدتني أحبو على أرضها، وأعبث بمائها، وأجري في حقولها، وأتعلم مبادئ القراءة والكتابة فيها، وأحفظ القرآن الكريم في كتابها أمام كثير من فقهائها، ذهبتُ أستعيدها ذكريات الصبا، وأقسم لديها يمين البِر والحب والولاء، وأتَّخِذ من دُورها وقنواتها وحقولها «وكتَّابها» وحاراتها وأجرانها وأشجارها وربواتها وحدائقها ومقابرها، عوني على الذكرى، ووحيي عند التفكير، وإلهامي حين الكتابة، وأَصِلُ حلقةً من حلقات حياتي بالفلاح الساذَج الجاهل الطيب المسكين البريء الذي أحبه وأجِلُّه وأشفق عليه!

وإذا ما ذكرت «الكتَّاب» عادت بي ذاكرتي إلى عهود الطفولة والصبا، إلى تلك العهود الخالدة من العمر، بما فيها من حريةٍ تكاد تكون مطلقة، إلى عبث بالغ أقصاه، إلى خوف ورهبة من الفقيه الأعمى، يلطفه الحنين والشوق إلى اللهو مع أطفال الكتَّاب تارةً بفقيهنا، وتارةً أخرى بعَرِيفنا!

لا زلت أذكر «الكتَّاب»، ويومَ كنتُ أساق إليه سوقًا بالعصا، وعيني تذرف بالدموع، ولا أسكت عن بكائي ولا أجفف دمعي، حتى يرضيني أبي بقطعة الحلوى أو بالقرش، تشفعه قُبلة أبوية طاهرة، وكلمة رضية كريمة، ولا زلتُ أذكر «سيدنا» الضرير وهو «أستاذي» الأول — إنْ صحَّ هذا اللقب — وكيف كان يرهبني بأسه ويخيفني شكله ويزعجني صوته، ولا زلتُ أذكر «لوح القرآن» الخشبي تارةً، والصفيحي تارةً أخرى، وكيف كنت أنا السابق الفائز في حفظه واستظهاره بين أولاد الكتَّاب وحضرات الزملاء!

ولا زلتُ أذكر أيام المواسم والأعياد، لا يصرفنا «سيدنا» حتى أسلِّمه في يده «البريزة»، وحتى يسلِّمه الآخرون الفطيرة أو قطعة السكر.

ولا زلتُ أذكر ذلك العريف الضرير أيضًا وصوته الأجش الخشن، ونبراته الجافة الغليظة المنكرة، حتى كاد أن يكرِّه لديَّ وأنا في طفولتي استماعَ القرآن!

ثم لا زلتُ أذكر ولا يمكنني أن أنسى يومَ كان هذا الـ «سيدنا» ينيب كل واحد منَّا في أن يقرأ في البيوت «ربعًا»، حتى يستريح هو من عناء القراءة، ويأخذ مرتبه من الفلاحين المساكين زورًا وبهتانًا وغشًّا، ولا زلت أذكر ذلك اليوم العصيب، يومَ أعَدَّ «سيدنا» آخَر

«الفلكة» الخفيفة، ويومَ أَعَدَّ معها «الكرباج» لا العصا، وغسله بالماء والملح ليتفنن في الإيذاء والإيلام، وجادت رحمته وتديُّنه الصادق بأن أمر أمرَه بإلقاء ثلاثٍ من رفاقي أمامه في الفلكة، اتُّهِموا بأنهم سرقوا نقودًا من آبائهم وشروا بها سُكرًا وشايًا من الدكان، أذكر ذلك اليوم كأنه الآن، وأذكر يومَ وقَفَ هذا الـ «سيدنا» الثاني «على حيله»، وربط كل واحد بدوره في الفلكة، وأعطاه نصيبه من الضرب والعذاب إلى أن أدمت أقدامهم، والعريف الجبار الضرير هو الممسك بالفلكة آلة التعذيب، إمساكةً لا تخلو من تفنُّن وإبداع، وهو بذلك فَرِح مغتبط، ونحن جميعًا جالسون على «الحصيرة» حول هؤلاء الفرسان الثلاثة، نشهد هذا المنظر المؤثِّر الجميل، منَّا مَن يضحك شامتًا فَرِحًا، ومنَّا مَن يبكي شفقةً وتألُّمًا، ومنَّا مَن اصفرَّ وجهه ومَن ذهب رشده من الوجل والخوف خشاة أن تدور عليه الدائرة يومًا، فيُمثَّل به هذا التمثيل المفجع.

ولا زلت أذكر تلك الغرفة الضيقة المظلمة من الطوب النيِّئ (الأخضر)، والقناة التي كانت أمامها حيث يلعب فيها الإوزُّ والبط الصغير الجميل، وحيث نعبث فيها بأقدامنا وبما نقذفه فيها من أحجار، ثم قطع الحصير الأخضر من أوراق البردي وأعواد البوص، وتلك «الألواح» اللامعة الزاهية من الصفيح موضوعة على الرفوف المتربة المغطَّاة بنسيج العنكبوت، وتلك الدوي المصنوعة من الطين المحروق، وحبرها المتَّخَذ من هباب المصابيح والمسارج، والمختلط بقطع من الخِرَق البالية القذرة، «وسيدنا» الضرير المعمَّم، ومركوبه المرقَّع وبجانبه عصاته الجبارة «ومقرعته»، المستبدة الحاكمة بأمرها، وفلكته المصنوعة من حبال الليف تكاد تبتسم تيهًا وزهوًا بضحاياها وبجبروتها، وبما يعلق فيها من أرجل وأقدام لا تزال طرية غضَّة في غضارة العمر ونضارة الصبا، وهؤلاء الإخوان الزملاء خارجين من «الكتَّابِ» دارِ سجنهم ومنزلِ تعذيبهم، بجلاليبهم المتربة القذرة، وبوجوههم المعفَّرة وأيديهم المزينة بالحبر، ولن يخرجوا أو يغادروا عتبةَ «الكتَّاب» حتى يهرول كلٌّ إلى داره، يعلن إلى أمه خروجه من «الكتَّاب»، ثم إلى الحارة، وإلى الكرة، وإلى الأجران!

ولا زلتُ أذكر هذه اللذة الكبرى التي كنَّا نشعر بها أطفالًا، حين نبتاع لوحًا أو دواة أو مصحفًا من «السوق»، وتدفعنا هذه اللذة الكبرى وهذا الفرح الشديد إلى وضعها بين أحضاننا حين ننام، حتى لا يسرقها منَّا سارق أو يعبث بها عابث.

ولا زلت أذكر أيضًا تلك الساعة العصيبة حين كان يتربع «سيدنا» ويخلع «مركوبه» أو «بُلْغته»، ويضع بجانبه مقرعته وفلكته وينادي كل واحد منَّا بدوره في استظهارِ ما

حفظ من المصحف، فإنْ أخطأ الشكل أو مخرج الألفاظ أو تلعثم في كلمة أو آية، أو قدَّمَ أو أخَّرَ، أسعفه بالمقرعة على ظهره أو على وجهه أو على عينه يحسبها يده أو ذراعه!

نعم! لا زلت أذكر كل هذا، تلك الأيام والعهود الجميلة الخالدة بحداثتها وطفولتها، ونقائها ومرحها وفوضاها ولهوها، ورهبتها وفزعها، وهل تُنسَى ذكريات الطفولة وعهود الصبا وأزمنة العبث؟

وسيبقى كل هذا في ذاكرتي مرتسمًا في خيالي، ممزوجًا بلحمي ودمي، مندمجًا في كل أجزاء نفسي؛ لأنه الصفحة الأولى من تاريخ «نفسي»، واللبنة الأولى في بناء «ذاتيتي»، ولهذه الصفحة عندي إجلالُ القِدَم وجمالُ العبث ودالة الصبا.

كنَّا في تلك العهود المَرِحة التي لا «مسئولية» فيها، ولا شعورًا بواجب، ولا تفكيرًا في الغد المجهول، ولا بحثًا عن حقيقة مخبوءة في ظلمات الوجود، تائهة في «اللانهاية» الواسعة الطويلة العميقة، كنَّا في تلك العهود من العمر — عهود الطفولة والصبا والعبث والفوضى والفساد — نعبث بالتراب والرمل، ونلهو بكلِّ ما يقع تحت أيدينا المخربة المهدمة، حتى الزمن الجبار المستبد كنا نلهو به في صبانا ونسخر منه، وها هو ذا الآن يبادلنا اللهو والسخرية وكأنه يقول لنا السن بالسن والعين بالعين! كنَّا نبني بيوتًا من الرمال بين مفترق الطرق وعلى شواطئ الترع، كأنها بيوت آمالنا ورجائنا، ثم نجري حولها الماء في الأرض التي خططناها للحدائق والرياض والأشجار، فإذا هدمَتْ هذه «المنشآتِ» وهذه الحدائقَ شاةٌ أو بقرة أو جاموسة أو إنسان، صخبنا وصحنا وغضبنا وبكينا؛ لأنها هدمَتْ ما بنينا، وقوَّضت ما أنشأنا، وسخرت مما فعلنا.

ولكن لا يلبث الرمل أن يذوب، ولا يلبث البيت وحدائقه ورياضه وأشجاره أن ينهار، وهكذا حالنا في هذا الوجود! نبني آمالًا وأحلامًا … كذابًا من الرمال ومن السراب، ونشيد قصورًا وحصونًا من الباطل ومن الوهم ومن الخيال، وننفق كلَّ أعمارنا في طلائها وزينتها وزخرفها والتيه في صحراواتها وفلواتها، حتى تخيِّب الحياة آمالنا، وتهدم بيوتنا التي أودعنا فيها صبانا ورغباتنا وهوانا وأحلامنا وتفكيرنا وكدَّنا وجهودنا وبحوثنا، وحتى يجيء ذلك «الطوفان» الطامي القاسي وتلك «الموجة» الكبرى، فتأخذ معها كل شيء وتبتلع كلَّ ما في الوجود؛ فإذا الآمال رمال، وإذا الأحلام سراب، وإذا البحث والتفكير هواء! حقيقة كخيال، وحق كباطل، وصدق ككذب، وعلم كجهل، وغناء كبكاء، ووجود كعدم، وشيء كَلَا شيء! أَلَا ما أكذب الحياة!

يا ليت الحياة كلها عهود الصبا ودولة الشباب!

فيا ليتنا عِشْنا حياةً بلا ردى مدى الدهرِ أو مِتْنا مماتًا بلا نَشْر

ولكن هل تجدي «ليت»؟!

الفصل الثاني

ريفنا المصري

نلجأ جميعًا إلى الهدوء والسكينة، نحتمي بهما من الصخب واللجب.

عوى الذئبُ فاستأنستُ للذئب إذ عوى وصـوَّتَ إنـسـانٌ فـكـدتُ أطـيـر

وأين نحتمي من صخب المدن وتكاليفها وضوضائها؟ وأين نروِّح عن النفس عناءها وعن الجسم متاعبه؟ في الريف كلُّ ما نطلب من هدوء بعد صخب، وسكون بعد حركة، وبداوة ساذَجة بعد حضارة متكلفة، في الريف مستراح للمعنيِّ، وملاذ للمُتعَب، ومتنفس للمكروب. نعم! في الريف ننشد راحتنا وطمأنينتنا، ونجد عزاءنا وسلوانا، ونرى أنفسنا رؤية الحقيقة؛ فلقد قال «أمرسون»: «ليس الإنسان سوى نجاح الطبيعة في تصوير نفسها.» وفي أي مكان نشهد جمال الطبيعة وجلالها، ونجاح تصويرها وكمال فنِّها ودقة صنعها، خيرًا من الريف؟ في الريف معابد الجمال حقًّا لَمن أراد أن يعبد الجمال، في الريف «ألوهية الفن» لَمن شاء أن يستلهم ملائكة الفن، هنا «قدسية الدين» وخشوع الإيمان ونور اليقين، لمن غَشَّتْ عيونَهم ظلماتُ الشك، وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، هنا يُعبَد الله في كل مكان! في الأرض منبت الخير والبَركة، وفي الشمس باعثة الدفء والحرارة والحياة، وفي السماء الزرقاء، وفي النجوم المتألقة، وفي القمر المنير، وفي الحقول الخضراء، وتحت ظلال الكافور والنخيل والتوت والصفصاف، وعلى حافات الترع والقنوات الجارية الوديعة المَرِحة، وفي وجوه الريفيات الجميلات جمالَ الله لا جمال «الإنسان»!

ما أجمل الطبيعة في الريف! وما أوسع «الكون» هنا! وما أرهب «اللانهاية»! وما أسهل طرق «المعرفة» لَمن يريد أن يبحث عن «المعرفة»! هنا في جمال الريف وهدوئه،

وتحت ظلال أشجاره الظليلة الدافئة المتراوحة، يجلس الباحث عن «المعرفة» يستجلي الكون الواسع وأسراره الدفينة، ويجول في تلك «اللانهاية» الواسعة التي لا ساحلَ لها ولا حدَّ تنتهي عنده، ليصل إلى الله، إلى العلة الأولى أو علة العلل أو «الحقيقة المطلقة»، من طريق الأرض والسماء، والنجوم والأفلاك والأجرام والنبت والشجر والماء والشمس والزهر والحيوان، من طريق «الإنسان» ومن سبيل «الجمال»، فمن «الجمال» وحده نتصل بالله ونعرفه ونعبده ونفهمه ونحبه، والحب كما يقول «تاجور» هو كمال «الشعور بالنفس»، ونحن لا نحب لأننا لا نفهم، أو بعبارة أخرى نحن لا نفهم لأننا لا نحب؛ لأن الحب هو المعنى الأسمى الأكمل لكلِّ ما حولنا، فليس هو عاطفة فحسب ولكنه «الحق»، ولكنه الفرح الذي في صميم كل الخليقة.

الجمال والحب إذن هما سبيلنا إلى الله وطريقنا إلى عبادته ومعرفته، ففي «الجميل» نرى الله وندرك سرَّه في خلقه، ونعبده في قدرته وفي إبداعه وفي كماله، ونتَّحد فيه اتحاد العلة بمعلولها، ونفنى فيه فناءَ الضعف في القوة، والنقص في الكمال، والتشويه في الإبداع، والنهاية في «اللانهاية».

وإذا كان الجمال أساس الحب، وكان الحب أساس الدين، فأقوانا شعورًا بالجمال وأدقنا حساسيةً للحسن، هو أشدنا خضوعًا لسلطان الدين ولقداسته، وأصحنا فهمًا ومعرفة لملكوت الله وعظمته وكماله.

وإذا كان الريف في الغرب معبد الجمال، ومهبط السحر، ومستلهم الفن، ومبتدع «الخلق» والتكوين، ومستراح النفوس المعَنَّاة، ودواء القلوب الكسيرة من ضنك الحياة ومن آلامها، والصدور المكلومة من غدر الزمن وتنكُّره، ومسرح الأرواح الهائمة الحائرة تبحث في «اللانهاية» الأزلية عن نور اليقين وعن سر الوجود، فيتبدَّد شكلها في أضواء الإيمان وفي نور «الحب والجمال»!

أقول إذا كان الريف في الغرب عزاء المصابين، وسلوى البائسين، وراحة المكروبين، ومحجَّ العاشقين، ومعبد المؤمنين، وملكوت «الفنانين الخالقين»، فهل لنا ريفٌ نحجُّ إليه ونحتمي به ونعبد فيه الحب والجمال والقوة، مثل ما للغربيين من ريف؟ وهل لنا ريف يخلِق من العظماء ومن النابغين ومن الفنانين ومن «الخالدين»، ما يخلق ريف الغرب من رجال العقل والقلب، من أساطين الحكمة وأنبياء الحب والجمال؟ وهل لنا ريف يتجلَّى فيه «وحدة الوجود»، وتتمثل فيه قرابة «الجزء والكل» تمثيلها في ريف الغرب؟

يؤلمنا أن يكون الجواب: لا! يؤلمنا أن نصرِّح بأن ريفنا المصري كما هو الآن مستعِدٌّ لأن يخلق لنا من الفنانين ومن «الخالدين» ومن «الرسل»، ما يُنتَظر منه في عصر الإحياء والبعث والخلق!

يؤلمنا ويَنْدى جبينُنا من الخجل والأسى، ونُحني الرأسَ ذلةً وضعفًا، كلما وفد علينا من جماعات الغربيين والنازلين، وكلما ضربوا في ريفنا المصري الساذج النائم السادر، فلا تقع أبصارهم إلا على كلِّ ما تتقزز منه النفس، وإلا على ما يحقِّر من نهضتنا الكبرى ويخفض من كائننا القومي ومن تاريخنا الخالد، فـ «أوساط الجمال الحي» في ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافي لما يفجِّر القلوبَ بالشِّعر الوجداني الحي، وبالعواطف النبيلة السامية في يقظتها، وفي تجدُّدها وفي حيويتها، ولا لما يصعد بالأرواح العالية في «الكون العظيم» وفي «الملكوت الأعلى» وفي «سموات الفن». نعم، ليس في ريفنا المصري مهبط لرسالة الحب ولا لوحي الجمال، ولا ربوع لفيض الإلهام وفلسفة الإبداع وسر «الخلق»، ولا مبعث لوفرة «الحياة» وزيادة «الإنتاج» وبهر السحر وسحر الفتنة، بل دُور متهدِّمة متناثرة، وحقول نائمة ساكنة كَسِلة، وترع راكدة كدرة فاترة، وأشجار متجردة عارية صامتة، وناس فقدوا أو أماتوا «حيويتهم» ما بين ضنك الفاقة والأسى، أو بين الإفلاس في سوق «الجمال والحب»!

نعم، يكاد يكون من أشد العوامل في هبوط «حيويتنا»، وفي الإفلاس في خلق رجال ونوابغ وفنانين وشعراء ينهضون بنا وبالعالم جميعًا من هذا الركود الروحي، وهذه الرخاوة الشعورية الفاترة المتبلدة؛ هو أننا لا نعنى قليلًا ولا كثيرًا بتوسيع دائرتنا الثقافية من ناحية «الجمال»؛ فليس للحياة لدينا قيمة أكثر من أنها وسيلة إلى إرضاء شهواتنا المادية المنفعية، وإلى استدرار الأموال واكتنازها، وإلى حشو البطون وامتلائها، أما قلوبنا، أما شهواتنا الروحية، أما ثقافتنا «الشعورية»، أما ناحيتنا «العليا» وكائننا «الأسمى»، فتكاد تكون لدينا جميعًا نافلةً من النوافل، و«لا شيء» بين الأشياء، وهذا ما يجعل حياتنا موحشة قفرة فقيرة مظلمة مبغوضة ضيقة، وهذا ما يدعونا إلى أن نطأطِئ الرأس ذلةً وخجلًا وعارًا، إذا ما سمعت آذاننا أسماء نابليون وروسو وشكسبير وجوت ودانت وبيتهوفن وفولتير وماركوني وأديسون وتاجور وغيرهم؛ هنا أمام هذه الأسماء الخالدة نشعر بذلة في «فَخارنا القومي»؛ لأننا لا نعطي حياتنا قيمةً إلا من الوجهة المنفعية، ولا نفهم الحب إلا أنه وسيلة، ولا الجمال إلا أنه فريسة شهوة وضيعة، وملهاة فارغة لنفوس خاملة وقلوب ضعيفة.

وإذا كان هذا حالنا من الفقر في الشعور والخمود في «الحيوية» والركود في «الإنتاج»، وإذا كنا لا نعنى كثيرًا ولا قليلًا بـ «ثقافة الجمال»، ولا نخلق لأنفسنا بأنفسنا معابدَ الجمال ومهابط السحر، ومباعث الفن والخلق والفتنة، من هذه الأرض المدحُوَّة الخيِّرة المحسنة الغنية، ومن هذه الحقول الخضراء الوديعة الساكنة، ومن هذه الأشجار العالية الصامتة المتراوحة، ومن هذه «الكائنات العليا» كما يُسميها «لا مارتين»، التي ينقصها يد الأثري ليخرجها وينفض عنها غبارها، ويبرزها للعالم وللوجود فيضًا للإلهام، ورسولًا بالنور وبالحق وبالحب وبالجمال وبالحياة جميعًا.

أقول إذا كنا نحن بأنفسنا دعاة انحطاطنا ومعاول هدمنا، فنحن أيضًا بأنفسنا يمكننا — لو شئنا — أن نرفع «حيويتنا»، وأن نخلق من أرضنا جنات نحجُّ إليها ونحتمي بها، ونجد فيها أنفسنا، ونغذِّي فيها عقولنا وقلوبنا وأرواحنا، فتغترف عيوننا النور، وتستمتع قلوبنا وأرواحنا بما في الوجود من حب وجمال، ومن سحر وفتنة وإبداع وإعجاز، وتفيض عن عقول خالقة محققة، وعن رجال ونساء يشعون الحكمة والقوة والجمال في الأرض جميعًا!

ونعود الآن إلى ريفنا الساجي السادر الفقير، وإلى حقوله الصامتة الساكنة الخيرة، وإلى شمسه الوفية الدافئة، وإلى بداوته القانعة الراضية في ظلال الدعة والسكون، وفي آثار ومخلفات الأجيال الغابرة والعصور الدابرة.

ما أجمل تحية الشمس لأبناء الريف! وما أجلَّها حين تطلع من خدرها وتتلفت من حولها، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها وبسلطان دولتها على القلوب، تصحو من نومها وتنهض من سريرها، تتزيل أعضاؤها من فتور النوم، ويتراخى جسمها ويتهدل من كسل الراحة وسكرة اللين ونعومة الرخاوة، تظهر على عيونها الدُّعْج الناعسة الفاترة، والنائمة اليقظة، والمتبلدة النشطة، وعلى جفونها الخامدة الساكرة، وفي نظراتها المتكسرة الحائرة الحيية!

ما أجملها حين تتسلل من مطلعها على أبناء الريف من وراء الأبنية الواطئة البادية البسيطة الفقيرة، ومن خلال أوراق الشجر وسعف النخيل وأغصان الصفصاف المتهدلة في الترع الساجية، ومن وراء الحقول المحسنة الخضراء، والقباب البارزة بين الدور في القرية، وأبراج الحمام العالية، فتنعكس على الماء الجاري في القنوات وفي الترع، وعلى سنابل الزرع الأخضر وأعواد الأذرة الجميلة الجليلة في خضرتها وفي خيرها وفي زهوها، وعلى وجوه الريفيات الجميلات حاملات جراتهن المتمايلة المستهترة المتكبرة بمرح ونشاط،

في تيه وعجب وتدلل. نعم، ما أبهى طلوع الشمس على وجوه الجميلات في الريف، مبكرات في أعمالهن خفيفات إلى تحية الشمس الخيرة مصدر الدفء ومبعث الحياة!

جميل جدًّا ذلك السِّرب من النساء الرِّيفيات ماشيات على شواطئ التُّرع يَخطرن في زهو وفي نشاط، مُبتسِمات في غير كُلفة ولا صنعة، مُطمئنَّات إلى حياتهن البسيطة الخشنة، غارقات في نعيم الجهالة المُظلِمة، خارجات مع الشمس الساطعة يُحيِّين معها الإله العظيم في ملكوته وفي صنعه وفي إبداعه. وكم في الريف الساجي الهادئ من حِسانٍ ذهبَ جمالُهن بين ضنك الفقر وأوجاع الأسى، وبين أغوار الإهمال وظلام الجهالة، واختبأن بين القُرى والكُفور، بعيداتٍ عن عوالم النور، وعن معارض الجمال وملاعب السحر!

ويا ما أجلَّ مَنظر الفلَّاح المصري النشط خارجًا مع الشمس إلى حقله وعمله، يقود أمامه ماشيته وأغنامه آلة خيره وبَركته، ويجرُّ مِحراثه الخشبي البسيط الذي تغيَّر وجهُ الأرض وتطوَّر كلُّ من عليها، ولا يزال هو هو في بَداوته وفي بساطته كأنه يَهزأ من تلك المدنية ومُخترَعاتها وخيراتها!

يخرج ذلك الفلَّاح النَّشِط مُبكرًا من داره، حاملًا على كتفه فأسه وغلقه وأمامه ماشيته، غير مدَّخِر لنفسه راحةً ولو قليلة من عناء العمل، مُمتلئًا بوفرة النشاط، وبحب العمل، وبالشعور بالواجب الذي هو أساس كل الأخلاق جميعًا كما يقول «كانت». وأُشهِد الله أنه قلَّما يوجد من كل صنوف الفلَّاح في العالم مثل الفلَّاح المصري نشاطًا وجلَدًا وصبرًا على الكدح والعمل، وتحمُّلًا للبؤس وللكدِّ وللألم؛ فهو في الحق «فخر مصر وسيِّدها».

أوَّلُ ما تَشهَد في الريف إذا ما تسلَّلت أشعةُ الشمس من بين أوراق الشجر، ووراء القِباب والدُّور المُتواضعة، جماعاتُ الفلَّاحين؛ هذا يحمل مِحراثه، وذاك فأسه، وآخَر يسحب ماشيته، وآخَر أغنامه أو جمله؛ وجمعًا عديدًا من الأطفال الصغار الذين خُلِقوا من الأرض ليعيشوا على الأرض وليموتوا في الأرض، دون أن يعرفوا غيرها عالمًا أو وجودًا، يخرجون إلى الحقول والغيطان، ويعلمون الفِلاحة والزراعة ولما يشبُّوا عن الطَّوق، ولما تحتمل أبدانهم آلام الكد وإرهاق العمل، حاملين معهم غذاءهم هم وآباؤهم في مناديل أو في أسبات من الخوص؛ وسِربًا مُنتظمًا من النساء تارةً، ومُنتثرًا أخرى، ما بين حاملات جرَّاتهن من التُّرع، أو خارجات مع أزواجهن إلى الحقول، يُشاركنهم في تلقيط أذرة، أو جَني قطن، أو حصاد قمح، أو نقل سِباخ، أو حمل ردم، أو ريِّ زرع.

هذا المشهد الجميل من النشاط المُفرح الفاخر المُتسرب في الرجال والنساء معًا والأطفال أيضًا، هو أول ما تشهده في الريف وتحدِّث نفسك عنه حديث الإعجاب، بل

الإفراط في الإعجاب؛ لأنك تشهد فيه روح الشعور بالواجب والإيمان بالعمل وبالحياة، في تلك الطبقة الجاهلة البسيطة النشطة العاملة، التي تُدرُّ الخير على البلاد لبنًا وعسلًا، ولكنَّا نجهلها ونَزْدريها صلفًا وعُتوًّا، قُتِل الإنسان ما أجحَدَه وأكفَرَه!

هذا الشعور بالواجب الذي تشهده في الفلَّاح هو خير ما في الريف، ويا ليتنا جميعًا نشعر بهذا الشعور! إذن لتغيَّر وجه تاريخنا، وإذن لأصبحت الأمَّة كلها فردًا واحدًا يشعر بشعورٍ واحد، ويخضع لقانونٍ واحد، هو قانون الواجب لأنه واجب. يا ليتنا نعمل كأن كل عمل من أعمالنا — كما يقول «كانت» — سيصير قانونًا عامًّا! يا ليت كل فرد منا يقوم بواجبه في حدود وظيفته ومواهبه واستعداده؛ إذن لأنتجت هذه الجهود الفردية المنظَّمة خِصبًا وحياة وقدرة ونورًا!

وإذا خرج الفلَّاح إلى حقله في الصباح خلع ملابسه هناك ليستعدَّ للعمل المُجهِد، فتراه واقفًا في غيطه إما باحثًا مُفتقدًا مَسارب الماء ليرويَ زرعه، مُجتهدًا في أن يُزيل كل عائق أمام الماء ليجريَ خالصًا حرًّا في القنوات الضيِّقة، وإما جالسًا على نَورَجه في «الجُرن» يدرس قمحه أو برسيمه أو فوله، وفي أي وقت؟ في ساعة الظهيرة حيث لا ترحم الشمس أحدًا! ومع ذلك تراه حافِيَ القدمَين، عاريَ الرأس، مُتحمِّلًا حرارة الشمس بجلَدٍ كريم وصبرٍ جميل، غير ناقم على هذا الوجود ونظامه الذي يضطرُّه أن يسلك في سبيل العيش والحياة هذه المسالك الخشنة الوعرة، بل مُستمرِئًا كلَّ هذا الجهد وهذا الألم في سبيل أن يحيا، وأن يَعُول أولاده المساكين!

وفي الوقت الذي أراد القضاء الأعلى أن ينام فيه ناس، ويتقلَّبوا على الدِّمَقس المفتَّل، والأسِرَّة الناعمة الهزَّازة، والوسادات الحريرية الرَّخْصة.

في هذا الوقت يجلس فيه صاحبنا الفلَّاح على نورجه هذا هو وماشيته الأمينة الوفيَّة، تحت نار الشمس ووهجها وسَفْع التراب، ليُغذيَ العالم بخيرات غَرْسه وبَركات زَرْعه، وليُحييهم من عَرقه، ومن شبابه، ومن قلبه ودمه، بل من حياته جميعًا.

تراه في حقله مُشمِّرًا عن ساعِدَيه بجِدٍّ ونشاط ومرح، حاملًا فأسه يَفلح بها الأرض، ويضرب بها بين الحشائش ليُنقذ زرعه من شرها، مُنحنيًا بظهره لا يرفعه إلا ليأخذ نصيبه من الراحة ولو قليلًا، مُمسِكًا بمِحراثه الخشبي العريق في القِدَم يشقُّ به الأرض شقًّا، ويقلب عاليَها سافلها، أو يُحمِّل الرَّدم والسباخ لأولاده الصغار الذين يُشاركونه في عمله، ويُقاسمونه تعبه وهموم عيشه، ويظلُّ في عمله هذا حتى إذا حان الغداء حملت إليه امرأته سلَّةً من الخوص، بها بضعة أرغِفة من الأذرة أو الحُلبة، ومعها قطعة من

الجبن أو جانب من المش والبصل أو «المخلَّل» أو العسل الأسود أو اللبن الرائب، وهذا هو غذاؤه معظمَ الأيام إن لم يكُن كلها، ولكنه قانعٌ بعيشه، راضٍ بهمومه على خشونته وبساطته.

وإذا ما آذنَت الشمس بالمَغيب والتَهبَ قُرصها وراء الأشجار وبين دُكنة السُّحب، عاد صاحبنا من عمله ومعه ماشيته وآلاته، وعلى وجهه ابتسامة الرضا والبِشر، وجلال الإيمان وخشوعه، يجري في عروقه دم النشاط حارًّا دافقًا كأنه لم يعمل شيئًا في نهاره يُظلِم هذه الابتسامة، أو يُغضن هذا الوجه الباسم الراضي، وكأنه بذلك عاهَد أخته الشمس على ألَّا يخرج إلى عمله إلا معها مُشرِقةً، ولا يعود من عمله إلا معها غاربةً، وفاء دونه أي وفاء، من الفلَّاح لشمس الفلَّاح!

ولكن هذا الفلَّاح الهادئ الباسم في غيطه وعمله، تراه يفور فائره إذا عَلِم أن دور الماء أتى واعتدى عليه غيره، بحيث يَعوقه عن ريِّ زرعه، وإحياء خلاصة لحمه ودمه وحياته جميعًا، هنا تختبئ نفسه الطيِّبة الهادئة الوديعة إلى حين، وتظهر نفسه الشَّرِسة الباطشة، يُحاول أن يمنع هذا المُعتديَ على الماء؛ فإن أبى فليس أيسَر لديه للبطش به من «النبُّوت» يشجُّ به رأسه أو يُهشم أضلعه، حتى لو استحكمت الحلقات، وضاقت به آلات البطش والضرب، فإلى الفأس يقضي بها عليه؛ فالماء حياة زرعه، وزرعه حياته هو!

ندع الفلَّاح الآن قليلًا ونعود إلى شمس الريف الجميلة ثانيةً؛ فلقد شاهَدْناها مُشرِقةً باسمةً جميلة، في يقظتها وفي مَطلعها، وفي فِتنتها وفي بهرها، بين ضَباب الفجر وبَلَل النَّدى، وروح الأزهار والرَّياحين؛ فَلنُشاهدها غاربةً باسمة أيضًا، وَلنَقف أمامها نقدِّم فروض التقديس والعبادة والخشوع، لخالق هذا الكون العظيم في سعته، العظيم في سِره، العظيم في صمته وفي إفصاحه وبيانه.

شمس الريف الجميلة الجليلة العظيمة، معبود أجدادنا في أعماق القِدَم وطفولة الزمن، يعبدون فيها الدِّفء والحرارة والحياة والقوة والخير جميعًا، هذا المعبود العظيم للفراعنة العظام، وهذه «القوة» العظمى المقدَّسة، لأُولي الجبروت والقوة والقداسة.

هذه الشمس الجميلة المَهيبة المقدَّسة، لن تراها جميلةً حسناء فاتنة جليلة ساحرة في خير من الريف! ما أجملها وما أجلَّها حين تتوارى في صفحة السماء الزرقاء، فإذا بالزُّرقة حُمْرة، وإذا بالحُمْرة جمال وجلال وفتنة وقداسة وعبادة، وما شئتَ من فنون السِّحر والبهر! ما أجملها حين يتلهَّب قُرصها الأحمر الوردي في أتُّون السُّحب المُتقطعة المُتناثرة اللاهية، في قتامٍ مَهيب حينًا، وفي نورٍ جليل نقي حينًا آخَر. في هذه الحمرة

الوردية أو هذه النار البرتقالية، يتمثَّل قداسة الماضي وطفولته وقِدَمه، وعظَمة الحاضر وقوَّته ونشاطه، وآمال المستقبل وأحلامه وأسراره. وفي هذه الصور من القداسة والجلال والعبادة، لإلهة الدفء والحرارة والحياة، وفي هذا الماضي والحاضر والمستقبل، تتجلَّى «وحدة الوجود»، ويبرُز «الكل الأعظم» مُتآلفًا مُتآخيًا مع «الجزء الصغير»، مع العضو «المُنفعل» أو مع القوة «السالبة».

يعود مع الشمس كما خرج معها جماعاتُ الفلَّاحين بماشيتهم من أبقار وجاموس، وبحميرهم، وبأغنامهم، وبكلابهم أيضًا، وبصغارهم راكبين الحمير أو على ظهر الجاموس. وكم هو جميلٌ صوت الفلَّاح! صوتٌ تتمثَّل فيه الطمأنينة النفسية والرضا والقناعة، وهو عائد من عمله ساعة الغروب يسلِّي نفسه بتلك الأغاني الريفية الجميلة في بَراءتها وسذاجتها!

هذه الحركة الحيَّة الشاملة كل نواحي القرية نهارًا، وهذه الجموع العديدة من الرجال والنساء والأطفال لا تلبث كلها أن تهدأ بعد الغروب، وتسكن إلى الدُّور تستجمُّ فيها من العناء، وتجد فيها الدَّعة والراحة والسكون، فلا تعود تسمع صوتًا ولا جَلَبة، ولا نهيق الحمير ولا غثاء البقر الذي كنت تسمعه في النهار؛ فالآن ساد السكون، وتسلَّم الليل زِمام الحُكم، وعمَّ الظلام الداجي الرهيب، وهدأت الحركة، وسكن الزوج إلى زوجه وأولاده يجد لديهم راحته من عمله، وهناءةَ عيشه، وسلوى همومه وتعبه. وأين يجد الآباء هناءة العيش ورفهه، في خيرٍ من عناية الزوجات وعبث الأبناء ولَهْو الأطفال؟!

لعل خير ما في ريفنا هدوءه وسكونه! فهذه القرية التي كانت مَظهر نشاط شامل، ومَعمل حركة دائمة وحياة دافقة، قد خيَّم عليها الهدوء، وعلَتْها رهبة الصمت البليغ، وخشوع السكون المَهيب، وسكن الناس إلى ديارهم الفقيرة في ذلك الليل الرهيب رهبةَ الموت وفزعه، ويا ما أرهَبَ الليلَ في الريف! سكونٌ تامٌّ عن الحركة، ونوم كأنه موت، أو موت كأنه نوم، أو صلاةٌ صامتة وتسبيحةٌ دائمة، وعبادةٌ خاشعةٌ ساكنة، وفناء الوجود كله في إله الوجود وخالق الكون ورب السموات والأرض، فناء حي بطيء مستمر، قوي في ضعفه، سريع في ريثه وبطئه، شاعر في خموده وسَكْرته، عالم في جهله، مُتعبد في صمته!

في هذا الصمت الخاشع لم تعُدْ تسمع صياح الأولاد في الغيطان، ولا صوت «الفرقلة» يضرب بها الفلَّاح بقرته أو جاموسته، ولا يَقرع أذنَك صوتُ الحمير المُنكَر، ولا غثاء الجاموس والبقر، ولا صياحُ البط والإوَزِّ في التُّرع، ولا شجار جماعات الفلَّاحين، ولا مُشاتَمة النساء لسبب ولغيرِ ما سبب؛ فكل هذا قد هدأ إلى حينٍ بين بطون الليل وغياهبه،

واستكن في ظلمائه ودُكْنته، واطمأنَّ الناس إلى الحياة هادئةً راضيةً وديعةً آمنة في سواد الليل، بعد أن أصابهم الجهد ونال منهم اللغوب في بياض النهار، وعُدْت لا تسمع حفيفَ أوراق الشجر ولا هسيسه، يُلاعبها الهواء وتعبث بها أشعة الشمس اللاهية، ولكن عمَّ السكونُ كلَّ شيء، ونام كلُّ شيء عن الحركة، وباتت القرية ساكنةً هادئة في ظُلمة الليل الرهيب، مُتهجدة مُتعبدة قانتة، تحمد الله على أن حبا أهلها فيض الزرع والخير ونعمة العافية وسعادة الطمأنينة والرضا. ومتى تحلو العبادة، وتُرفَع الأدعية خالصةً طاهرة، في خيرٍ من رهبة الليل وظُلمته؟ ومتى يُناجى الإله، وتصعد إليه الشكايات والآلام والجِراحات، في خيرٍ من نوم الطبيعة والفناء الحي للوجود؟ وأين يكون الليل أشدَّ رهبةً وأبلغ صمتًا وأكثر وحشةً منه في الريف؟

هذا فلَّاحٌ مِسكين شقيٌّ، جلس إلى مُصلَّاه المُتواضعة المفروشة بالقشِّ وبأعواد البردي وبالحصير البالي، على حافَة التُّرعة، في سكون الليل ورهبته، وفي نوم الوجود وغفوته؛ يقدِّم لربه فروض العبادة والخشوع، ويسأله أن يفرِّج كربه، وأن يُجيب سؤله، وأن يَشفيَ مريضه. وهذه امرأةٌ مات زوجها عن أطفالٍ صغار، لم يعرفوا بعدُ غدْرَ الزمن ولا هموم العيش ولا جهاد الحياة، ترفع أكُفَّها ضارعةً إلى الله، ملاذ البائسين، وربِّ الشاكِين السائلين، أن يَكنُف هؤلاء الصغار برحمته وعنايته، ويجود عليهم بمَنِّه وفضله، وأن يَبسُط لهم من الرزق والخير؛ فهي أعجَزُ من أن تَعُولهم، وأفقَرُ من أن تقوم بعيشهم، وهو تعالى أكرَمُ مسئول!

وهذا فلَّاحٌ آخَر جلس أمام داره بعد أن نام أطفاله، وبعد أن سجى الليل وابتدأت القرية في صلاتها وعبادتها، يسأل الله بصوتٍ يقطِّعه ذلَّة البؤس، وتخنقه عَبرات الأسى وأوجاع الشقاوة، أن يُمكنه من تسديد ديونه لمالِكه الذي لا يرحمه، وأن يرفع ثَمن القطن هذا العام حتى يتيسَّر عيشه، وحتى يُمكنه أن يكسوَ أولاده وزوجه من عُرْيهم، وأن يُبارك له في محصوله ليعوِّض بذلك من محصول العام الماضي؛ حيث خانه الحظ، وعاكَسه القَدَر، واستبدَّ به المالك!

في هذا الهدوء الشامل الرهيب، وفي هذه الصلاة الخاشعة الصامتة، تسمع صوتَ المؤذِّن في المصلَّى يؤذِّن بصلاة العِشاء، فتَعْروك هِزَّة الإيمان، وتملك عليك كلَّ قُواك وكل وجودك قداسةُ العبادة وجلالة الخشوع، فتَرهَف بأُذنِك مع القرية الهادئة الساكنة، ومع النبت النائم المُتعبد، ومع أوراق الشجر الناعسة المُسبحة، القانتة المُرتلة، ولا يسعك إلا أن تستسلم، وإلا أن تندمج وتتَّحد مع هذه «العابدات»، وإلا أن تُشاركها في صلاتها وفي تراتيلها، وإلا أن تَفْنى معها في فَناء الوجود كله في ذات الله العُليا المقدَّسة!

يُسلمك هذا الصوت الخاشع الجميل، وهذه الصلاة الدائمة، وهذا الفناء الحي، إلى الذكريات العديدة؛ فتذكُر نفسك، وتذكُر علاقتك بربِّك وواجباتك إليه، وتقودك هذه الذكريات إلى أن ترفع رأسك وتحدِّق في السماء، وتجتليَ جلالها مُزْدانةً بالنجوم المبثوثة المُتألقة في صفحة السماء الدَّكْناء في ذلك السواد الرهيب، فتُفكر في نفسك وفي وجودك، وفي هذا الكون اللانهائي العظيم الذي تَعجِز عن إدراكه وفهمه عقولُنا ومداركنا وكل ملَكاتنا، ومع ذلك يدعونا الغرور والكبرياء الإنساني إلى أن نظنَّ أن عقولنا قادرة على إدراك كل شيء وتحقيقه، وأن مشاعرنا في مُكْنتها أن تُحسَّ وتشعر بكل ما في الوجود والكون، وفي الحق أننا لا نفهم قليلًا ولا كثيرًا حقيقةً من حقائق هذا الوجود فهمًا حقًّا صادقًا يُمكننا أن نطمئنَّ إليه ونقتنع به؛ فما يُدرينا أن هذا حق، وما يُدرينا أن هذا الذي نُسميه «عقلًا» قد لا يزيد معرفتنا تذبذبًا، وهدوءنا قلقًا، ويقيننا شكًّا، وما يُدرينا أن حكمه صحيح أو خطأ، سليم أو سقيم؟

يقول أناتول فرانس: «كل ما خطر ببالك، فالكون بخلاف ذلك.» فإذا كان هذا حقًّا، فبماذا نُدرك هذا الكون ونفهم هذا الوجود، إذا كنَّا لا نطمئنُّ لا إلى حكم العقل ولا إلى شعور القلب؟ أهكذا قُضِي علينا بأن نعيش مشرَّدين ملفوظين أمام هذا الباب القدسي المُوصَد أمامنا، محرومين معرفةَ الوجود الذي نعيش فيه، والنور الذي نراه، غُرباء حتى عن «أنفسنا»؟

أهكذا قُضِي علينا أن نصرخ ونهتف مع المَعرِّي حين استحكمت عليه حلقات الحيرة، وحفزه التشوُّف إلى المعرفة، فصرخ صرخةً من اللحم والدم، من نسيج الأسى وذلة الضراعة:

جَهِلنا فلم نَعلَمْ على الحِرصِ ما الذي يُرادُ بنا والعِلمُ للهِ ذي المَنِّ

إلى أن قال:

طلبتُ يقينًا من جُهينةَ عنهمُ ولم تُخبِريني يا جُهينَ سِوى الظنِّ
فإنْ تَعهَديني لا أزالُ مُسائِلًا فإنِّيَ لم أُعطَ الصحيحَ فأستغني

أين عقولنا ومداركنا وقلوبنا من هذا الملكوت الواسع، وذلك العالم الكوني اللانهائي العظيم؟ ما هذا الكون؟ وما كُنْهه؟ وما غايته؟ وما مداه؟ ومن نحن في هذه العوالم

الكونية الواسعة العديدة؟ وماذا وراء هذه السماء وهذه النجوم؟ ماذا تحت هذه الأرض؟ وماذا عند هذه الكواكب؟ وماذا وراء هذه الحياة؟ الموت؟ وما الموت؟ وماذا بعده؟ ولماذا؟ وما لون هذه الحياة الأخرى الموعودة؟ وما صِلتها بحياتنا الأولى؟ وإذا كان الموت هو خاتمة حياتنا الأولى فما هي خاتمة حياتنا الثانية؟ وما البعث؟ وما الحقيقة؟ وما الوجود؟ وأين ينتهي؟ ومن نحن؟ وماذا كنَّا؟ ومن أين أتينا وإلى أين نذهب؟ وماذا كان الوجود وماذا كانت الحياة؟ وماذا يُراد بنا؟ وما غايتنا من حياتنا؟ وماذا نعرف؟ لا شيء!

تلك وجوه أسئلة قد تمرُّ بخواطرنا إذا رفعنا رءوسنا إلى السماء نَجتلي سرَّها، ونُفكر في جلالها وعظمتها ورهبتها. ولسنا نملك في هذه الحياة إلا أن نسأل وإلا أن نُنادي؛ فنحن نُناديه تعالى كما يقول لا مارتين: «وإن لم يسمع، فإن عظَمتنا في أن ندعو، وعظَمته في ألَّا يُجيب.»

إلى أي حد نُصدِّق العقلَ ونَقبل حكمه راضِين مُطمئنِّين؟ وتُرى ماذا يحلُّ لنا مشكلة الوجود وسر الخليقة ومسألة المسائل؟ هل هو العقل؟ هل هو القلب؟ هل هو الإيحاء؟ هل هي الغريزة؟ هل هو الإلهام؟ هل هو الكشف أو الوجد؟ وبماذا نعرف «السر»؟ بماذا نفهم «المجهول»؟ هل بالحب كما يقول «تاجور» والمُتصوفة؟ أو هل بالعلم؟ أو بماذا؟ أو تُرى أن «المعرفة» ليست من حقوق الإنسان أو اختصاصاته في هذه الحياة؟ لعل هذا هو الأقرب إلى الحقيقة الضائعة «المجهولة»!

لقد نقد «كانت» العقلَ البشري في كتابه «نقد العقل المجرَّد»، وأظهر أنه لا يُعيننا على المعرفة، ولا يُساعدنا على الوصول إلى الحقيقة، وأنه مُعرَّض للخطأ في حكمه، وأنه لا يُرينا إلا صورة الحقائق لا كُنْهها، وأنه لا يجدُر بنا أن نتلقَّى حكمه بالقَبول الأعمى وبالاستسلام المُطلَق. واستنقصه أيضًا «برجسون» في كتابه «التطوُّر الخالق»، وبيَّن فيه أن عقولنا وحدها عاجزةٌ كل العجز عن استظهار حقائق الحياة وفهم الكون فهمًا يُرضينا ويُقنِعنا، وأننا لكي نفهم الحياة ونَستقريَها فهمًا كاملًا واستقراءً مُرضِيًا، يجب أن يكون فينا «لا وعي» النبات، وغريزة الحيوان، وبصيرة الإنسان!

هذا ولا يزال استنقاص العقل كمِعيارٍ ثابت للحكم على الأشياء وللوصول إلى الحقائق، سِمةَ هذه العصور أو هذا العصر الذي تزعزع فيه الثقة بكل شيء لا يتَّفق ونظريةَ التطور الذي هو سُنَّة الحياة، هذا العصر الذي أصبح لا يُعنى إلا بالواقع المحسوس، والذي أخذت تتزعزع فيه الثقة بالعلم وبما أخرج للناس كهادٍ يهدينا جميعًا

إلى إدراك أسرار الإنسانية، وإلى فهم الوجود، وإلى علاقة الجزء بالكل، والفرد بالوجود وبخالقه الأعظم! وغاية آمالنا أن يهتديَ هذا العالم الجديد إلى النور الذي يكشف له ما خَفِي من حقائق الوجود، وما استبهم من أسرار الكون، وأن يكون نورًا يُنير العقل ويُرضي القلب ويُقنع الروح؛ نورًا يُنقذ الإنسانية من هذا الظلام الروحي الذي تتخبَّط في غياهبه، ومن هذا الأَسْر الذي تعيش فيه؛ حتى تؤتيَ آثارها، وتُنتج ثمارها في ظلال الدَّعة والطمأنينة واليقين والسلام والحب والخير والإيمان.

وإذا ما أخذ الليل السَّاجي يَهصر أستاره ويرفع نِقابه، وانبلج نور القمر يتحلَّب بين أشجار السَّنط والصَّفصاف والكافور، استيقظ الفلَّاح من نومه على صوت المؤذِّن يدعوه إلى الصلاة، قبل أن تَطلع الشمس على العباد تُحييهم تحيَّة الصباح السعيد، واشتركَت دِيَكة الصباح في الدعوة إلى اليقظة وإلى الصلاة. وما أجمَلَها تقفُ على أسطحة الدُّور بأعناقها الطويلة وريشها الجميل، تُوقظ الفلَّاحين من رُقادهم، وتحثُّهم على القيام بواجباتهم والصلوات لربِّهم! وفاء للفلَّاح أي وفاء حتى من الدِّيَكة! وكم يكون جليلًا خاشعًا رهيبًا نداءُ المؤذِّن: الله أكبر! والناس نيام، والطبيعة كلها مُتعبدة قانتة ناعسة يَقِظة!

الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر في جلاله وعظَمته، الله أكبر في خلقه وإبداعه، الله أكبر في رحمته وغفرانه، الله أكبر في نِعَمه وإحسانه! هنا يغمر النفْسَ خشوعُ الرهبة وجلالة الإيمان وقداسة الدين، هنا تتَّحد النفس مع الله وتفنى فيه.

اتحاد حب ومعرفة وولاء، هنا أمام هذه الكلمة المقدَّسة العُظمى الجليلة الرهيبة الجامعة، وأمام هذه الطبيعة الشاعرة الناطقة في صمتها وفي كلامها وفي حركتها وفي سكونها، بعظَمة الله وبجلال الكون وفسحة الوجود. هنا تنطوي «النفس» وتنحني لتَفْنى في الله وتندمج في الطبيعة، وتجد «نفسها» وتشعر بـ «ذاتها»، وتخرج من «الأفيديا» AVIDYA من هذا الجهل بالشعور بالنفس كما يقول «تاجور»، إلى النور وإلى الحب والحق. هنا تهتف النفس صائحةً فَرِحة باسم الله، وتدع من مثل «داروين» رجلًا مؤمنًا، وتضطرُّه أن يصيح وأن يهتف: «يستحيل على العقل الرشيد أن يمرَّ به خَلجة من الشك في أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغات، وتلك الأنفُس الناطقة المفكِّرة، قد صدر عن مصادفةٍ عَمياء؛ لأن العماء لا يخلق نظامًا ولا يُبدع حكمة، وذلك أكبر برهان عندي يقوم على وجود الله.» هنا تنهزم العدمية (النهيليزم)، ويتبدَّد الإلحاد، ويعلو الحق والإيمان!

لقد أُنسيت أن أذكُر حين تحدَّثت عن الفلَّاح أن أخلَصَ وأوفى صديق إليه هو كلبه؛ فهو في الليل إما أن يأخذ مَقعده على سقف الدار وإما أمام بابها، ولا تغفل عينه عن حركةٍ يشعر بها ولو هسيسًا؛ فإن رأى ولو طيفًا أو خيالًا ولو لم يكُن في حارته فضحه بالنُّباح العالي، ثم تَسْري عَدوى النُّباح فتغدو القرية كلها نباحًا وصياحًا، وفي النهار يخرج مع المواشي أو مع الأغنام ولا يعود إلا معها، وإذا حدث أن اعتدى على [مواشي][1] سيِّده أحدٌ دافع عنها الكلب قدْرَ جهده واستطاعته، ولو تذهب في سبيل الذَّود عنها وعن صاحبه حياته، ولو يخترم الرصاص قلبه أو يُمزق جسمه!

فأين وفاء الإنسان من وفاء الكلب؟ وأين غُروره وصَلَفه من شجاعة الكلب وتواضعه؟ وأين غدره وخيانته من إخلاص الكلب وأمانته؟ فإذا ذكرتُ وفاءَ الكلب لصاحبه في الريف قادَتْني الذكرى، وسرى بي الخيال والخاطر إلى كلب «لا مارتين»، وكيف خاطَبه ولاطَفه وتحبَّب إليه حين قال له: «إن كنت أيها الكلب راقدًا في مواطئ النِّعال، فلا أذكُر أن قَدمي مسَّتْك يومًا ما احتقارًا، كما أني لا أذكُر أني زجرتُك يومًا بكلمةٍ تجرح حنانك وشفقتك.»

وليس كلب «لا مارتين» وحده هو الجدير بأن يأنس إليه صاحبه ويُخاطبه، ويجد لديه العزاء والسَّلوى عمَّا في الحياة من مكر وخديعة وكذب وغدر. وليس «لا مارتين» وحده الذي تُعوِزه السَّلوى فيتفقَّدها عند الكلب وعند الحيوان جميعًا، وقد افتقدها عند الإنسان النبيل الكريم حتى لم يعُدْ يؤمن بصداقة ولا يعتقد في إخلاص، بل كلُّنا «لا مارتين»، بل كلُّنا نجد في حياتنا كل يوم وكل لحظة غدرَ الأصدقاء، وتنكُّرهم ساعةَ الشِّدة، وتكالُبهم ساعةَ الرخاء، وكلُّنا نهتف مع المتنبي قائلين: «إذا عَظُم المطلوبُ قلَّ المُساعِدُ.» ونصرخ مع المَعرِّي في صرخته المُرَّة:

ومَن عاشَ بين النَّاسِ لم يَخلُ من أذًى بـمـا قـالَ واشٍ أو تَـكـلَّـمَ حـاسِـدُ

وكلٌّ منَّا رأى في تجارِبه الخاصَّة نُكرانَ الجميل، ودناءةَ الأصل، والخيانةَ من أعزِّ الأصدقاء عليه وآثَرهم لديه. وكلٌّ منَّا هزأ وسَخِر وشكَّ شكًّا يكاد يكون إنكارًا لصداقة الإنسان المزعومة، ولوفائه الكاذب، وإخلاصه الأجوف، وبحث عنها عند الحيوان الذي

[1] الناشر.

لا يعرف الكذب ولا الخداع ولا الزُّلفى ولا الرياء، وأصبح كلٌّ منَّا تقريبًا «لا مارتين» نجلس إلى كلابنا، وإلى قِططنا الصغيرة الجميلة البريئة نستدفئ لديها بحرارة الوفاء، ونجد فيها جميل السَّلوى وحُسْن العزاء. وبماذا نُعزي نفوسنا في هذه الحياة الطويلة أمام هذه الضروب المختلفة من غدر الأصدقاء وتنكُّرهم وكيدهم، ومن خصومة الأعداء وانتقامهم، ومن عداوة الزمن وقسوته؟ بماذا نُرفِّه عن نفوسنا المُعنَّاة وقلوبنا التي طفحت بالغضب وبالسخط، وبألوان الهموم وصنوف الأسى، إذا لم يكن بكلبٍ نُلاعبه ونُخاطبه ونُملس عليه ونُصاحبه ونُماشيه، أو بقطةٍ صغيرة نضعها على رُكبتنا، ونعبث بشعرها الناعم الجميل، ونُشاكسها ونلهو بها، ونجد لديها راحة الجهد، وجمال العبث، وحُسْن السَّلوى، وخير البِر والوفاء؟!

لا أريد أن أترك هذا الفصل قبل أن أقول كلمة عن «حياة اللهو» في الريف؛ وفاءً للعهد مع القارئ الكريم أن نُصوِّر له حياةَ الريف المصري تصويرًا، إن لم يكُن صادقًا كله فهو قريب من الحق والصدق، وهذه هي بُغْيتنا وقصدنا من هذه «الأحاديث» أو هذه الرسالة؛ محاولة متواضعة لتصوير ريفنا وفلَّاحنا للبيئة المدنية التي تجهله ويجهلها.

وماذا تتصوَّر أن تكون حياة اللهو في ريفنا المصري السادر الساكن الذي تنقصه «الحياة» والحركة، المحروم من كل وسائل الاستمتاع بالوجود استمتاعًا مرفَّهًا مُرضيًا؟ لقد ذكرت لك أن «أوساط الجمال الحي» في ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافي لقلوبٍ طامحة، وعقولٍ خالقةٍ مُحققة، ونفوسٍ أبيَّة كريمة كبيرة، وأن معنى «الحياة» عندنا يُقدَّر بمقدار ما تُدرُّ علينا الحياة من أرزاق ومنافع وحاجات ورغبات وشهوات. أما الغاية من الحياة لأنها «حياة»، أما إنها وسيلة وغاية ومثَل أعلى، فلا نُعنى بهذا قليلًا ولا كثيرًا. وإذا كنَّا نفهم الحياة هذا الفهم، وننظر إليها بهذا المِنظار، فقلَّما نُعنى بالبحث عن وسائل الاستمتاع بها استمتاعًا يغذِّي قلوبنا وأرواحنا، ويُرضي طموحنا وكبرياءنا وآمالنا، وقلَّما نفكِّر في العناية باللهو والعبث والسلوى، وخاصَّةً بـ «ثقافة الجمال» وبـ «رسالة الحب».

ونحن بذلك إنما نُعطل ملَكاتنا ووظائف أعضائنا التي حباها الله لنا ووهبنا إياها لنستخدمها في وظائفها، ولنستمتع بما خُلِقت من أجله، ونحن بذلك نُوحش من حياتنا، ونُضيق من فسحاتها، ونُحقر من قدرها، ثم نشكو منها ونتألَّم لأنها لا تُرضي رغائبنا ولا تُجيب حاجاتنا. ولو أنصَفْنا لشكَونا أنفُسنا، وأنحينا باللائمة والتقصير على عقولنا التي نقيِّدها بالتعصُّب والعماية والتقليد، وعلى قلوبنا التي نُغلقها ونُظلمها بالجهل

والإفراط والإسراف في المُجون والعبث، وعلى أرواحنا التي نأسِرها بالكسل وبالتراخي وبالهمود، ثم نتذمَّر ونلعن نظام الوجود الحائر؛ لأنه لم يجعلنا في عِداد السُّعداء المُترَفين الرافهين، العلماء النابغين، ونصخب ونثور ونكتئب ونحقد ونحزن ونبكي. ولو كنَّا قُضاةً عادلين لشكَونا وصخبنا وتألَّمنا من أنفُسنا، من بعض أغنيائنا أرباب الأرض والطين، وأصحاب المنازل والقصور والقناطير المُقنطَرة من الذهب والفضة، المُكتنَزة في طِيَّات الورق وتحت الوسائد وأحجار البلاط، الذين خُلِقوا فألفَوا أنفُسهم أغنياء عن آبائهم وأجدادهم في تلك العصور السُّود، عصور الإقطاعية والجبروت والاستعباد، ثم شراء مُتَع النفوس وحاجات القلوب بالضِّياع وبالقصور وبالفدادين، فلم يتذوَّقوا ألمَ الفاقة، ولا أوجاع الأسى، ولا هموم العيش، ولا ذلة السؤال، ولم تَخمُص بطونهم من الجوع، أو تَنحَل أجسامهم وتَستحِلْ ألوانهم من كثرة الشكوى وإلحاف الرجاء وطلب العون، ولم تَهطِل من عيونهم يومًا دمعة البؤس مُمتزجةً بدم الوجيعة وجِراح الفقر؛ فليس بغريبٍ أن تُصَم آذانهم أمام شكايات البائسين وأوجاع المُحتاجين، وأن تُغلَق قلوبهم المُتحجرة أمام أصوات السائلين وصرخات المُعوِزين. وليس بعجيبٍ أن يتصامُّوا عن استماع صوت «الإصلاح»؛ لأنه لا يعنيهم أصحاب الطين والقصور، بل يعني هؤلاء المساكين الفقراء «عبيد» هؤلاء «الأسياد» في عصرٍ زالت فيه العبودية والسيادة. وهذا الصنف من الأغنياء الأشحَّاء الجامدين في مصر يذكِّرنا بقول صاحبنا «روسو» عن أغنياء فرنسا، قال: «لم يكادوا يذوقون لذة الإمارة حتى احتقروا غيرهم، وحتى أصبحوا لا يفكرون في شيء إلا إخضاع الناس واسترقاقهم، مثل الذئاب المُتوحشة التي لا تكاد تذوق طعم دم الإنسان حتى ترفض أيَّ طعامٍ آخَر، ولا تتلذذ إلا إذا شربَت منه.»

ولست أدري ما الذي قدَّمه هذا الصنف من الأغنياء إلى بلادهم التي أثْرَوا من أرضها، وابتنَوا قصورهم تحت سمائها، وملئوا بطونهم وجيوبهم من ثمارها وخيراتها، ماذا غير تصعُّر الخدود، وانتفاخ الوجوه، وهز الأكتاف، وإيماءة الرءوس، والحديث بالإشارات، والتلوِّي والتقطُّع في الكلمات، والخطاب بالأنوف، والنظر بالأقدام والرَّكل بالأرجُل، ثم طي الأرض والشوارع بالسيَّارات واللهو بالماجنات الغانيات، وبذر الأموال على الموائد الخضراء، وقضاء ثُلثَي العام كله في الغرب بين الأندية ودُور المجانة ومصايد النساء؟

هنا يحضُرني قول «روسو» وصرخته العالية المُرَّة حين أذكُر وأنا أتألَّم هذا الصنف من الأغنياء الذي أبغيه وأتصوَّره حين أكتب هذه السطور، وهو صنفٌ معروف بيننا

جميعًا يكاد لا يشعر بشعورنا ولا يتألَّم لآلامنا، ويكفُّ يده عنا حين يجب أن يبسُطها، ويوصد أبواب أمواله المُكتنزة أمام صيحاتنا وشكاياتنا في كل خطوات إصلاحنا حين يجب أن يفتحها، قال «روسو»: «ماذا صنعَت العائلات التي تُسمَّى شريفةً لمجد وطنها أو لسعادة بني الإنسان؟ وماذا أنتجت في أكثر البلاد التي سطع نجمها فيها، إلا أن ظهرت عدوَّةً للقوانين وللحرية، وإلا أن أعانت الاستبداد وظلم الشعوب؟»

نعم! يؤلِمنا جدًّا أن يكون بعض أغنيائنا على هذه الحال؛ فلا يألمون لآلامنا ولا يشعرون بشعورنا، يؤلمنا أن يُنحُّوا أنفُسهم عن الميدان وعن العمل وعن عملية الإنشاء والبناء والإصلاح، فكأنهم ليسوا منَّا ولسنا منهم، وكأن مصر هي وطننا وحدنا أو وطنهم وحدهم لأنهم «أصحاب المصالح الحقيقية» فيها، كما أُذِيعت هذه العبارة في هذه السنين، يؤلِمنا أن يكون في أيديهم طب الداء وعلاج الحال، ثم يقعدون ويتنحَّون ويبسمون ويَسخرون!

نعم! إن شكَونا أحدًا في كل ما نشعر به من بؤس وضنك واحتقار لمعنى «الحياة»، وحرماننا من الاستمتاع بها، وجهلنا بـ «ثقافة الجمال»، وتكاسُلنا عن كل وجوه الإصلاح، وتأخُّرنا عن الأمم التي تجري وتعدو ونحن نزحف ونحبو، فإنما نشكو أولًا هذا الصنف الجامد من أغنيائنا، وثانيًا حكوماتنا؛ وذلك لأن مصالح البلاد تهمُّ فئة «المحكومين» أكثر مما تهمُّ فئة «الحاكمين»؛ لأن المحكوم هو الذي يشعر بالألم، وهو يفهم الفقر ويعرف الأسى ويُقدر «الإصلاح»؛ فعسانا نُقبِل على عصرٍ جديدٍ يشعر فيه أغنياؤنا بقيمة «الإصلاح»، وبالحاجة إلى العمل والاشتراك مع الأمَّة في كل وجوه السعي والكد والبناء، ويأخذون نصيبهم من الجِد والنشاط، وتقديم مواهبهم واستعدادهم وثروتهم لإصلاح هذا «الهيكل» المُتهدم، وتطبيب هذا «الجسم» المُنهدِّ من التعب والمرض؛ ليقوى على الحياة، ويصبر على التنازع على البقاء، ويثبت في «الانتخاب الطبيعي»، ويُشعَّ القوة والعمل والخِصب والخير جميعًا شرقًا وغربًا!

ونعود ثانيةً إلى ريفنا ولَهْوه بعد أن أبعَدَنا عنه قليلًا حضرات الأغنياء.

لسنا نعرف في القُرى ما نعرف في المدن من الملاهي والنوادي للتمثيل وللَّهْو وللمحاضرات والمناظرات، أو مشارب للقهوة وما فيها، أو ملاعب للنرد والبليارد، أو مراقص للفِتيان والفتَيات ولمُحبِّي الجمال وعُشَّاق العبث. ولسنا نعرف فيها دُورًا للسينما ولا نواديَ للرياضة، ولا مَكاتب لمُحبِّي الأدب وعُشَّاق الاطلاع. ولسنا نرى فيها ما نرى في المدن من مُتنزَّهات، ورياض وحدائق باسقة عاطرة بالورود والأزاهير، غاصَّةً بملكات

الحُسن ومالكات القلوب وزينة الحياة الدنيا. ولسنا نسمع فيها ما نسمع في المدن من أصوات الكمنجة والعود والبيانو و«الجازبند»!

يُفارقنا كلُّ ذلك إذا ما وطئت أقدامنا الريف المصري. وإذا كان ريفنا ساكنًا ساذَجًا فقيرًا من «الحياة» ومن الحركة، فكذلك حياة اللهو فيه بسيطةٌ بريئة لا تزال عليها مسحة البداوة الريفية، لا تُحركها بواعث «الحياة»، بل هادئة ناعسة حالمة في الماضي الدابر والعصر الغابر؛ فلا يعرف الفلَّاحون من أدوات الموسيقى إلا «الأُرغول» والمزمار والطبل البلدي و«السلامية». وقد يكون لهذه الموسيقى الريفية جمال، بل في الحق لسنا نُنكر ما فيها من جمالٍ يَملِك علينا قلوبنا وحواسَّنا حينًا، بنبراتها الريفية البريئة العارية عن كل غموض وتعقيد وحُليٍّ، الهادئة الساكنة المُعتدلة الرفيقة كأبناء هذا الوادي المُبارَك الساجي الحالم، ولو أنها خِلوٌ من المعاني السامية والإلهامات العليا والتيَّارات الروحية النبيلة، ولو أنها لا «تخلق» جديدًا أو توقظ هامدًا أو تبعث عاطفة، لكن مع كل هذا لها جمالها الريفي الصامت البريء العاري عن كل صبغة وتحسين، نَجْنح إليه ونميل حينًا؛ ساعةً تكون عواطفنا هائجة، وملَكاتنا الحاسة يَقِظةً مُتعَبة في العمل والحركة؛ ساعةً تُكربنا هموم العيش والتفكير في مصائب الحياة التي تنصب كل لحظة كأنها الغيث الهَتون، هنا تهمد عواطفنا الهائجة فانيةً في هذه الأنغام البريئة الرقيقة، فننسى حينًا ما في الحياة من وصب وضنك وشقاء!

الأرغول إذن و«السلامية» هما كل ما يعرفه الفلَّاح من آلات الموسيقى، وهو كثيرًا ما يحمل أرغوله أو مِزماره ويترنَّم به في الغيطان والحقول الساكنة الحالمة ليُرفِّه عن نفسه عناء العمل، وليُهدهِد بها أغنامه. وهو لا يعرف من ضروب اللهو والسلوى، وقضاء أوقات فراغه والاستمتاع بما في الحياة من لذة وجمال، إلا الجلوس على «المصطبة» أو على حافات التُّرع والجسور، أو في الطريق يلعب «السيجة» بالأحجار في التراب، وإلا «لعبة الحطب»، وهي المُضارَبة أو المُبارَزة بالعِصيِّ الغليظة.

ومع فقر حياة اللهو في الريف وبراءتها وبساطتها فقلَّما يُزاولها الفلَّاح المصري؛ لأن مَشاغل حياته كثيرةٌ تشغله عن أن يأخذ نصيبه من الحياة الدنيا، من اللذة ومن اللهو، وكيف له أن يلتذَّ ويلهو وحياته بطبيعتها لا تكاد تنتهي من العمل طِيلةَ النهار؛ فهو من الغيط إلى الدار!

وكم تراه فَرِحًا مُغتبطًا تنفرج شفتاه عن ابتسامة السعادة والفرح والاستمتاع بالحياة يوم عُرْس في القرية، أو يوم «المولد»، أو موسم من المواسم، أو ليلة من «الليالي»،

هنا تجده يتكالب ويتهافت على مكان العُرس أو المولد أو الليلة ليستمع إلى مُغنٍّ مشهور، أو غير مشهور، أو مرتِّلٍ كبير أو صغير، أو مُنشِد في حلقة الذِّكر، فيأخذ مكانه بين المُستمعين ليرفِّه عن نفسه، ويُبرد قلبه ويُضيئه باستماع آيات كتاب الله الكريم، أو قصائد مدح نبيِّه العظيم، ثم تفجؤك بل تروعك هبَّته وصيحاته العاليات الصاخبات، صيحات الاستحسان والإعجاب؛ فيقفز من مكانه أو يُلقِي بما على رأسه من «طاقية» أو «لبدة» في الأرض، ثم يُهرول إلى المُقرئ أو المغنِّي طالبًا منه إعادة ما يقوله ويُنشِده؛ لأنه حرَّك هامد عواطفه، وأيقظ نائم حواسه، وأروى قلبه الصاديَ المُغلَق أمام منافذ الجمال والفتون واللذة.

وإذا أردتَ أن تتحقق من «يوم» الفلَّاح، فهو يوم المولد للأولياء؛ فتراه يَبرَح قريته ويتوجَّه إلى مكان المولد مهما كان بعيدًا، ومهما كانت الطُّرق إليه مُلتويةً عَسِرة، وقد يُسافر له خاصَّةً، وقد يقترض من أجله ليوزِّع على الغانيات الساقطات بعضَ ما يقترض ثمنًا لابتسامةٍ ماجنةٍ فاسقة، أو قُبلةٍ أمام الأنظار جميعًا من رجال ونساء، وما إلى القُبلة من حاجات النفس الوضيعة السافلة، ورغائبها الساقطة القذرة؛ نفس لم تُهذبها التربية ولم يُشذبها المجتمع. والبعض الآخَر يشتري منه جانبًا من «الحمص» أو «حب العزيز» أو «الحلاوة السمسمية» لزوجه وأولاده ولأفراد عائلته من أقارب وأصهار، ومن كل ذي نسب ورحم. وإذا ما وصل إلى «التياترو»، أو إلى «السِّرك» بمعنًى أدق، عُرِضت عليه المهازل والمساخر التي تُلائم عقليته المستعدَّة للهزل وللسخرية. وهناك تقع عيناه على أشدِّ المناظر فُحشًا وأنكرها فسوقًا ومجانةً، وهو مع ذلك فَرِح مُغتبط لأنها تُلائم شهواته، وتُرضي عواطفه، وتُشبع ميوله. وهناك تُعرَض عليه رقصات البطن الماجنة الفاحشة من بنات الخلاعة والهوى الفاسق. وهناك يُلْقى على سمعه وعلى سمع رجال الإدارة أيضًا أغانٍ وأدوارٌ كلها الفُحش والفِسق، وكلها مما يُحرض مباشَرةً وجهرًا على هَتْك ستر الحياء، وعلى الإغراق في المجانة والفسوق وما إليهما. ولا يُبالي أصحاب هذه الملاهي — أو هذه «الخوامير» بمعنًى أصح وأقرب إلى الحق — بوجود نساء بين الرجال يشهدن هذه المناظر ويسمعن هذه الأغاني؛ يشهدن رجلًا يحتضن غانية، ويُبصِرن غانيةً تتلوَّى وتهتزُّ في حركاتٍ تُهيج العواطف وتُوقظ الشهوات، ويسمعن أغاني تُحرض تحريضًا صريحًا على ما ينزل بالنفس وبالأخلاق إلى أحطِّ ما يُمكنها أن تنزل إليه، ولكن لماذا يُبالون وهم يرَون في عرض هذه المشاهد وهذه الأغاني رواجًا لسوقهم وربحًا أيَّ ربح لتجارتهم؟ ولماذا يتحرَّجون وعواطف بعض النساء نفسها تريد ذلك، ومُيولهن

تميل إلى هذه الأغاني الماجنة وتلك المشاهد المُغْرية، وإن بذلن كل جهودهن ليُخفِين عواطفهن الباطنة وشعورهن الداخلي من تستُّر واصطناع الحياء وادِّعاء الخَفَر؟

وإذا عرفت أن فلَّاحنا يرقص طرَبًا ويطير فرحًا لأبسط منظر من مناظر اللهو، فلا يأخذك العَجب لو رأيت رجال القرية ونساءها وأطفالها خرجوا جميعًا من دُورِهم مُهرولين ليسمعوا ما يحكيه «الفونوغراف». وأُشهدُ الله شهادةً لا حَنَث فيها ولا كذب، أني قد كِدت أبكي أسفًا لعقلية جماعة من الفلَّاحين والفلَّاحات، ولحرمانهم من موارد اللهو وأمكنة الاستمتاع بالحياة والقدرة على التسلية، يومَ أبصرت هذه الجماعة في قريةٍ صغيرة من قُرى ريفنا المصري لا تزال حيةً تُرزَق حتى كتابة هذه السطور، أبصرتهم جميعًا قُعودًا ووقوفًا أمام «الفونوغراف» ينظرون بلهفة وبذهول إلى ذلك «الإنسان» الذي يختبئ في نفير «الفونوغراف» ثم يغنِّي ما يردِّده هذا الفونوغراف، ثم يُحاولون أن يتعرَّفوا كلَّ شيء عن هذا الإنسان المُختبئ. وإني لأذكُر أني رأيت بينهم امرأةً عجوزًا تتراجع إلى الوراء وجلًا وخوفًا؛ لأنها كانت قد سمعت «أسطوانة» تحكي شِجارًا وعِراكًا، فخافت أن تمسَّها عصًا من عِصيِّهم، أو لطمةٌ من لطماتهم. عقليةٌ مِسكينة جاهلة تستحقُّ الرحمة والشفقة!

لقد ذكرت أن آلات الموسيقى في ريفنا هي الأرغول والسلامية، ونسيت أن أذكُر عاملًا ثالثًا مُهمًّا في حياة اللهو في ريفنا المصري لا يخلو من خطر وأهمية، ذلك هو «الربابة»، ويُقابلها في المدن «الكمنجة». وإذا كنَّا نتقبَّل الأصوات والأغاني وأدوار الموسيقى بآلاتها المختلفة، ونستحسنها ونسوغها بحسب ثقافتنا وتكويننا العلمي وتربيتنا الخلقية، وبحسب استعدادنا لقبول الإلهامات العليا، وشعورنا بسلطان «الجمال»، وإدراكنا «للعالم الباطني»؛ أقول إذا كنَّا كذلك فليس بعجيبٍ أن تكون «الربابة» عند الريفيين ولدى العامة أشد من «الكمنجة» تأثيرًا في العواطف، وامتلاكًا للقلوب وللحواس جميعًا، وأدْعى إلى ترقيقها وتهذيبها. ولشَدَّ ما يَهرع الريفيون إلى ذلك الذي يُسمونه «شاعرًا» ويجلسون حوالَيه، وتعتلي النساء أسطحة الدُّور، ويترامى الأطفال والأولاد تحت أقدام الرجال، ثم يجلس هذا «الشاعر» على دكةٍ خشبية ليظهر بين القوم، ويُمسك ربابته ويبدأ بتجربة الأوتار، ثم يشفعها بـ «كحة» تتوالى المرة بعد المرة، فيُرهفون له آذانهم الصاغية، ويسُود عليهم جميعًا السكون وكأن على رءوسهم الطير!

وهنا يبدأ هذا «الشاعر» بمديح النبي عليه السلام. ولا يخلو هذا المديح غالبًا من «التغزُّل» أو التشبُّب به؛ فهو جميل، أكحل العَينَين، أدعجهما، بِهِما حَوَر، أحمر الخدَّين،

مُتورد الوجنتَين، دقيق الفم، لؤلئيُّ الثنايا، ياقوتيُّ الشفتَين، وإلى غير هذا مما هو خليق بالحِسان وبالغِيد الجميلات، لا بنبيٍّ عظيم صاحب دين كريم، ودستور اجتماعي كبير خطير، لا بمحمدٍ صاحب «الرسالة» الكبرى ونبيِّ الكتاب الأعظم. ومن العجيب بل من المُخجِل حقًّا أن نسمع في هذا العصر الذي نعيش فيه، وفي سِنِي تلك النهضة التي نهضناها والخُطى التي خطَوناها، أن نسمع عن «النبي» من الوصف ما نسمعه من المجنون عن «ليلاه»، ومن كُثيِّر عن «عزة». إن هذه لأكبر وصمة نُنزلها بديننا، وأشدُّ جريمة نرتكبها ضد «نبينا». ولقد حان الحين لأن نعرف عن «النبي» ما يليق باسمه العظيم، وبدِينه القويم، وبرسالته الكبرى، وبمذاهبه وتعاليمه الاجتماعية الروحية الفلسفية الخالدة أبد الآبدين. وإذا ما عرفناه حقًّا، وفَهِمناه كما يجب أن نفهمه، هنا يكون حبُّنا له وصِلتنا به واندماجنا فيه وتتبُّعنا وخضوعنا لتعاليمه ولسُنَّته، أقوى وأثبت وأصدق من هذا التغزُّل المُخجِل وهذه الألفاظ الحقيرة، ولن يكون «حب الجهل» كحب المعرفة والفهم والإدراك!

ثم يتطرَّق هذا «الشاعر» من مديح النبي عليه السلام إلى مديح أبي زيد الهلالي، فيذكُر قصيدته هو والزناتي خليفة ودياب بن غانم، وما أظهره كلٌّ من هؤلاء الفُرسان الأبطال في الحرب من ضروب الشجاعة الخارقة، وما قاساه «الهلالية» من ألوان الهَول والبأس، وكيف أذلُّوا «الزناتية» وقهروهم وأخضعوهم إلى سلطانهم، ثم يذكر جمال «عالية» امرأة أبي زيد، ويتغزَّل فيها ويتشبَّب بكل جزء من جسمها، ويفتنُّ في وصف كل مظهر من مظاهر جمالها، في صوت لا يخلو من جمال أحيانًا، بحيث ترى الكل قد استفزَّتهم هذه الضروب من الشجاعة، فحرَّكت فيهم النخوة والبسالة، وأظهروا إعجابًا بهؤلاء الأبطال، وإعجابًا خاصًّا كله التَّفاني والولاء والتعصُّب لـ «أبي زيد» بطل الحرب ورَجلها. وعند إشادة «الشاعر» بمحاسن «عالية» وغيرها من النساء، وبعيونهن وشعورهن وصدورهن ونُهودهن، ترى الرجال قد توسَّعت أحداق عيونهم، وانفرجت شفاههم عن ابتسامات لها معناها، وعن ضحكات الإعجاب، وتمثَّلت شهواتهم وبرزت سافرةً على عيونهم وعلى وجوههم كأنهم يشهدون حقًّا «عالية» هذه، وكأنها أمامهم تنفث فيهم سحر جمالها ودلالها، وكأنهم يريدون أن يقتلوها نظرًا وتفرُّسًا و«زنا العيون»!

هذا الضرب من اللهو الريفي المصري البسيط البالغ جمال البساطة وبراءة السذاجة، ليس قاصرًا على الريف، بل يجد مَنازله حينًا في بعض أحياء مدننا عند العامة

ومن إليها، وليس هو بقاصر أيضًا على مصر وحدها، فإننا نعرف «الإلياذة والأوديسا» لهومير، إن تحقَّقت هذه النسبة من الوجهة التاريخية الأدبية، ونعرف أن اليونان القُدماء كانوا خاضعين كل الخضوع لهذا الضرب من اللهو، وكذلك كل الأمم في عهود بَداوتها وفِطرتها، وكانوا يتلذَّذون حقًّا بالجلوس أو الوقوف حول «هومير» وغيره من القُصاص والشعراء، يذكرون لهم الحروب القديمة وأبطالها، وأعمال هؤلاء الأبطال وشجاعتهم وبَسالتهم، وكل ذلك بأسلوبٍ قصصي جميل له جماله وله أنغامه، يتَّفق وعواطف القوم وميولهم وشعورهم وأوساطهم وتربيتهم وتكوينهم. ونحن نعرف أيضًا أن لكل أمة بَدويِّها ومُتحضرها ضُروبَها من اللهو، ولكلٍّ منها الطُّرق والوسائل المختلفة لإرضاء عواطفها ونزعاتها، وإشباع شهواتها وميولها، وحاجات عقولها وقلوبها.

وإذا كانت أيام «الأعياد» تُحسَب من حياة اللهو، فما هو يوم العيد في ريفنا المصري؟ تُحسُّ بتباشير «العيد» حينما ترى كل امرأة تَحِيك ثيابَ أولادِها الجُددَ، وحينما تُبصر حركةً عامَّة شاملة في البيوت جميعًا ليلًا ونهارًا؛ من عجين الخبز، وإعداد «كعك» العيد، ومن دُخان مُتصاعد من فجوات الدار ومن فرنها، ومن عملية غسيل، ثم تجفيف ونشر على أسطحة الدُّور، إلى عملية كنس الحارات، كل امرأة أمام دارها، إلى عملية «الحناء» وخروج كل امرأة في الليل ببلَّاصها أو صفيحتها إلى التُّرعة للاستعداد للاستحمام والاغتسال!

ولن تطلع الشمس من خِدرها ومقصورتها صباح العيد حتى تملأ عينَك مَناظرُ الأطفال والأولاد بجلاليبهم الحمراء والبيضاء، وبأيديهم الملطَّخة بالحِنَّاء، وفي أيديهم قِطَع الحلوى أو «عفريت النسوان» أو لعبٌ أخرى، ثم تُبصِر جماعات الريفيين بجلاليبهم البيضاء غالبًا، وببُلَغهم الصفراء الجديدة، ولُبَدهم السوداء أو الحمراء حينًا، يسيرون مُبتسمين فَرِحين مهنِّئين بعضهم بعضًا بالعيد السعيد المُبارَك، الذي قلَّما يتلاقَون ويتقابلون جميعًا إلا في مِثله، مُتوجهين إلى المُصلَّى وإلى المساجد حيث يُقيمون هناك صلاة العيد، وبعد ذلك إلى مقابر الموتى حيث يرفعون لهم هناك أدعية الرحمة، ويُنزلون عليهم غيث المغفرة والرضوان، وحيث يتذاكرون المصير الأخير والنهاية القاسية المُرَّة، ويتذاكرون موتاهم الأعزَّاء وماذا خلَّفوا في حياتهم، فيتَّخذون منهم ومن أجداثهم وعظامهم عِبرة الحياة وعظة الموت ودرس «المصير».

وهناك تُشاهد بين المقابر جماعات النساء بسِلَلهم وبأسباتهم مليئةً بالكعك وبالتَّمر وبالحلوى؛ لتُوزَّع على جموع الأطفال والأولاد هناك «رحمةً» على موتاهن، وذكرى

لعهودهم، ووفاءً لحقوقهم. ويملأ سمْعَك أصواتٌ عالية من جماعات «الفقهاء» يقرءون سورة «يس» الكريمة خاصَّةً، ثم يُجازون على ذلك ببضع «كعكات» أو جانب من التَّمر.

وأخيرًا يعودون إلى ديارهم، يتزاوَرون ويُهنئون بعضهم بعضًا رجالًا ونساءً. وفي العصر يخرج الرجال إلى الخلاء والأمكنة الفسيحة أو «الأجران»، وهناك يلعبون «لعبة الحطب»، وهي كما قلنا المبارزة أو المضاربة بالعِصي الغليظة، أو يلعبون بالكُرة من الخِرَق البالية، أو يقضون جانبًا من الوقت في «الأراجيح» المُزدحمة ساحتها بالأطفال والفتَيات والرجال.

ومن المُدهِش أن ترى أحيانًا في يوم العيد في الحقول كثيرًا من الفلَّاحين بجلاليبهم الزرقاء يُزاولون عملهم اليوميَّ بجِدٍّ ونشاط، ولا يُعطون جسومهم حقَّها من الراحة حتى في مِثل هذا اليوم!

هذه هي صورةٌ مُختصَرة جدًّا للعيد في الريف، وهي صورةٌ ساذَجة بريئة كما ترى، ولكن نُلاحظ أنه يَنقُصها روح «الحياة» والشعور بالذات، وهذه الظاهرة تكاد تكون عامةً في مدننا وفي ريفنا؛ فلن نفهم من العيد إلا الملابس الجديدة الأنيقة، وإلا الطهيَّ الجيِّد والمأكولات الشهيَّة، أما العيد كيومٍ نلتقي فيه والطبيعة العظيمة المحبوبة الجليلة في حدائقها وأزهارها وبحارها وأنهارها؛ أما العيد كيومٍ نُحاول فيه الشعور بذواتنا وتغذية قلوبنا وأرواحنا مما في هذا العالم الرحيب من نور ومن جمال، ونُطلِق فيه نفوسنا على سجاياها وطبائعها تنتقل على أفنان الحب، وبين دوحات الجمال، لا وَجِلةً ولا مُتوجسة شرًّا، ولا خائفة رقيبًا أو عاذلًا أو مُواضَعات الناس؛ أما العيد بهذا المعنى فبعيدٌ عن بيئاتنا المصرية وعن تفكيرنا، وهكذا نخلق لأنفُسنا بأنفُسنا مواضعَ الوحشة وغياهب الظلام وقيود الأسْر!

قلنا قبل الآن إن الفلَّاح المصري — رغمًا من بساطة حياة اللهو لديه — فهو لا يُزاولها إلا ندورًا؛ فلسنا نعرف رجلًا مشغولًا عن العالم وعن لهوه ولذَّاته مُنعزلًا قابعًا في داره، مُحتقرًا للحياة أو لمعناها بمعنًى أصح مثل فلَّاحنا المصري؛ فهو لا يُقدر لنفسه وجودًا ذاتيًّا، ولا يُدرك معنى الشعور بالحياة، ولا يعرف أن هذه الحياة مِلكٌ لنا وحدنا، نستمتع بها كيف نشاء وأنَّى نريد وحيث نرغب. أوَليست هذه الضروب من اللهو إلا نوعًا من العزاء والسلوى عمَّا نُلاقيه في هذه الحياة من عنت ومن شقاء؟ فليس من مُصاب إلا قدَّر الله له السلوى، وليس من داء إلا أوجد له الله الدواء! وإلا فكيف تكون هذه الحياة التي نحياها إذا كانت خلوًا من السلوى، وفيها ما فيها من نغص وبلاء؟

وإلا فما فائدتنا من قلوبنا ومن آذاننا ومن عيوننا، إذا لم تكُن طُرقًا ومنافذ إلى اللهو وإلى الاستمتاع بكل ما في الوجود، قبل أن يُغلقها الردم ويسدَّها ثرى الرَّمس ويَطويَها ظلام اللَّحد؟ وماذا كان يكون مصيرنا وحياتنا إذا أريدَ منَّا أن نتحمَّل الألم وحده ثم نُحرَم اللذة؟ وماذا كان يكون حالنا لو احتبست الآلام بين أطواء قلوبنا، فلن تجد لها مَخرجًا إلى العزاء أو مُتنفَّسًا عن الشقاء؟ كان أن تنفجر قلوبنا لتَلفظ منها آلامها، وتندكَّ جسومنا لتطرد عنها همومها، كان يكون الفناء والدمار والبوار! ثم ما الموت؟ أليس هو حرمان القلب أن يُحب، والعين أن ترى، والنفس أن تتذوق لذَّاتِ الحياة، والروح أن تحوم في معابد الجمال وأماكن القداسة؟ وإذا كنَّا لا نتذوَّق لذَّات الحياة ونستمتع بلهوها وعبثها الآن، فمتى تُتاح لنا الفرصة لنلتذَّ ولنلهوَ ونعبث؟ أفي الرَّمس وقد اندثرت قلوبنا تحت أحجاره، وبَلِي جسمنا تحت أنقاضه، وتبدَّدت عظامنا بين جوانبه، وتبعثرت آمالنا وأحلامنا ورغباتنا وشهواتنا هواءً في ظلام وضلال ترابه؟

الفصل الثالث

فلَّاحنا

«حياته ونفسيته»

قد يكون الفلَّاح في أممٍ أخرى أشقى من فلَّاحنا حالًا، وأتعس منه عيشًا، وأكثر منه شكوى، وأرفع منه أنينًا، وأحرَّ منه دموعًا، وأشدَّ منه لوعةً وأسًى، على حياةٍ كلها جدب وفقر وبؤس وبلاء، وجور واعتساف وضغط وحرمان.

ولكن فلَّاحنا المصري يُخيَّل لي أنه يكاد يكون أتعس فلَّاح في العالم إذا قيست أمَّته بالأمم الأخرى، ورُوعي التناسب في حالات الحضارة والمدنية والنهوض. ولقد نكون خطَونا حقًّا خطواتٍ واسعات موفَّقات مكلَّلات بالفوز والنجاح في نواحٍ كثيرة من نواحي النشاط الاجتماعي والإنتاج القومي والسعي الإصلاحي، ولقد نكون بلَغنا في نهضتنا القومية الكبرى حقًّا شوطًا مظفَّرًا مُنتجًا محمودًا، جعل اسم «مصر» يتردَّد ويعلو ويُذكَر في الساحات الدولية والهيئات العالمية، كأمَّة لها من ماضيها الخالد ومجدها التالد وحضارتها الأولى بين حضارات العالم قاطبةً، ومن حاضرها الفاخر وبعثها الأكبر وإحيائها الشامل وجهادها المشكور الحي، ومن آمالها في المستقبل الزاهر الجدير بماضيها العظيم وبتاريخها القديم، الخليق بحيوات الشعوب الجديدة، والأمم الناهضة الحية الشاعرة بوجودها وبكرامتها وبحرياتها وذاتيتها، كأمَّة لها من ماضيها وحاضرها ومستقبلها ما يهيِّئ لها أن تكون أمَّة الحكمة والحضارة والقوة والعظمة والخصب؛ أمَّة «السر» المُستكن في جُدران الأهرام، المغيَّب في رأس أبي الهول ورمال الصحراء العظمى!

أقول قد نكون قد خطَونا هذه الخطوات الواسعة المشكورة في جهادنا القومي وفي نهضتنا الكبرى، وقد نكون حقَّقنا جانبًا من مُثُلنا العُليا ونهضنا ببعض من أسس الإصلاح ودعامات الإنتاج، ولكن بكل أسف وبكل خجل يَنْدى جبيننا ويُوصِم فَخارنا القومي وكبرياءنا المصري، أقول بكل أسف إننا أبقينا فلَّاحنا المصري حيث أبقاه الماضي السحيق العريق في القِدَم، حيث أبقته العصور المُظلمة السوداء وصنوف الحكم التي تقلَّبت عليه من رومان ومن عرب ومن فُرس ومن مماليك، وارتضينا له المَنزلة التي اختارها له قياصرة الرومان ودهاقنة الفُرس وحكام العرب وسلاطين آل عثمان، في عصور الجبروت وعهود التعسُّف ودول الاستبداد!

فلقد نهجنا في حياتنا الخاصة والعامة الداخلية والخارجية منهج الغربيِّين، وغيَّرنا في أساليبنا التفكيرية، وفي مناهج بحثنا، وألوان كتابتنا، وطُرُق حديثنا، وفي معاملاتنا الخاصة، وفي حياتنا المعيشية، وفي وجهات نظرنا المختلفة إلى الحياة وإلى العالم وإلى الإنسانية جميعًا، وغدَونا نرفض اليومَ ما كنَّا نطمح إليه بالأمس، ونأمل في حياةٍ جديدة وفي عصرٍ جديد خليق بتفكيرنا وطموحنا ورُقيِّنا ونهوضنا، بماضينا وبحاضرنا وبمستقبلنا أيضًا، وأصبحت لنا مُثلٌ عُليا تختلف عن أخواتها في الماضي باختلاف العصور وباختلاف الاستعداد، وأصبحت لنا حرياتٌ مقدَّسة اكتسَبْناها بدماء شبابنا وبحكمة شيوخنا، وسوَّرناها بمُهَجنا وأرواحنا وقلوبنا، وأنزلناها منَّا مَنزلةَ الدم في عروقنا، والروح لجسمنا، وغدَونا نستمتع بعض الاستمتاع بحريتنا التفكيرية المقدَّسة السامية!

ولكن! ولا بد لنا في هذا المقام من «ولكن»! ولكننا تركنا ريفنا وفلَّاحنا. تركنا هذه الناحية الكبرى من حياتنا في خمودها وفي رُقادها بين رمال الماضي يأتي على نشاطها وعلى حياتها. تركناها ليد الزمن تعبث بها كيف تشاء وأنَّى تشاء. تركنا الفلَّاح المصري، فخر مصر وسيِّدها، في جهله وفي حرمانه من الاستمتاع بالوجود والشعور بالحياة، وفي ألوان استبداده وصنوف تعسُّفه؛ يُعاني من كل هذا جميعًا شرَّ ما يُعانيه إنسان تألَّبَ عليه الوجود كله، وحرمه حقوق الإنسان! وإنه ليُخيَّل لي أن العِلَّة الأولى من تعس فلَّاحنا، لا في سبب تأخُّرنا كشعب وكأمَّة عن الأمم الأخرى، وفي سبب الحياة التي نحياها الآن، والتي نذوق مرارتها، ونتجرَّع غصبًا وإكراهًا صابها وعلقمها، إنما هي «الجهل»، إنما هي هذا الظلام الذي يشمل كل وجودنا، وينشر من فوقه ومن تحته ومن يمينه ومن يساره طبقاتٍ بعضها فوق بعض، فلا نُبصر شيئًا ولا نشعر بشيء، إنما هي هذه

القيود والأغلال والأصفاد التي في أيدينا وفي أرجُلنا وفي أعناقنا؛ فلا نتحرَّك إلا في أبعادٍ مخصوصة وفي أوقاتٍ معيَّنة وتعاليم محدودة.

هذه العِلَّة هي مصيبة مصائبنا، ونكبة نكباتنا، هي السر فيما نحن فيه الآن وفيما نتحمَّل من ذلِّ الاستعباد ونير الاضطهاد ومرارة الفاقة والحاجة ومَسكنة الضعف، هي التي تَقِفنا الآن مكبَّلين بقيودنا مكمَّمين بكماماتنا، أذلَّاء خانعين أمام من يتحكم فينا ويستبدُّ بنا ويسوقنا إلى ما يريد، هي التي تجعلنا الآن عالةً على العالم جميعًا حتى في بصيص النور الشائع للأمم قاطبةً؛ فلا نزال وسوف نَبقى طويلًا في حاجة إلى الغرب، نَنْهل من موارده العلمية، ونتهافت تهافُت الفراش على مدارسه وعلى جامعاته، نُحصل فيها ما نَعجِز عن أن نُحصله في معاهدنا وفي جامعتنا، وإلى أن ينقطع هذا السَّيل الجارف، وإلى أن نستغنيَ عن هذا الاستجداء، فسنَبقى عبيدًا للغرب وللمُستعمِر، وإن منحنا واستُردَّت إلينا حرياتنا وحقوقنا المسلوبة المغصوبة، وإلى أن تأخذ حياتنا التعليمية كلها الصبغة «المصرية» والطابَع القومي الإقليمي، فسنَحني رءوسنا ذلةً وخضوعًا كلما ذُكِر لنا اسم «الغرب» أو الحضارة الأوروبية! واليوم الذي يَغترف فيه كل مصري من هذا «النور» الزاهي الشائع، والذي يتأقلم فيه العلم عندنا ويتَّخذ صبغة القومية؛ في هذا اليوم نشعر حقًّا ونؤمن حقًّا بأننا أمَّةٌ محترمة مَهيبة لها مجد ولها فَخار ولها طابَعٌ خاص، ونؤمن بأن لنا مَقامًا عالميًّا وصبغةً دولية يُحسَب حسابهما في الهيئات الدولية، وفي الجهات العالمية، وبين الشعوب المحترمة!

لشَدَّ ما يستدرجني فلَّاحنا المِسكين! حرَمته الحكومات المُتعاقبة التي لا تُعنى إلا بأُبَّهتها وبعظمتها وبجاهها وبكراسيِّها، وحرَمه الأغنياء القابضون على أموالهم بأيدٍ من فولاذ ومن صُلْب، وحرَمته العصور الماضية السوداء، عصور الحكم الاستبدادي في عهد المماليك والأتراك ومن إليهم من مُستعمِرين ومن مُستبِدِّين، كل هؤلاء جميعًا تألَّبوا عليه وحرَموه حقَّه من النور الشائع الذي وهبه الله للعالم جميعًا، للإنسان الذي خلقه فسوَّاه وفضَّله على الخلق قاطبةً، حرَموه هذا الحقَّ المُباح، واتخذوا من أنفُسهم آلهةً له يتصرفون فيه وبه كيف يشاءون وحيث يريدون، يُعطونه حين ترى إراداتهم العُليا أن تُعطي، ويَحرمونه حين تشاء هذه الإرادات أن تَحرم!

وسنُحاول منذ الآن في السطور التالية تصوير حياة هذا الفلَّاح تصويرًا جهد المُستطاع، إن لم يكُن صادقًا كله فلا شكَّ أن فيه ناحيةً كبيرة من الصدق، وجانبًا عظيمًا من الحق. وسنكون في هذا التصوير على خير وأضبط وأدق ما تقضيه الأمانة علينا،

ونستمدُّ هذه الألوان لتصويرنا مما شاهدناه ونُشاهده، لا مما سمعناه أو نقلناه حتى نُرضيَ ضميرنا والحق وحدهما!

يَسكُن فلَّاحنا في دارٍ صغيرة من الطوب الأخضر النيِّئ غالبًا؛ حيث لا يمرُّ عليها شتاءٌ غزير حتى تتشقَّق جدرانها وتتصدَّع أركانها وتميل جوانبها. وسقف هذه الدار أو هذا الكوخ من القش أو من البُوص في الغالب؛ ولذلك فهو مهدَّد في داره بالموت من جرَّاء هذا التهدُّم والتصدُّع، وهذا الأساس الواهي الضعيف للبناء، وأولاده أيضًا مهدَّدون بالسقوط من علٍ في أي وقت، وجميع أفراد العائلة مهدَّدون في فصل الشتاء بوابلِ المطر؛ حيث ترى فسحة الدار كأنها مَجمع أوحال أو كأنها بُحيرة، فالماء وسط الدار وفي داخل الغُرَف أحيانًا، ويتساقط مِدرارًا من السقف، بل ومن كل مكان، ويلجأ المساكين إلى الأفران يَصْطلون ويَستدفئون والسقف واكفٌ، والسماء مُمطرة، والطبيعة غَضْبى، والوجود ثائر.

ودارُ الفلَّاحِ تتكوَّن من حُجرتَين، أو من حجرةٍ واحدة، أو من ثلاثٍ على الأكثر إذا كان عدد أفراد العائلة كبيرًا أو عدد المواشي كثيرًا، وأحيانًا تضيق به رحبات الدار. وفي هذه الحال تجده لا يرى مضاضة في أن يتَّخذ مَضجعه هو وزوجه وأولاده بجوار مواشيه وحميره. وقد يدفعه ويُلجِئه أيضًا إلى الاضطجاع بجوار مواشيه خوفُه عليها من السرقة؛ فلا يستريح ويهنأ حتى ينام بجانبها وتحت أرجُلها أحيانًا؛ وذلك لأنه مهدَّد دائمًا من خصومه بالسرقة.

وهذه الدار للفلَّاح المصري، فخر مصر وسيِّدها، تُبْنى على أحطِّ قواعد الصحة، فكأنه ليس ثَمة من حكومةٍ تُشرِف على صحة أبنائها، فلا عهد ولا وفاء ولا رقابة ولا عناية بهذا الإنسان المِسكين الذي يحمل هذا الاسم الكريم، وليس له من مفهومه أو دلالته قليل ولا كثير؛ ففي بعض الدُّور تكاد لا تجد نوافذ للدار، وإن وُجدت فهي من الضِّيق بحيث لا يَنفُذ منها جانبٌ كبير من الهواء الطَّلْق، الذي يصرف ما في الدار من عَطَن ومن هواءٍ فاسد ومن رائحةٍ كريهة، وارتفاع الجُدران واطئ جدًّا، وكذلك سعة الحجرات، ثم من المؤلِم، بل من المُخجِل، بل من المُبكي، أن نومه وأكله ومتاعه وفُرنه واستحمامه يكاد يكون أحيانًا في حجرةٍ واحدة؛ فترى الرجل ينام بجوار زوجه، وبجوارهما أولادهما، وقد يكونون أحيانًا في سنٍّ كبيرة، وإذا كان الصيف تُغطَّى معظم أسطحة الدُّور في القرية بالنائمين وبالنائمات على القش أو الحطب.

أما ماؤه الذي يشرب منه، فحَسبُك منه الماء الراكد في التُّرع القذرة المليئة أحيانًا بجِيَف الحمير والكلاب والقطط وما إليها، بل لست أجد غضاضة في القول، بل ولا مُبالَغة وغُلوًّا، إذا قلتُ إن مواضع شربه أحيانًا هي نفس مواضع شرب مواشيه، وقد تكون مواضعَ تبوُّله في بعض الأوقات وفي بعض الأمكنة، وذلك دون أن يشعر أو يعرف. يُلجِئني إلى تقرير هذه الحقيقة وهذا اللون من الوصف ومن التصوير، حِرصي على أن أصوِّر ريفنا وفلَّاحنا كما نُشاهده وكما نعرفه؛ حتى يتشخَّص لنا الداء ليَسهل علينا بعد ذلك الدواء، وحتى يعرف مَن لا يعرف فلَّاحنا المصري أن هذا الفلَّاح غريبٌ كل الغُربة عن الحياة الإنسانية المحترمة الموفورة، وعن الحقوق المُباحة الموهوبة الممنوحة له من خالقه. وهذا الواجب الذي أخذته على عاتقي، والذي اضطلعت بحمله هو الذي يضطرُّني ويدفعني إلى أن أكون أمينًا في التصوير، وإنْ أغضبَ هذا اللونُ من التصوير بعضَ المُكابرين الذين لا يريدون أن نصوِّر عيوبنا وحالاتنا الحقيقية ونقائصها ركوبًا للرأس، وتعلُّقًا بالغرور الكاذب والأَنَفة الجوفاء. ولقد حان الحين بأن نتدرَّع بالصراحة وبالشجاعة في الرأي وفي القول وفي التفكير في كل عمل من أعمالنا، وفي كل ناحية من حياتنا، تارِكِين الجبن والخوف لَمن لا يعرف لنفسه قدرها، ولا يحترم عقله ولا يُعزُّ وجوده، تارِكِين للمُزوِّر وللغاضب وللمُكابر أن يركب رأسه وأن يسلك أي مسلك يشاء؛ فلن نُؤثِر سخطه على رضاء الضمير، ولن نُلغي عقولنا ونخون الحق إرضاءً لأَنَفةٍ كاذبة ولمُكابرةٍ باطلة! هذه الحياة النَّكداء الوبيئة المُهمَلة القذرة هي السر أو هي العلة في تفشِّي الأمراض بين فلَّاحنا المسكين، وقديمًا قالوا: إن الوقاية خير من العلاج. فإذا كان كذلك ففلَّاحنا أو أُولو أمره هم المسئولون إلى حدٍّ ما عن كثرة هذه الأمراض التي تَفتِك بصحته، بل باليد العاملة النَّشِطة المُنتجة في هذا البلد؛ ففضلًا عن عدم قدرته أو عن عدم رضائه في أوقاتٍ كثيرة للتطبُّب وللعلاج، فإنه لا يعرف بل يستهين ويحتقر الوقاية وصنوفها، وعلة ذلك كما قلنا قبل الآن هي جهله وعدم عناية أحد به، وحَسبُك بأمراضه الكثيرة هذا العدد العديد من العُميان في القُرى، ومن الذين تهدِّدهم صنوف الحُمَّى المختلفة والملاريا والتيفوس والزلال والبلهارسيا والأنكلستوما، وهذان الأخيران لا يكادان يُفارقان أحدًا في ريفنا بمقدارٍ يختلف قلةً وكثرةً، وقوةً وضعفًا.

وهو إذا مَرِض ألقاه أهله في الدار أو في القاعة، ثم يجتمعون حوالَيه ويُضايقونه بكثرة أنفاسهم وشدة لجبهم، ويُعطونه كل أنواع الطعام الميسَّر لهم؛ خوفًا من أن يُحرَم لذةَ هذا الطعام، فيدعو عليهم ويغضب منهم.

هذا ولو اشتدَّ به المرض وثقل عليه، فكثير منهم لا يُفكرون في طبيبٍ يُعالجه، أو على الأقل يقول كلمة الطب فيه؛ فالطبيب كما لاحظتُ هو أعدى أعداء فلَّاحنا، والطب عنده يكاد يكون أمرًا نُكرًا، وغاية سعيهم وجهدهم أن يَكِلوا أمره إلى قَدَر الله المحتوم، «وهو وبَخْته».

وهذا الاعتقاد الأعمى البالغ أقصى حدود العماية، والجهل بمعنى القضاء والقدر، يكاد يكون علةَ مرضنا الاجتماعي وانحطاطنا المجموعي، وخصوصًا عند فلَّاحنا.

فإذا سألتَه: ما بالُك لا تفعل هذا؟ يُبادرك بالجواب: «اللي مكتوب عالجبين حايكون.» فكأنهم يريدون من القدرة العُليا المقدَّسة أن تحلَّ لهم وتربط كل شيء، وأن تُقدم لهم كل مَرافق حياتهم وهم جالسون ناعمون فارغون على مصاطبهم وفي ساحات قاعاتهم، وعلى جوانب تُرَعهم وفي حقولهم!

هذه «الاتكالية» العَمياء التي ليست من الدين الحق في شيء، ولا من العلم في شيء، تكاد تكون سِرَّ انحطاطنا إلى الآن، والعلة الأولى في تأخُّرنا في كل نواحي الحياة المحترمة الموفورة الكاملة؛ في تأخُّرنا عن الأمم التي تعدو وتجري ونحن لا زِلنا وراءها نزحف ونحبو. يعتقد الفلَّاح والجاهل، والذي لا يعرف لدِينه حُرمة، ولا لعقله مَنزلة، أنهم غير مُجبَرين على العمل وراء أرزاقهم ووراء رفاهتهم، ويعتقدون أن الله قد قضى فيهم قضاءه يومَ ظهروا إلى هذا الوجود، بل قبل أن يظهروا؛ فمن العبث وإضاعة الوقت ومجاهدة المستحيل، بل من الخروج على الدين وعلى صاحبه، أن يعملوا في الحياة بما يُوسع لهم من الرزق، وبأن يغيِّروا هم وجهات حياتهم بأنفُسهم بحسب أعمالهم وبقدر جهودهم.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. وقال أيضًا: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾. فترى هنا أن الإنسان مسئول عن عمله، وأنه بنفسه يوجِّه نفسه، بل ويكيِّف نفسه.

نعم! كل شيء في الوجود وفي الكون، وكل ما على الأرض وما تحت السماء وما في جوف البِحار، يُذعِن لأمر الله، ولا يَحدُث ولا يتغيَّر إلا بإرادته تعالى، ولكن هذا لا يُنافي مُطلَقًا ولا يتناقض ونظريةَ السَّعي والعمل والكفاح في هذه الحياة التي نَحياها، لا يتناقض وقولَ صاحبنا «نيتشه» رسول الكفاح والقوة: «لا أُوصيكم بالسِّلم بل بالنصر؛ فَلْيكن كل عملكم كفاحًا، وَلْيكن كل سِلمكم نصرًا.» أما علاقة تقدير الأرزاق بالسعي وبالعمل فليس لنا أن نبحث فيها لأنها ليست من اختصاصنا، كما يقول رجال القانون

وعِلمها عند ربِّي، وكل ما في أيدينا وما في وسعنا وما يجب علينا، أن نعمل وأن نكدَّ وأن نُكافح في سبيل العيش والحياة دون أن ننظر إلى أي اعتبارات أخرى.

والله تعالى أرأفُ بعبده الإنسان من أن يخلقه في هذه الحياة آلةً أو لعبةً، لا يسأله عن عمله كالقاصر أو كالمَعتوه، بل منحه ما يُوسع حدود ذاتيَّته، وما يُعلي به كرامته، وما يُسأل به عن كل أعماله ويُحاسَب عليها حسابًا عسيرًا، وهو لا يُحاسَب هذا الحساب العسير إلا لأنه ترك له بأن يوجِّه حياته وأعماله كيف يشاء وحيث يريد.

وكل هذا يتَّفق كما نرى وأبسطَ قواعد المنطق، ويتَّفق اتفاقًا تامًّا مع المكانة المحترمة العُليا المقدَّسة، ومع الغاية التي أرادها الله صاحب الأديان جميعًا لدِينه القويم السامي. أما خلط العامة والجُهال ومن في عِدادهم هذه «الاتكالية» العَمياء بالدين، فليس هو إلا أثر ومظهر قصور عقولهم عن الفهم، وعجزهم عن تحمُّل آلام التفكير، فتمحَّكوا بالدين، شأنهم في كل شيء يجهلونه ولا يُحبون أن يُفكروا فيه. واليوم الذي لا نخلط فيه بين الدين وبين أي ظاهرة في الحياة، ونُحدد للدين حدوده التي أرادها الله له، واليوم الذي نعتزُّ فيه بعقولنا ونحترم تفكيرنا ونرى كل شيء في الوجود قد وضعه الله تحت أشعة العقل وتشريح التفكير احترامًا للعقل ميزة الإنسان الكريم؛ في هذا اليوم يبدأ شعورنا بوجودنا، ونبدأ في خطواتنا الأولى في السعي وراء الحق والكمال!

وقد تعجَّب أحيانًا لمعالجة فلَّاحينا أمراضهم بأنفُسهم، فيفعلون ما تتقزَّز منه النفس وتقشعرُّ، فماذا تقول في الكيِّ بالنار المُحرقة على الأبدان الحية، وعلى الأجسام النَّضِرة الطريَّة؟ ماذا تقول فيما يُسمونه «الخزم»؛ هذه العملية القاسية التي يُعالجون بها الحيوان والماشية، ثم لا يأنَفون أن يُعالجوا بها الإنسان أيضًا؟ وهذه العملية «الخزمية» هي خياطة الجسم بالإبرة أو بـ «المسلة» والجسم حي لا مخدَّر، ويُعالجون بها معظم الأمراض كرمد العيون وما إليه، ويكاد كثير منهم لا يثق بطبيب لأنه في رأيهم مُشعوذ، ولأنهم يُسيئون الظن بكل منتجات العلوم، ولا يرونها إلا بدعةً أتت بها المدنيَّة المُتحذلقة، ولأن الإنسان لديهم ليس أشرف من الحيوان الذي يُلازمهم ويُعاشرهم ويُناومهم أحيانًا!

تكلَّمنا قبل الآن عن دار الفلَّاح في الغالب، ورأينا كيف يعيش هذا المسكين هذه العيشة النَّكداء في عصرٍ نقول إنه عصر النور والعِرفان، ولكننا لم نتعرَّض للدار من الداخل، أو إن تعرَّضنا لها فلم نَعرِض لها إلا لمامًا، ولم نمرَّ بها إلا كرامًا!

إذا دخلتَ دارَ فلَّاحنا وأحببت أن تتفقد معيشته وتتعرف كيف يعيش، لا تجد لديه سوى جانبٍ قليل من الأذرة أو الشعير أو القمح إن كان واسع المعيشة قليلًا، وهو

يشتري حاجاته المعيشية ببيع جزء مما عنده من غلال أو برسيم أو فول، إذا عزَّت عليه الفلوس، وكثيرًا ما تَعزُّ بل وتندُر!

أما قوته الذي يعيش عليه معظم الأيام، فلا يزيد عن البصل والمش والجبنة والجرجير والعسل الأسود وصنوف المخلَّل، أما البَيض فيَبيعه في الغالب ويضنُّ على نفسه بأكله حرصًا على تحصُّل واكتساب فلوس منه. ولا يزال للآن في القُرى من يُضيء «المِسرجة» بالزيت بدلًا من الغاز؛ حِرصًا على الاقتصاد في المعيشة البالغة أقصى مراتب الضِّيق. أما البط والفراخ والإوز فكثيرًا ما يبيعها، وقليلًا ما يأكلها؛ فإذا جاء يوم «السوق»، وهو يومٌ محترمٌ مذكور، أبصرتَ النساء على الحمير وأمامهن بطة أو فرخة أو ديك، ثم يعُدنَ بالسكر والشاي وما إليهما.

وتتَّضح لك حالة فلَّاحنا المِسكين المادية جليةً بيِّنة، وأنت تتعرَّف شعوره النفسي والابتسامة الوادعة التي تمرُّ على شفتَيه حينما تدخل عليه في داره، فيُسرِع إليك ببشاشة وطلاقة، ويُقدم إليك أجمل ما عنده من حطام وأثاث؛ حصيرة تظهر عليها الجدة! مسكينٌ فلَّاحنا! أقل شيء يُفرحه؛ لأنه فقير، ولأنه تَعِس!

ومع هذا الفقر المُدقِع، وهذه الحياة الضيِّقة التي كلها بؤس ونكد وحِرمان، مع كل هذا فإن كثيرًا من فلَّاحينا، من هذا الجيش العامل المُنتِج، يتعاطى المكيِّفات، وأكثرها انتشارًا بينهم هو الدُّخان والشاي والأفيون والحشيش، بَعيدين عن عيون الحكام، وعن رقابة رجال الضبط والمباحث، مسكينٌ أيها الفلَّاح! كل المصائب إلبٌ عليك، وكل البئوس حليفة لك!

ومن المُدهِش والعجيب أن كثيرًا منهم يُؤثِر أن يشرب الشاي أو يتعاطى الدخان أو الحشيش على أكله وأكل أولاده المساكين. ولقد تراه عُريانًا، وترى زوجه وأولاده يشكُون مرارةَ الفاقة وذلَّ العُري، ومع ذلك لا يَحرم نفسه أو مزاجه تَعاطيَ هذه المكيِّفات، مُتجاهلًا كلَّ هذه المصائب التي لا تنزل فُرادى كما يقول «شكسبير»، بل زرافاتٍ وجموعًا!

أما عن جهل فلَّاحنا فهو طامَّته الكبرى، وهو مُصيبة مصائبه والعلة الأولى في كل ما يُعاني من ذل وحِرمان وتعسُّف وإرهاق، بسيط في علمه إلى أبلغ حدود البساطة الفكرية، ولا يكاد يعرف شيئًا ما عن هذا الوجود وذلك العالم، ولا يُفرق كثيرًا بينه كإنسان له وجودٌ خاص وذاتيةٌ خاصة، وبين الكون الذي يَكنفه ويُحيط به؛ فهو في هذه الحال الشعورية كالطفل يحسب نفسه والكون والعالم شيئًا واحدًا؛ فالنفس هو

الكون وهي العالم. وحواسُّه تكاد تكون معطَّلةً كلَّ التعطيل؛ وذلك لأن عصور الاستبداد التي مرَّت بفلَّاحنا، ولأن تلك القوانين الجائرة وهذا النظام الجائر الفاسد الذي يسير عليه الفلَّاح مُكرَهًا مُرغَمًا، كل هذه العوامل جميعًا حرَمته كلَّ حقٍّ يمكن أن يستمتع به كإنسان له وجود وله كرامة، وكلَّفته بكل الواجبات الجسيمة التي تقوم عليها مَرافق حياتنا وعماد ثرواتنا، ثم عطَّلت حواسَّه حتى صَدِئ عقله، وزال من عينَيه — أو كاد — بَريقُ النور والحياة والشعور، وخلقت منه كل هذه العوامل إنسانًا ساذَجًا بسيطًا، لا يعرف شيئًا في هذه الحياة إلا التسليم الأعمى للقضاء والقدر، وإلا الخضوع المَشين المُزري لرؤسائه وحكَّامه، فأصبح يحني رأسه لكل رئيس ويستذلُّ لكل سيد، ويخضع خضوعًا فاضحًا لكل ظلم يقع عليه، حتى كاد يتساوى لديه الظلم والعدل، والحق والباطل، بل النور والظلام!

وهذا الخضوع المَشين للظلم وللجبروت، وهذا الفُقدان للشعور بالنفس، وهذا الاستخذاء والذل وبيع الكرامة والجبن والخوف والرهبة، كل هذا جميعًا أفقده إرادته، وسلبه كرامته، حتى غُرِست في نفسه المذلَّة والهوان والضَّعة، فأصبح لا يشعر بكرامةٍ تُهان، ولا بعِزَّة تُجرَح، ولا بشرفٍ يُثلَب، ولا بحقٍّ يضيع، ولا بحُرمةٍ تُنتهَك.

والشعور هو كل شيء في هذا الوجود، وأكثرنا شعورًا وأدقُّنا حساسيةً هو أشدُّنا تبجيلًا وتوقيرًا، وأصحُّنا فهمًا للحياة ولما فيها من حسنات وعيوب، وأكثرنا أيضًا تعرُّضًا لآلامها ولمصائبها. وإن كان «ديكارت» قد قال: «أنا أفكِّر؛ إذن فأنا موجود.» فلقد عارَضه جوستاف لوبون بقوله: «أنا أشعر؛ إذن فأنا موجود.»

فتلك المصائب العديدة التي تنزل بفلَّاحنا، وتلك العوامل كلها في بؤسه وفي تعسه لم تكتفِ بأن حرَمته نور العلم، ولا بأن وضعته هذا الوضع الجائر القاسي، بل حرَمته أيضًا أن يشعر، بل أفسدت عليه قلبه وضميره وشعوره، وتلك هي نكبة النكبات، وتلك هي مصيبة مصائبنا حين نملك قلوبًا، وحين يكون لنا ضمائر، وحين يكون لنا أعصاب وحواس وعواطف، ثم نرى تلك القلوب مُغلَقة معطَّلة في حكم الميتة، وتلك الضمائر وهذه الأعصاب والحواس والعواطف مُهمَلة فاسدة. وهذا الذي يعتدي على قلوبنا وعلى ضمائرنا، والذي يُفسد علينا مشاعرنا، هو أكثر إجرامًا وأشدُّ خطرًا من هذا الذي يعتدي على جسومنا وأبداننا بالضرب أو بالتعذيب أو بالحبس أو ما إليها جميعًا!

كل هذه العوامل جميعًا كما قلنا ساعَدت على فُقدان فلَّاحنا شعوره بنفسه وبكرامته وبحقوقه، وربَّت فيه الجبن والخضوع والاستخذاء، وجعلته يقبِّل يد ظالمه كما يلحس

الخروفُ بلسانه اليدَ التي تمتدُّ لتُريق دماءه؛ فأصبح لا يعرف إلا رئيسه والعمدة والبيك المأمور وجناب المعاون وحضرة المحضر والباشا المدير كما ينعتهم.

والحكام والرؤساء وأولو الأمر يستغلُّون فيه هذا الجهل وهذه البساطة، وهذا الفقدان للشعور، وهذا السكون الكريم والرضاء الجميل للذل وللهون، فيُنزِلون به كل ضروب الإرهاق والظلم التي تُرضي قسوتهم وتُغذي أطماعهم، ويسنُّون له ما يشاءون من قوانين المذلَّة والمهانة، وهو بعيدٌ كل البُعْد عن وضعها، سواء بالطُّرق المباشرة أو غير المباشرة؛ فالمالك يمتصُّ دمه ويهدِّده كلَّ عام بالحجز على غِلاله ومواشيه ومحصوله أو متاع داره إذا خانه الحظ — وليس له في تصاريف القدر وتوجيهات الحظ يدٌ ولا أمر — وساء محصوله أو هبط سعر القطن، والحكومة تفرض عليه الضرائب العديدة كضريبة الخفر وضريبة الأطيان وضريبة مجالس المُديريات. ولقد يَرُوعك هذا إذا علِمتَ أن مجموع هذه الضرائب التي تُفرَض على الفلَّاح تُقدَّر تقريبًا بربع قيمة ما يدفعه من الإيجار للمالك عن الفدَّان؛ فبربِّك، كم يحتمل هذا الفلَّاح المسكين كلَّ هذا الجور والإرهاق؟ إذا كان حتى مرور بعض الحكام ورحلاتهم ورياضتهم ونُزهاتهم كل ذلك يُجبى ويُحصَّل من مجهود فلَّاحنا المسكين! هذا الفلَّاح الذي يَعدُّ حتى العسكري أو الخفير في مرتبة البيك المأمور أو الباشا المدير كما يُسميهم. ولا زالت ذاكرتي تحفظ حكاية الفلَّاح مع الخديو السابق، حين خاطَب هذا الفلَّاح الطيِّب الجاهل الساذَج «أفندينا»، كما كانوا يُسمونه، وقال له: ربنا يرقِّيك ويجيبك عندنا مأمور! وهذا الفلَّاح المسكين الذي يحسب أن هذا المأمور أو ذاك المدير خلفاء الله في أرضه، لا يُعصى لهما أمر، ولا يُرفَض لهما طلب. هذا الفلَّاح لم يتصوَّر هؤلاء جميعًا هكذا، ولم ينظر إليهم هذه النظرة التي كلها خوف وإرهاب وخشوع وتهيُّب، إلا لأن جهله خيَّل إليه وأوهمه أن هؤلاء في مرتبة من الخلق أعلى من مرتبته، أو من طينةٍ غير طينته، وإلا لأن يد الاستبداد والعصور السُّود التي مرَّت على مصر في تواريخها الطافحة بفظائع الجَور وأنَّات البؤس.

وهؤلاء الحكام الطُّغاة الذين أفردت لهم اللغات في قواميسها ومعاجمها لفظة «الدكتاتورية»، والذين ابتلعوا أو استلبوا إرادات الأفراد والمجاميع، وقبضوها في يدهم التي يفخرون بأنها من فُولاذ وصُلْب وحديد، والذين يريدون أن يوجِّهوا أُمَمهم ودولهم حسبما تشاء هذه الإرادة العُليا وهذه اليد الحديدية، هؤلاء المستبِدُّون الجبابرة الأقزام الذين يطمعون في أن يسحقوا إرادة الأمَّة وكلمة الشعب وصيحة الحق؛ لِتَعلوَ إرادتهم

المقهورة، وتنتصر يدهم المغلولة المشلولة، هؤلاء جميعًا استغلُّوا كما قلنا جهلَ هذا الفلَّاح المسكين، فسلبوه إرادته، وساوَموه على شرفه وعلى أنفته وكرامته، ثم فعلوا به ما أرادوا، ثم جعلوه عبدًا يُباع ويُشترى بإرادتهم، ثم عاشوا وتنزَّهوا وتنعَّموا وتقامروا وتغازلوا، وقضَوا حاجات قلوبهم ونفوسهم بما يقتطعون من لحمه ويشربون من دمه، ومن مجهود وعرق وشباب هذا الفلَّاح الشقي بجهله أبلغ مراتب الشقاوة، والمسكين التَّعِس بحكَّامه وملَّاكه أقصى مَنازل التعس!

مسكينٌ فلَّاحنا! عليه كل الغُرم، وليس له من الغُنم شيء. حرَموه نعمة العلم، وتركوه في حالٍ ليست أشرف كثيرًا من حال حيوانه، ثم استخدموا هذه الجهالة وهذا الفُقدان للشعور في تنفيذ أغراضهم وقضاء شهواتهم، حتى كاد يَرزَح بالحِمل ويسقط صريعًا، أو يتَّخذ له طريقًا أخرى يتخلَّص بها ممَّا هو فيه من حرمان ومن جهل ومن ظلم. وإني لَأكتب هذه السطور وبي من الخشية ومن الوجل ومن الاضطرار للقول بأن حاله السيئة الحاضرة البالغة أقصى ما تتصوَّر من جهالة وشقاوة واستعباد، في عصرٍ سحقت فيه كل صنوف الاستعباد والاستغلال، أخشى أن تدفعه الفاقة والحاجة إلى العدل والإصلاح، وإلى النور والحق، إلى ما انتهت إليه حركة الفلَّاح أو العامل في بلاد أوروبا، حينما أنُّوا من الشكوى، ورزَحوا تحت أحمال البؤس والفاقة والجهل والجَور. نعم! أخشى ذلك اليوم كل الخشية، وأخاف أن تُلجِئه هذه الحال السيئة إلى ما لا نُحبُّ ولا تُحبُّ الحكومة وأولو الأمر والأغنياء أن يكون!

وحُبُّنا للسلام وللهدوء وللعدالة، ووفاؤنا لمصر ولفلَّاحها وريفها، وحِرصنا على حياة الأمن والدَّعة والطمأنينة، كل ذلك يدعونا إلى الخشية والخوف من أن تذيع المبادئ المُتطرفة من الشيوعية وأبالسة البلشفية في بلدٍ آمنٍ وديع كمصر، وبين ناس يَحرصون على الحياة المُطمئنَّة الهادئة كأبناء مصر، لا سيَّما أن المُتطرفة والبلاشفة وأنصار الهدم والتخريب يبذلون جهودهم في إدخال مبادئهم وتعاليمهم وسمومهم الفتَّاكة بين أبناء هذا الوادي المُبارَك الأمين. ونحن نخشى كل الخشية في صراحة وشجاعة وإخلاصٍ أن تجد هذه النار الحامية في طريقها وقودًا تأكله، ويزيدها اندلاعًا وتوهُّجًا، نخشى أن تجد لها في مصر وبين طبقة الفلَّاحين والعُمال ومن إليهم أرضًا رحبةً تُنبِت فيها غَرْسها ونَبْتها. وهذا الخوف وهذه الخشية هما اللذان يدعُواننا إلى أن نُناديَ عاليًا، ونُناشد كلَّ من يهمُّه أمر الوطن وشئون أبنائه، أن يعملوا جميعًا على منع هذه النار التي لا تُبقي على شيء، قبل وصولها أرض مصر؛ وذلك بالعناية بشئون الفلَّاح وبحاجات العامل

عنايةً تليق وما تطوَّرَ إليه العالم، وما استُحدث على مصر الحديثة في عصر النور والحق والحريات المقدَّسة. والفلَّاح والعامل هما أكثر الطبقات في كل أمم العالم، وخصوصًا في مصر، استعدادًا لقبول المبادئ المُتطرفة، والدعوات الهدَّامة، ورسالة التخريب والبطش والفتك!

وإذا نحن نادَينا وناشَدنا أحدًا، فإنما نُنادي ونُناشد الحكومة أولًا، ثم الأغنياء ثانيًا؛ لأن هؤلاء جميعًا هم المسئولون حقًّا عن شئون الفلَّاح ومطالب العامل. وكلتا الطبقتَين هما المُنتِجتان العاملتان حقًّا في حياة مصر الاقتصادية وثروتها الإنتاجية!

قد حدَّثتك عن بعض المظالم والضرائب التي تنصبُّ على رأس فلَّاحنا، سواء من المالك المستبِد أو من رجال الحكومة. ولقد أُنسيت أن أذكُر تلك المَحاضر العديدة التي يحبِّرها المُعاونون ضد هذا الفلَّاح المسكين؛ لأنه لم يُحسِن انتقاء زرعه من دودة القطن، وأيضًا عقوبات مُخالَفات الرَّي. ويا ليت هؤلاء المُعاونين ورجال الزراعة يُخلِصون لوظائفهم في مصلحة الفلَّاح، فيتفقَّدون بأنفُسهم راجلين الحقول والغيطان ليرَوا بعيونهم هم لا بعيون غيرهم، ولا بآذان وألسنة الإشاعات والأقاويل؛ ليرَوا محصول القطن ويقدِّروه تقديرًا حقًّا قائمًا على المشاهدة الحسِّية، ولكنهم يقدِّرونه ويا للأسف ويا للحسرة وهم جالسون على مكاتبهم الجميلة، وبين أوراقهم الرسمية المكدَّسة، وأمامهم كوبات الليمون وفناجين القهوة، وعلى رءوسهم وحوالَيهم المراوح الكهربائية تُذهِب عنهم هجيرَ الحر، ثم بعد ذلك يقولون إن لنا وزارة زراعة مصرية في حيٍّ من أجمل أحياء القاهرة، وفيها مكاتب ودواوين، وفيها موظَّفون ومفتِّشون ومُعاونون، ويُوهموننا أنها وزارة الفلَّاح المصري، وزارة الإنتاج والثروة، وزارة روح مصر وحياتها الاقتصادية، ويُوهموننا أنها تعمل حقًّا لإسعاد الفلَّاح ولسماع شكواه، ولزيادة الإنتاج وتجديد الصنوف النباتية الزراعية وتحسين التُّربة المصرية، وإدخال ما ينقص مصر من أنواع النبات، وما يتَّفق وتُربتَها وجوَّها!

يمرُّ العام كله تقريبًا ولا يرى الفلَّاح المصري رجال الزراعة بين الحقول والغيطان إلا ندورًا، ثم لا يلبث أن يسمع أن الجرائد نشرت تقريرًا، بل تقارير وزارة الزراعة لتقدير محصول القطن تقديرًا يُوهِم أنه حق، وليس فيه من الحق قليل ولا كثير؛ تقدير قُدِّر وكُتِب وحُبِّر وجُمِع على المكاتب لا بين الحقول، وتحت المراوح لا بين الفلَّاح!

نقول يا ليت رجال الزراعة يُخلِصون لوظائفهم في تقدير القطن كل عام، وفي سماع أنَّات الفلَّاح، كما يُخلِصون لها إخلاصًا كبيرًا في كتابة المَحاضر والمُخالَفات!

ومن أعجب العَجب أننا نعيش في عصرٍ يقولون إنه عصر الحريات المكفولة والدساتير المصونة والعدالة الإنسانية، ثم لا نزال نرى بأعيُننا الفلَّاح المصري يُرسَل عَنوةً وجبرًا وبقوة رجال الإدارة والحكومة لحفظ مياه النيل، فيذكِّرنا هذا بعصور السُّخرة وعهود الجبروت، ومع ذلك أتحسب أن الحكومة تقوم بنفقاته بضعة الأيام التي يقضيها المسكين ليقوم بهذه الرسالة؟ ولكن الموظَّف الذي يُنتدب، ولو لأتفه المسائل، تجود عليه الخزينة الغنيَّة بالجُنيهات وبالأوراق!

لقد كنَّا سَمِعنا قديمًا أن الحكومة تفكِّر في أن تكلِّف مُقاولين يقومون هم بحفظ مياه النيل عند الفيضان على نفقاتها، فتُبطِل السُّخرة، ويستريح الفلَّاح الذي لا يعرف الراحة حتى يستريح الراحة الكبرى! فأين آثار هذا التفكير؟ وإلا هل نقضي أعمارنا في بلد العجائب، فلا نسمع عن مشروعاتٍ مُستخرَجة من مَعامل القول والخُطب والوعد والتزويق، حتى نسمع عن قبرها وموتها وهي جنين في مَهدها؟ هل نقضي أعمارنا كالأطفال تضحك منَّا الحكومة التي نُقِيمها علينا بجهودنا وبدمائنا وبشبابنا، بمعسول الأمل، وبكاذب القول، وبحلاوة اللسان، وأخيرًا برَوَغان الثعلب؟

يا رجال الحكومة أيًّا تكون حكومتكم! كفى شفقةً بالفلَّاح وحدَبًا عليه! ارحموه من عدالتكم لأنها أكثر من طاقته، وأثقل من جهده؛ لأننا نخشى أن يَفْدحه الحِمل وتَبْهظه الرحمة والعدالة، فيقع صريعًا مكدودًا! من هذا الذي تُنزِلون به كلَّ يوم من الإرهاق والجَور ألوانًا، ومن الحِرمان والاسترقاق صنوفًا؟ أليس هو ذلك المسكين الذي يأكل خبزه من الحُلبة والأذرة، ويشرب الماء العطن الراكد في المجاري وحول الجِيَف، ويعيش على الزيت والمش والبصل؟ إن هذا المسكين بجهله هو الذي تأكلون وتلبسون من غَرْس يده، وتتريَّضون وتُغازلون وتُراقصون من جيبه ومن عَرقه، هو يزرع وأنتم تحصدون، ويسهر وتنامون، ويشرب الماء كدرًا وتشربون المُدام صافية والكأس مُترَعة مُتألقة، ويموت بين الجوع والعُري وأنتم بين الكأس وبنات الهوى. أليس كذلك يا رجال العدالة والرحمة والإنصاف؟! ألا تَعلَمون بأن هذا المسكين ما كان ليتحمَّل كلَّ هذه الضروب من الاعتساف والحِرمان، وهذه الحياة المُظلمة النَّكداء، لولا جهله الذي يدعه يصبر على الضَّيم ويرضى بالهوان؟ وهل تعلمون أنه لو ينال قِسطه من العلم ونصيبه من النور والعِرفان لأصبح يشعر بالظلم ويُحس بالحال، والشعور بالظلم كما تعرفون — لا الظلم — هو أساس المُطالَبة بالحرية؟!

يا ذوي الأملاك، ويا أصحاب الطين! إن أشرف ما في الحياة العدالة، وإن ذلك الذي تُنزِلونه منكم مَنزلةَ العبد الأجير أو الآلة المسيَّرة أو الحيوان المَسوق، إن صبَر على

الضَّيم طويلًا، وإن قضَت ظروف العصور السُّود التي مرَّت به في عهود الماضي المنكود أن تُسكِته عن طلب الإصلاح والعلاج لحاله؛ فإنه الآن في تلك العصور المُضيئة التي أتاحت لكل إنسان أن يرى بعينَيه حتى يعرف كيف يمشي بقدمَيه، في هذه العصور التي أوشكت فيها صروح الاستبداد والاسترقاق والإقطاعية أن تندكَّ وتتبدَّد، في هذه العصور التي خرجت بالإنسانية من مَجازر التعصُّب وعماية الجهالة ووحشية التعسُّف وأَسْر العبودية، إلى جلال التسامح وأضواء العالم وسُموِّ العدالة وفضاء الحرية، في تلك العصور عصور تحرير الفرد من قيود الجماعات وإرهاق الحكومات وإرادات المستبِدِّين الحاكمين بأمرهم، عصور جعل الأمة مصدر السلطات جميعًا، عصور محاولة الإنسانية إلى أن تُزيل الأحقاد والإحَن والخصومات؛ لتعيش في دعة وطمأنينة وسلام وإخاء وحب؛ حتى تُخرِج خير ثمارها وخالد آثارها!

أقول في هذه العصور وفي هذا العصر الذي نعيش فيه، من القسوة كل القسوة أن نطلب من الفلَّاح المصري، الفلَّاح المصري الذي بقي إلى الآن على ما كان عليه في عهود المماليك السُّود، رغم وجود تلك الهُوَّة السحيقة بين طبيعةِ كلٍّ من العصرَين والعهدين، وبين روح الجماعات واختلاف وجهات النظر إلى الحياة في كل مَرافقها ونواحيها؛ من القسوة أن نطلب منه ألَّا يشكوَ من هذه الحال وقد رأى نفسه عبدًا لمالكه، وآلة لحكَّامه، وفقيرًا بائسًا في حياته. فعالِجوا الداءَ قبل أن يستفحل ويعزَّ عليكم الدواء، ولاتَ مَندمة ولا ليت! وإني لأخشى أن بُذور الاستنكار المُر والشكوى الحارَّة التي أصبحت تتجاوب في كل صدر، وتتموَّج في كل نفس، وتجيش لكل خاطر، أخشى أن تجد هذه البذور لها أرضًا قابلة للنُّمو والإزهار، فيصعب اقتلاعها من جذورها أو القضاء عليها في حقلها. فإذا كنَّا أوفياء حقًّا لهذا الوطن، غَيورين حقًّا على مصالحه وراحة أبنائه، عاملين حقًّا على أن يعيشوا في طمأنينة وأمن وسلام وحب وعدالة وإخاء ومساواة، فعلينا أن نُعالج هذه البذور قبل أن تنبُت وتزدهر وتُرعى، وأن نقتل الجنين في بطن أمه قبل أن يظهر إلى الوجود ويتدرَّع بالمنعة والقوة! والخطوة الأولى في رأينا لإصلاح هذه الحال وعلاجها ولتضمد هذه الجِراحات الدامية هي التعليم؛ فعلِّموا الفلَّاح قبل كل شيء، وقبل كل خطوة في الإصلاح أو عملية في البناء؛ فإن جهله هو سبب شقوته وفقره وبؤسه واضطهاده، وهو سبب شقاء مصر جميعًا. وهذا الجهل — إذا كنتم تذكُرون — هو دعامة السياسة الكرومرية، وتُكأة الإجرام الدنلوبي. نعم، فإن أصحاب الجلاليب الزرقاء كما كان يتغنَّى بذلك السيِّد كرومر عميد قصر الدوبارة، هم الذين اتَّخذت منهم السياسة الاستعمارية

وسائلها ووسائطها في البطش بالحرية وبالدستور، وفي إخماد جذوة الوطنية والحماس القومي، وفي تغيير وجهات الجهاد ونزعات ومطالب المصريين، وفي حصر كل الجهود والأعمال فيما يُسمونه الجهاد الداخلي أو السياسة الداخلية. هذه السياسة الكرومرية، المزيَّنة بمعسول القول ورخاوة اللين، لم تجد لها مَرعًى خصيبًا تنشُب فيه أظفارها، وتُنبت فيه غرسها إلا عند الفلَّاح، إلا عند أصحاب الجلاليب الزرقاء الذين اتَّخذوا من جهلهم ومن سذاجتهم شِبه دليل على أنهم يرضَون بحكمهم، لا بل أكثر! يفضِّلونه على الحكم المصري والسياسة المصرية الوطنية!

فإذا عَلِمنا أن أقدار الأمم جميعًا ونصيبها من الحياة المحترمة الموفورة الكاملة، وأن اتجاهات هذه الحياة، إنما تُقاس وتُوزَن بقدر نصيبها من هذا النور الشائع، ومن المعرفة والثقافة الإنسانية، فيكون فلَّاحنا أشقى صنوف الإنسان جميعًا إذا راعَينا هذه الفروق الكبيرة بينه وبين الطبقات الغنيَّة الأرستقراطية المُتحكمة في مصر، وإذا راعَينا العصر الذي يعيش فيه، وتلك العُزلة أو هذا الوضع الذي وضعته فيه الأقدار، أو وضعته فيه الحكومات ورجال المال والطين، وإذا راعَينا أيضًا طبيعة وروح هذا العصر الذي ينفر ويكره أيَّ لون من ألوان الظلام والاعتساف والحِرمان من الإنسان لأخيه الإنسان!

هذا ولا أُحبُّ أن أدع الآن حياة فلَّاحنا قبل أن أقول كلمة في ناحيةٍ هامة من نواحي حياته؛ تلك هي الناحية الاعتقادية، وإن كانت «بسيكلوجية» أكثر منها «بيروجرافية»، ولقد حدَّثتك قبل الآن عن اعتقاده المُفرِط في «الاتكالية»، ونسيت أن أحدِّثك عن اعتقاده الكبير أيضًا بالأولياء والصالحين المقرَّبين، ولستُ أجد عبارةً أوفى وأجلى وأوجز لتوضيح هذه الاعتقادية من أن أقول إنه يكاد يقدِّم لهم فروضَ العبادة والتقديس ويرفع إليهم الصلاة؛ فليس يتصوَّرهم ناسًا مِثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وتقلَّبوا في كل الأطوار «الجنينية» والبيولوجية مِثل ما تقلَّبنا، وإنما يقوده خياله ويصوِّر له تعصُّبه الاعتقادي أن هؤلاء السادة والأولياء ليسوا بشرًا ولا من طينة الإنسان؛ فوَيلٌ لمن يُصيب أحدَهم بكلمةٍ تؤذيه في قبره، وويلٌ لمن يظنُّهم ناسًا مِثلنا لهم عينان وقدمان ويدان، وخُلِقوا من طين، وعاشوا كما نعيش الآن على هذه الأرض التي تتمثَّل فوقها رواية الحياة، والتي ستُسدل عليها أيضًا الستار لتبدأ قصة الموت. نعم! ويل لمن يحسبهم يأكلون مِثلنا وينامون ويشربون، ويُحبون ويكرهون، ويخافون ويخجلون، وينسون ويذكرون، ويأتون أحيانًا المُنكَر، ويقضون حاجات نفوسهم مثل ما نأتي وما نقضي جميعًا!

وإذا أراد أحدهم نجاحَ عمل له نذَرَ لوليٍّ من الأولياء خروفًا أو بقرة أو عجلًا أو جديًا؛ فإن نجح هذا العمل ظنَّ بل أيقَنَ أن هذا النجاح جاء به هذا الوليُّ الكبير، وإن

خاب وفشل أيقن أن هذا الولي مُغضِب عليه ناقِم منه؛ ولذلك فهو قد خيَّب مَسْعاه وأفشل أمره، وما عليه إزاء هذا الغضب وهذه النقمة إلا أن يترضَّاه بكل صنوف الترضِّي؛ فيُنفق في سبيل ذلك من المال الذي قد تكون داره وأولاده في أشدِّ الحاجات إليه، ولكن رضاء الأولياء عنده فوق كل حاجة!

يدفعني التحدُّث عن هذه الناحية الاعتقادية في فلَّاحنا إلى أن أتحدَّث قليلًا عن طبيعة عقيدته أو جوهر إيمانه. يُلخَّص هذا الإيمان فيما نُسميه «إيمان العجائز»، ويتميَّز هذا الصنف من الإيمان بالاستسلام التام وبالسكوت المُطلَق عن كل تفكير أو توجُّه أو بحث في المسائل الاعتقادية؛ فما علينا إلا أن نسير كما سار السلف، وأن نعتقد كما اعتقدوا، وأن نستسلم كما استسلموا، وأن نَقبَل كل شيء راضين مُطمئنِّين قانعين بدون بحث أو تفكير أو إجهاد أو إقناع أو جدل.

ففلَّاحنا إذن أبعَدُ الناس عن التفكير في الإلهيات، بل في كل المسائل الاعتقادية؛ ولذلك هو أشدُّ الناس سخطًا وغضبًا على كل من يُحاول أمامه في مسألةٍ تَحُوم قريبًا أو بعيدًا حول الشئون الدينية، وليس له إذا سمع هذا الذي يتحدَّث في هذه الشئون إلا أن يرميَه بالإلحاد، وإلا أن يُخرِجه من الجماعة الإسلامية. وكل هذا متَّفِق مع طبيعة حياة الفلَّاح وعقليته؛ فليس في استطاعة كل واحد أن يفهم الأديان ويتجادل فيها، ونحسب أنه لن يهضمها ويتعرَّفها ويفهمها إلا من أُوتيَ حظًّا كبيرًا من الثقافة والعلم؛ فهؤلاء حقًّا هم الذين يُدرِكون ما نُسميه بالفلسفة الدينية.

وقد يكون هذا الضرب من الإيمان (إيمان العجائز) أروَحَ للنفس التي تُحبُّ الدعة، وتَجْنح إلى الهدوء والطمأنينة إلى ما تَعلَم وتؤمن، وتكره البحث عمَّا وراء العقل الإنساني الغامض، وتخاف أن يذهب بها الشكُّ بعيدًا عن ضوء اليقين وساحة الإيمان، فتُعاني آلام التشريد وعذاب القلق؛ فما لها تفكِّر وتبحث مع الباحثين في طبيعة الإله وفي كُنْهه وقوته، وفي كونه وملكوته، وفي خلقه وعوالمه، وفي إرادته وحدودها، وفي الأديان وتعدُّدها، والرسل وتعاليمهم، والأنبياء ومذاهبهم؟ وما لها تُفكر في الوحي إذا كان صدقًا أو غير صدق، أو في هذا الرسول أو هذا النبي إذا كان قد وُجِد أو لم يكن موجودًا؟ وما لها تبحث في كيف خُلِق العالَم ومن أين جئنا، أو كيف يدبِّر الله الكون ويُدير أموره، وكيف تسيِّره قوته وتوجِّهه إرادته؟ وما لها تُجدُّ نفسها في البحث والتفكير في البعث والمعاد، وفي الثواب والعقاب؟ ما لها تكلِّف نفسها كلَّ هذا وهي مؤمنةٌ متيقِّنة بإلهٍ واحد يُدير هذا الكون الواسع، مؤمنة بأنبيائه ورسله جميعًا وباليوم الآخر إيمانًا لا تُحبُّ أن تذهب فيه

مذاهب التفكير لأنها في غِنًى عنها! وخوفًا من أن يُضعف من إيمانها أو يُذبذب يقينها؟ وما يرتجي هذا الفلَّاح في حياته إلا أن يحصل له ولأولاده الرزق في حياته، ثم يعمل لآخرته بما يجعلها آخرةً محمودة ونهايةً مشكورة؛ حتى يُقابل ربَّه يومَ المعاد بصحيفةٍ بيضاء وبعملٍ مُرضٍ. ولأجل العمل لهذه الآخرة يقوم بفروض الصلاة التي أمر الله بها، متقرِّبًا بها إلى الله لتشفع له عمَّا يرتكب ويأثم في حياته. وتكاد هذه الفريضة أو هذا الصنف من المراسم التعبُّدية هو كل ما يعرفه ويفهمه فلَّاحنا نحو الدين، وأظنُّنا نقسو كثيرًا ونتطرَّف لو طلبنا منه أكثر من ذلك ونحن نعلم في أي ظلمات الجهالة يعيش!

هذا الاستسلام المُطلَق وهذه الطمأنينة الاعتقادية هما السبب الأكبر فيما نَغبِط الفلَّاح المصري عليه من قناعة النفس ورضا الضمير، اللذين نحسبهما بحقٍّ سعادةَ السعادات وتاجَ النعيم. وسنعرف حين نتحدَّث عن نفسيَّته أنَّ من أخصِّ صفاته وخُلُقه القناعةَ، وأنها العامل الأكبر فيما نحسب له من نعيم وسعادة!

والآن نُحبُّ أن نتحدَّث عن خُلُق فلَّاحنا وعن نفسيَّته حديثًا لا ننقص منه ولا نزيد، وأن نصوِّرهما تصويرًا يتَّفق والغرضَ الذي دفَعَنا إلى كتابة هذه الأحاديث ثم إذاعتها بين الناس، تصويرًا لا نُحابي فيه ولا نكذب، هو صورة ما نعتقد أنه حق، ونؤمن بأنه صدق، وحسبُنا هذا الاعتقاد شفيعًا فيما نُخطئ من تصوير، ولسنا نَبْغي من هذه الأحاديث المبثوثة في هذه الأوراق، كما قلنا قبل الآن، إلا أن نصل فلَّاحَنا المصري بالبيئات المدنية في عصرٍ اتَّصلت فيه الأمم وتعارَفت، ولم يتَّصل فيه الفلَّاح المصري بالبيئات المدنية المصرية، فضلًا عن البيئات العالمية، فلا يزال يعيش في حقله وفي داره مُنفردًا بعيدًا عن حياة المدن وحياة العالَم جميعًا تجهله ويجهلها، حتى أوشك هذا الفلَّاح المسكين أن يكون صنفًا آخر من الإنسان الذي نعرفه ونفهمه، ونستمتع بخصائصه وحقوقه وتعاريفه، في عصرٍ يجب ألَّا يكون فيه إلا صنفٌ واحد من الإنسان كما أراد الله وكما شاءت القوانين!

أول ما يخطر ببال من لا يعرف الفلَّاح المصري، أنه رجلٌ مُتوحش همجي شِرير، سفَّاك للدماء، جافُّ الطِّباع، غليظ القلب، مُنكَر الخصال، هذه الصورة الكاذبة القاسية التي تصوِّر فلَّاحنا فيها جانبٌ كبير من القسوة ومن الظلم؛ وذلك لأن ابتعادنا عن فلَّاحنا وعدم اختلاط كثير منا به، وزَهْونا وكبرياءنا عليه، وتفكيرنا واعتقادنا بأنه من أصحاب الجلاليب الزرقاء وحمَلة الفئوس، وبأنه مخلوق لا يعنينا كثيرًا بأن نبحث في حياته وفي خُلُقه وفي وجوه إصلاحه، كل هذا جعل تلك الصورة بعيدةً عن الحق وعن العدالة. ومن

الأسف حقًّا، بل من المُخجِل والمُبكي معًا أن يأتيَ البعض فيُقلِّل من خطر هذا العمل الذي أخذت نفسي به، ويُصغر من شأن هذا الوجه من وجوه الإصلاح المصري الذي أقدمت عليه؛ وذلك لأني قصَرتُ جهودي واتَّخذت نصيبي من العمل والبناء، وزرعت غَرْسي في أرضٍ يحسبها ويراها هذا البعض لا تجدُر للزرع وللنماء، وليست خليقة بأن نتعهَّدها بالإصلاح والحرث والري، وفات هذا البعضَ الظالم أنه من أكبر الوصمات التي تلحق بفخارنا القومي، إذا ما ذكَرَت كلُّ أمَّة فخارَها، أن يَبقى ريفنا وفلَّاحنا في القرن العشرين وفي عصر النور والعرفان وتقرير الحريات ونصرة العدالة، كما كانَا في عصور الجبروت وعهود السُّخرة والجهالة!

مسكين أيها الفلَّاح! يظهر أن الأقدار لا يكفيها أن تعيش وتحيا هذه الحياة النَّكداء البئيسة، وتُحرَم كل حقوق الإنسان، وتُكلَّف بكل أعمال الاستثمار والإنتاج؛ فهي تَغبِطك أيضًا حتى على عينٍ تَذرِف الدمع سخينًا عليك، وعلى قلمٍ يتحرَّك حدَبًا بك! حتى أنصارك وحُماتك أيها الفلَّاح أعداء القدر!

نعم، تكاد الصورة التي يتصوَّرها كثيرٌ منا عن فلَّاحنا تتلخَّص في الهمجية وفي الشر والسفك، ونكاد لا نعرف عنه سوى جوانب الشر، أما الجوانب الأخرى البيضاء فنجهلها كل الجهل، أو لا نُحبُّ أن نعرفها ازوِرارًا وصلَفًا وعُتوًّا؛ وذلك لأن المدنيَّة الغربية غمَرَتنا عقلًا وقلبًا ووجودًا وإحساسًا، وأبعدَتنا عن الرُّكون والحنين إلى جمال البساطة، وجلال البداوة، والشفقة على الفقراء، والرحمة بالبائسين؛ فأفسدت علينا قلوبنا وحواسَّنا بما انتزعَت منَّا خيرَ ما يُشرف إنسانيتنا ويسمو بها؛ الرحمة والوفاء!

ولقد تكون العلة الأولى والباعث الأكبر في ابتعادنا عن الفلَّاح، وعن خلاطه ومعاشرته ومجالسته، واحتقار الكثير له، هو بكلِّ أسفٍ جهله وعدم تحضُّره الذي يتسبَّب عن جهله، ولكن هل هو الذي ارتضى لنفسه الجهل وعدم الحضارة؟ هل هو الذي حبس نفسه في هذا السجن المُظلم بعيدًا عن النور وعن الحق وعن الجمال؟ وبعبارةٍ أخرى، هل هو الذي اختار لنفسه أن يكون عبدًا لمالكه، أسيرًا لحكَّامه، فقيرًا بائسًا محرومًا؟ ليس المسكين هو المَلوم، وليس هو الذي يريد لنفسه عارَ الجهالة وذلةَ الغباء، ولكنهم أنكروا وجوده، وسلبوه حقوقه، وألقَوه في غيابات الجهالة؛ لئلَّا يفتح عينَيه فيرى النور، ويُبصر الحقيقة، ويعرف العالم والموجود!

ولكنَّا — في سبيل الحق وحده — لا نريد أن ندع هذه النقطة تمرُّ بدون أن نحمِّله نصيبًا من اللائمة إلى حدٍّ ما، وإن تكُ خارجةً حقًّا عن ذاتيته وإرادته المجرَّدة، فإن

العصور السُّود — كما قلنا — التي مرَّ بها الفلَّاح المصري، وأخصُّها عصر المماليك المنكود، قد أورَثَته الاستكانة، وحبَّبَت إليه الإخلاد إلى الكسل بما يَقرُب من الرخاوة تجاه حقوقه ومطالبه، وأورَثته الذلة والخضوع حتى ظهر الجهل فيه بثَوب البلاهة. ولا يزال هذا الميراث يتوارثه الابن عن أبيه عن جده، حتى كأن الجهل أصبح لديه لذةً لا تَعدِله لذة، وحتى أصبح طلب العلم عند الكثير منهم أمرًا نُكرًا، ويكاد يكون إلحادًا؛ فكثيرًا ما نرى بأعيُننا أن الطفل في القُرى لا يخرج إلى الكُتاب إلا باكيًا من الضرب، وإلا مكتَّفًا أو مشدودًا حتى لا يعبث برِجلَيه من الجماح والغضب، وكثيرًا ما نرى أن الأب يُرسِل ابنه للكُتاب أو للمدرسة، فإذا ضربه الفقيه أو «الشيخ» أو المدرِّس ولو ضربًا خفيفًا لأنه لم يقُم بواجبه، ذهب الولد باكيًا مُنتحِبًا إلى أمه، شاكيًا الشيخ أو المدرِّس إليها، فتأخذ هذه الأم في لعن المدرِّس أو الشيخ، وفي استنزال الغضب والسخط على العلم الذي من أجله يُهان ابنها العزيز، وتُجرَح كرامته، وتدمع عيناه، وهنا تمنعه مُطلَقًا عن الذهاب إلى الكُتاب أو المدرسة، والأب بما أنه لا يُدرِك قيمة العلم يترك ابنه يتربَّى كما يتربَّى هو بين الحقول وعلى الأكوام خيرًا من الكتاتيب أو المدارس، وخصوصًا لأنه ينتفع منه في استخدامه معه في العمل ومساعدته، وخيرٌ له أن يرى ابنه يتدلَّل على رُكبتَيه في قذارته البالغة أقصى مراتب القذارة، من أن يُرسِله بعيدًا عنه للكُتاب أو للمدرسة، فيُحرَم رؤيته واستخدامه معه. وكم من مرة لاحظتُ في مُشاهَدتي وأنا في الريف أن الأب يُرسِل ابنه للمدرسة أو للكُتاب، فإذا حدث أن الابن مَرِض وهو في غضون الدراسة، تستدعيه الأم إليها ليَبقى بجانبها، وليلعب على رُكبتها، وتمنعه عن الذهاب إلى الكُتاب أو المدرسة التي سبَّبَت مرضَه وأبعدته عنها. وهكذا يضيع جانبٌ كبير من ثروتنا العلمية، وهكذا كم يُدفَن من دُرَر وجواهر في التراب أصبحت بفضل الإهمال أحجارًا مُبعثَرة على الأكوام، تلهو بها الصِّبية والغِلمان، كان ينقصها لأن تكون جواهرَ ودررًا تبعث النور والقوة والعظمة يدٌ تنفُض عنها ترابها، وتُخرجها من رمالها، وتتعهَّدها بالحفظ والرعاية والصَّقل والتهذيب! وهكذا يُقضَى على نبوغ عدد كبير من أطفالنا وشباننا وهم لا يزالون بعدُ في مِهاد العلم، وأُولى مراتب التثقيف والتهذيب، ما بين بلاهة الأمَّهات وغباء الآباء!

لا يمكننا أن نعرف نفسية الفلَّاح معرفةً حقَّة قائمة على الصدق إلا إذا درَسْناها درسًا عمليًّا وعاشَرْناه؛ حتى يظهر لنا الجانب الأبيض والجانب الأسود فيه، وإذا فعلنا ذلك كنَّا قُضاةً عُدولًا!

لعلَّ أبيَنَ ظاهرة خُلقية في فلَّاحنا هي «القناعة»، كما قلنا حينما تحدَّثنا عن حياته، وسنرى حين نتحدَّث عن سعادته أن هذه القناعة وهذا الاطمئنان إلى ما يعلم هما سرُّ

راحة باله وإسعاد فكره أمام ما يُعاني من آلام، وما يُكابد من ضنك وحِرمان وبؤس؛ فهو يَقنَع بكل شيء قلَّ أو كثر، ويرضى بما يكتبه الله له من نصيب وقِسمة ورزق، سعادةً كانت أو شقاءً؛ فإذا كان كل شيء مَصدرُه الإله، ومَرجعه إلى الخالق، فليس علينا كعِبادٍ له مُخلِصين مؤمنين إلا أن نرضى ونخضع لإرادته فينا وحُكْمه علينا؛ فهو تعالى مَصدر الخير، ولا يصدُر منه إلا الخير، ولا يقصد بنا إلا إلى الخير؛ فمن الخير إذن أن نرضى بكل ما قسَمه لنا من نصيب في الحياة، ومن الخير أن نُحول آلامنا بأنفُسنا إلى لذَّات، وأن نجعل من الشر خيرًا، ومن المنكر معروفًا، وأكبر سعادة لنا هي أن نَقنَع بما بين أيدينا، وبما يَنزل علينا من عند الله؛ لأنه تعالى هو الذي أراد ذلك لنا؛ إذ ليس في أيدينا وسيلةٌ ما إلى تحقيق مطامحنا بأنفُسنا؛ فإذا كنَّا عاجزين هذا العجز فمن الحكمة أن نَقنَع، ومن حسن الرأي أن نرضى بمقدورنا ونخضع لمصيرنا، ولعلَّ غدَنا يكون أكثر توفيقًا ويُمنًا من يومنا، ولعل يومنا يكون أحسن حالًا من أمسِنا، ولعل الله يُحدِث بعد ذلك أمرًا، ويجعل من العُسر يُسرًا!

هذه النفسية الراضية القانعة بكل شيء في الفلَّاح هي التي تجعله دائمًا راضيًا وديعًا مُتفائلًا مُغتبطًا؛ فإن أصابه ضرٌّ أو ضيم، أو أصاب زرْعَه وبالٌ أو خُسْر، لا يتبرَّم ولا يتضجَّر؛ لأنهما يُنافيان الخضوع لكل ما يأتي به الله، ولأنه لا يُجْديه الضجر أو التأفُّف، ولكنه بدلًا من هذا يحمد الله على السرَّاء والضرَّاء، والبؤس والنُّعمى، وعلى الخير والشر على السواء؛ فإذا فُجِع في ولدٍ له عزيز عليه لم يذهب به الحزن والأسى ما يذهبان بسائر الناس من عويل ونُباح وشِبه ذُهول وضعف إيمان، وإنما يُسلِّم نفسه إلى الله ليَهَبه السلوى، ويمنحه العزاء، ويُوليَه الصبر. وإذا أصابته مصيبةٌ لا يسعه إلا أن يفوِّض أمره إلى الله، ويقول لنفسه: لعلِّي في غدي أكون أحسن توفيقًا وإسعادًا مني في يومي وأمسي، ولعل ذلك نتيجة غضب الإله عليَّ لذنبٍ اقترفتُه، أو جُرمٍ اجترمتُه، فاستحققتُ هذا الجزاء!

هذه النفسية الراضية الهادئة المُستسلِمة، كما قلنا قبل الآن، هي أحسن ما في فلَّاحنا من خُلُق، وهي التي يُحسَد عليها حقًّا، وسنرى أنها و«نعيم الجهالة» هي سر وسعادة هذا الفلَّاح سعادةً تعزُّ على الكثيرين. ولعل السبب الحق في عدم قيام هذا الفلَّاح في وجه ظالميه والخروج عليهم بالعِصيان في العصور الماضية الدابرة، هو هذه النفسية الراضية المُسالمة الناعمة القانعة المطمئنَّة راغبةً أو مُكرَهةً إلى ما تعيش، هو هذه الظاهرة الخُلقية الفذَّة التي تُهيمن على كل وجوده، وتؤثِّر في كل حياته؛ ولذلك

عرَفها حُكامه ومُلاكه فاستغلُّوها واستخدموها في إذلاله وإرهاقه، وحسِبوا الرضا بلاهةً، والقناعة سذاجةً، والاستسلام مَسكنةً وذلًّا وعجزًا، والصمت والسكوت قَبولًا للذل ورضًا بالهوان!

سبق أن تحدَّثنا عن اعتقاد الفلَّاح، وسمَّينا إيمانه «إيمان العجائز»، والآن ما دُمْنا نتحدَّث عن نفسيته أو عالَمه الباطني بمعنًى أدق، فنُحبُّ أن نذكُر كلمةً عن هذه الاعتقادية، سواء أكانت دينية أم غير دينية. الفلَّاح أكثر الناس مُحافَظةً على دينه كما يتصوَّره ويفهمه، فأغلى شيءٍ يحرص عليه ويذود عنه ولو بالمُهَج والأرواح هو دينه؛ ولذلك يكره ويتعصَّب ضد كل من على غير دينه من أصحاب الأديان المنزَّلة الأخرى وغير المنزَّلة. ولعل التعصُّب من أجلى الظواهر الخُلقية المبيَّنة في خُلُقه وفي اتجاهاته، ولكن هل نطلب من نفسٍ جاهلة لم يهذِّبها العلمُ أن تخلِّص نفسها من جهالة التعصُّب لتعيش في نور التسامح؟ إذن لنَكوننَّ قُساةً ظالمين لا نفهم طبيعة الأشياء!

ولَمَّا كان الدين والمحافظة عليه أكبر شاغل يَشغل الفلَّاح، كان لذلك أكثر الناس خلطًا لكل شيء ولكل مسألة بالدين، وهو يراه كل شيء في الحياة وكل ما سواه باطل وإفك. وربما يعلِّل خوفه من التعليم بهذه العلة؛ فإنه يخشى أن يُضعِف العلم من دينه أو يبدِّد يقينه؛ لأنه يسمع من بعض رجال الدين وأصحاب العمائم الكبيرة الذين سمَّاهم يومًا ما أحدُ كبار أدبائنا بـ «رجال الكهنوت»، والذين خَشِي المرحوم الإمام أن يقضوا على هذا الدين بجهلهم وعمايتهم، يسمع منهم كثيرًا بأن العلم والدين لا يمكن أن يتآخيَا معًا، فإذا حضر أحدهم يجب على الآخَر أن يُغادر المكان؛ لأن الأرض الواحدة لا تسعهما معًا. وإذا عَلِمت أن أمثال هؤلاء المُتعالمين كثيرٌ في ريفنا، ويعيشون وسط فلَّاحنا المِسكين، فلا تلُم هذا المسكين إذا صدَّق دعواهم واطمئنَّ إلى قولهم وكذبهم؛ لأنه يتصوَّرهم خُلفاء الله في أرضه، ويتصوَّر كلامهم من لدن عزيز حكيم، وأين تُذاع وتُصدَّق وتنجح سُبُل الاحتيال والنصب وطُرُق الخديعة والكذب في خيرٍ من رُبوع الجهالة وأمكنة السذاجة؟

وحِرص الفلَّاح على دينه ومحافظته عليه وتعصُّبه له مُلائمٌ كل المُلاءمة للبيئة التي تحُوطه، ولظروف العيش التي يعيشها؛ فهي بيئة كما رأينا هادئةٌ ساجية، فيها يبدو الكون أعظم ما يبدو، وتظهر اللانهاية على خير ما يمكن أن تظهر. وهذا الهدوء يُساعد إلى درجةٍ كبيرة على التعبُّد، وعلى التفكير في عظمة الخالق وسعة الكون وسر اللانهاية وإبداع الوجود. ونستبيح لنا أن نقول أكثر من ذلك؛ أن نقول إننا يُمكِننا أن نرى الله في الريف خيرًا مما نراه في المدن! ولسنا نُحبُّ أن نتوسَّع في هذا المعنى؛ فلقد أتينا بما فيه

الكفاية على ما نظنُّ حين تحدَّثنا عن الريف، وعن صِلته بالعبادة وبالتقديس وبالحق وبالجمال!

تلك هي العقيدة الدينية للفلَّاح بوجه الإجمال، فما هي العقيدة القومية أو الوطنية له؟ يؤلمنا أن نُقرر هنا في غضون وتضاعيف هذه الرسالة حقيقةً لا يُنكِرها إلا مُكابر، وهي أن القومية المصرية لم تأخذ بعدُ شكلَها الثابت، ولم تتركَّز بعدُ في أذهان المصريين تركيزًا واضحًا منظَّمًا مدعَّمًا. وإذا كنَّا نتحدَّث عن الفلَّاح فقط فنقول إنه بحسب ظروفه وطبيعة وُجوده لا يُدرك شيئًا لمعنى «القومية» أو لمعنى «المصرية»؛ فأحيانًا يخلط بين هذه «المصرية» بـ «التركية»، وأحيانًا أخرى بـ «العربية»؛ فهو إذن يخلط الاعتبارات الدينية دائمًا بالاعتبارات القومية، ولا يزال للآن يقول لك نحن «أولاد عرب»، ولا يزال الكثير يتمسَّح بالتُّرك وبـ «الدولة العلية» ويتعصَّب لها، ولا يزال الفلَّاح إذا سألته: ما جِنسيَّتك؟ يُجيبك: من المنوفية أو الغربية أو أسيوط. ولا يخطر بباله مُطلَقًا أنه من «مصر»، هذا القُطر المعروف بحدوده المعروفة. ولا يزال للآن يفهم أن أصله يرجع إلى «العرب»، وأن تاريخه يبدأ بتاريخهم، ولسنا ندري إلى الآن مدى تأثير هذا الخلط الذي نخشى أن يُفضيَ إلى ضياع قوميتنا وسط هذه الجهالة والعماية؟ ومن المؤلم حقًّا أن تسمع من الفلَّاح الذي ينتقل من مديرية إلى أخرى لأسباب معيشته أنَّاتِ الشكوى والحنين لوطنه الذي فارَقه، والذي يعدُّ نفسَه غريبًا في الجهة التي انتقل إليها؛ فهو إذا كان أصله ومولده في المنوفية، وعاش في البحيرة، حَسِب نفسه غريبًا عن الوطن كما يحسب المصري نفسه غريبًا في فرنسا مثلًا، ويأخذ في التألُّم والتوجُّع واسترجاع الذكريات، والحنين المُبكي أحيانًا.

هذا التخلخل في الشعور بالوطنية الحقَّة والإحساس بالمصرية العريقة الخالصة، وهذا التوزُّع المبدِّد للجنسية، يُلاحَظ بأجْلى وضوح لدى فلَّاحنا الذي لا يَفْقه معنى قومية ولا يُدرك معنى «مصرية»؛ وبالتالي لا يُقدِّر لنفسه «ذاتية» خاصة معروفة!

ونُحبُّ أن نذكُر هنا في سبيل الحق وحده أن الفلَّاح أبعد الناس عن طُرُق النفاق ووسائل الزُّلفى وأساليب الاحتيال، فما الذي يدعوه إلى النفاق والتمليق إذا كان القدر قد كتب عليه أن يكون بعيدًا كل البعد عن حكامه، ثم لماذا يرتجي منهم من الخير والمعروف، وهو يعرف حق المعرفة أنه مهما نافَق وتزلَّف فإن قلوبهم التي قُدَّت من الصخر واقتُطعت من الحديد، لن تَخفق بالشفقة عليه والرحمة به؟ وفضلًا عن ذلك فإنه قد ورث هذا الابتعاد والخوف والرهبة من الحكام والمُلاك الظالمين، وأصبح فيه كل هذا

غريزةً أنْماها الزمن وقوَّتها العصور المُتعاقبة وأساليب الحكم المُتعددة، حتى أصبحت العلاقة بينه وبين حكامه وبين ملاكه علاقة نُفور وعُزلة ورهبة بدلًا من أن تصبح علاقة حب ووئام ورغبة، ونتج عن هذا النفور وهذا التباعد أن تَرْبى فيه روح الجمود والجبن والخضوع، والاعتقاد بأنه لا يُرتجى له إصلاح أو خير من حُكامه ومُلاكه، حتى أصبح لا يُقابل إشاعات الإصلاح المزعوم وكثرة مُستخرَجات مَعمل «المشاريع» إلا باسمًا ساخرًا هازئًا، بل يائسًا؛ وذلك لأن هذا الاعتقاد، أو بمعنًى أدق لأن هذا اليأس من إصلاح الحال ومن تغيير نظام معيشته أصبح جزءًا من حياته وشطرًا من وجوده، وأصبح يُهيمن عليه ويملك عليه كل أموره لدرجة أنه يكاد يتصوَّر أنه دون الناس جميعًا قد قُدِّر له البؤس والفاقة والحِرمان، وأنه كما وُلِد محرومًا مسكينًا جاهلًا، وكما يعيش مكدورًا شاكيًا بائسًا، فسيموت أيضًا فقيرًا مُهمَلًا منسيًّا؛ ولذلك فالأوفق له أن يبقى على ما هو عليه، وأن يرضى بنظام حياته، سواء أكان نظامًا محمودًا أم مذمومًا، قانعًا مُكرَهًا بذلِّه وبضَيمه وجهله.

ومن الحِرص على تقرير الحقيقة هنا أن نقول إن فلَّاحنا المصري يعيش ما يعيش غير شاعر بالحاجة إلى الإصلاح شعورًا قويًّا محدَّدًا منظَّمًا؛ فإن الظروف التي يُعانيها، والبيئة التي يعيش فيها، وشعوره الوراثي الذي ورثه عن آبائه وأجداده في عصور العسف والجبروت والظلام، كل هذا جعله لا يعرف من جوانب الحياة إلا جانبًا واحدًا هو الذي يسير فيه وعليه وبه؛ فاليأس المُستمر جعله يجهل تصوير الأمل، والجهل المُطبِق الذي يعيش في ظلماته دعاه لا يعرف تقدير العلم ولا يشعر ببَهر النور، والحكم الاستبدادي الذي عانى ويُعاني ظلمه وإرهاقه أفقده تقدير العدل، وظروف البلاد السياسية بما تخلَّلها من نير الاحتلال وبطش الاستعباد أبعدته عن الشعور بمعنى الحرية والجهاد لها، وفهم مداها وسامي غرضها، لدرجة أنه يُخيَّل إلينا أنه أصبح في هذه الحال الشعورية الغامضة المُضطرِبة المُبهَمة لا يُميز كثيرًا بين العلم والجهالة، أو بين اليأس والملل، أو بين الاستعباد والاستقلال! وليست اللائمة، كما قلنا كثيرًا في ذلك، تقع عليه هو بالذات، وإنما على الحُكام والمُلاك الذين أنكروا أو احتقروا وجود إنسان له من «حقوق الإنسان» نصيبٌ محترم لا يَقبَل التبديد أو الاستلاب، وإنما على تلك الظروف السياسية القاهرة التي نُكبت بها البلاد طول تاريخها وحياتها، وإنما أخيرًا على الروح الاجتماعي الذي تجاهل إلى الآن هذا الصنف من الإنسان، ولم تأخذه فيه عاطفةٌ إنسانية نبيلة تُحرك الشفقة عليه والرحمة به.

سيقول القائلون: أتُنكِر نصيب الفلَّاح في النهضة الكبرى وفي الثورة القومية التي برهنت أنه يقدر حقًّا — بخلاف ما تقول — معنى الحريات والاستقلال؟ وليسمع لنا هؤلاء القائلون المُستقبلون بأن نقول لهم إننا نُقرر معهم في فَخارٍ يرفع رءوسنا، وفي عزةٍ تُعلي كبرياءنا، نصيبَ الفلَّاح الأكبر في ثورتنا وفي الدفاع عن الحرية، ولكن نُقرر في سبيل الحق وحده بأنه لم يكُن اندفاعًا لدنيا بحتًا مصدره الشعور الحق، الشعور العالم المُبصِر المُقدر، لم يكُن اندفاعًا ذاتيًّا فردًا يشعر فيه كل إنسان بإحساسٍ باطني قوي يحفره إلى إدراك وتنفيذ ما يريد وما يشعر، عن فهم وحسن تقدير وتبصرة ونفاذ رأي وشعور بنقص وحاجة إلى الإصلاح، وإنما كان اندفاعًا مجموعيًّا شعبيًّا، مصدره التيَّارات الشعبية وروح الجماعات التي هي إلى التقليد أكثر منها إلى أي شيء آخَر!

لم يَدعُنا إلى هذا التقرير الذي يحسبه البعض مرًّا، والذي نعتقد فيه بحق، إلا حِرصنا الكبير في تصوير فلَّاحنا تصويرًا يُرضي الحق والضمير والواقع، وإلا حِرصنا على أن نُقرر بأن سياسة الحُكام والمُلاك في مصر وسياسة الظروف القاهرة أيضًا اشتركَتَا معًا في تكييف فلَّاحنا هذا الكيف الذي نُشاهده ونَلحظ آثاره ونتائجه، ونحن نبكي من الألم ونتحرَّق من الحسرة لحاله ولحياته التى لا يمكن أن يرضى بهما إنسانٌ يحمل هذا الاسم السامي وهذا المعنى النبيل، وتُحركه نحو أخيه الإنسان ولو أبسط عوامل الرحمة وصنوف الشفقة!

ولقد يكون من تحصيل الحاصل، كما يقولون، أن نُقرر هنا كرَمَ الفلَّاح المصري، وبذْلَ كلِّ ما في طَوقه واستطاعته لإراحة وإرضاء أضيافه. ولسنا نُذيع بدعًا أو نُبالغ في الادِّعاء لو قلنا إنه أكثر من أخيه المصري المدني نصيبًا من الجود، وقسطًا من الكرم الذي كاد يصبح غريزةً من غرائزه، وخَلَّة من خِلاله، وسِمة من سماته، ولا بدع في ذلك؛ فقِدمًا كان الكرم ولا يزال من خصائص الشرق، وبخاصةٍ الكرم المصري الذي نعتقد أنه جعل مصر نُهبة للطامعين، وتكيَّة للمُعوِزين، وملجأً للمُتشردين، والذي جعل من المصريين قومًا «طيبين» كُرماء لضيوفهم، كرمًا فهمه المُستعمِرون ورجال المطامع والأغراض ضعفًا ووداعةً وطيبةً ينفُذون منها إلى ما يريدون ويطمعون!

والجمال! ماذا يكون شأنه عند فلَّاحنا ما دُمْنا نتحدَّث عن «عالمه الباطني»؟ إذا كان الفلَّاح ما شاهَدْنا من سذاجة ومن جهل ومن فقر بالاستمتاع بالحياة، والشعور بالوجود، والحِرمان من الخضوع لسلطان الجمال القاهر، فلا ننتظر مُطلَقًا أن يكون له ذوقٌ خاصٌّ محدَّد في الجمال، أو بمعنًى آخَر أن يكون له سياسة أو ثقافة منظَّمة

مُحكَمة في تقدير الجمال؛ ففلسفة الجمال لو شئنا أن نُسميها كذلك بسيطة عنده جدًّا، تكاد تقوم على الألوان لو أحبَبنا أن نحصرها ونُحدد حدودها. وهل تريد من شخص لا يعرف من الوجود إلا ظاهره، ومن العالم إلا جانبه الخارجي المرئي المحسوس، وإلا أن يحصر معرفته وشعوره في الناحية الظاهرة المحسوسة من الوجود، الناحية المادية التي ينتفع منها ويُبصرها ويعرفها وتُغذي استعداده وميوله وشهواته جميعًا؟ فالمرأة الجميلة عنده المرأة البيضاء أو السمراء، البدينة أو الهزيلة، التي لم يُخلَق جمالها في هذه الأرض وفي هذا العالم إلا لتُشبِع شهوات الناس، وتُرضيَ حاجاتهم الدنيا.

وإذا ذكَرْنا الجمال فهل يَخلُق بنا أن ننسى الحب؟ ومتى كان الجمال والحب مُنفصِلين؟ أوَليس الجمال هو أساس الحب، وأننا لا يُمكِننا مطلقًا أن نُحبَّ شيئًا ما إلا متى استجملنا فيه شيئًا يدعونا إلى الميل إليه والإعجاب به ثم بحبه؟ وإذا كان الجمال كما رأينا عند الفلَّاح، فما حال الحب لديه؟ وإذا كانت المقدمات في القضايا المنطقية يجب أن تُنتج نتائج تتَّفق وإيَّاها، فهل يكون شأن الحب عند الفلَّاح غير شأن الجمال والاثنانِ من دمٍ واحد ومن سلالةٍ واحدة؟

وإذا كان كل ما يعرفه ويفهمه ويتذوَّقه من الجمال هو الجمال الحِسي، أو بمعنًى أدقَّ «الشكلي» على حد التعبير القانوني، فهل يكون الحب لديه أيضًا غير الحب الحِسي الذي لم ينَل نصيبًا ما من «الملائكية أو السماوية»، بل كله من «الإنسانية أو الأرضية»، لو صحَّت هذه التعابير؟

وإذن فلَنا أن نتساءل: هل يُدرك الفلَّاح معنى الحب؟ تطرُّف منا ولا شك أن نطلب منه أن يفهم الحب كما نفهمه، ويقدِّره كما نقدِّره.

الحب هو سِر حياتنا، بل هو غذاؤها، بل هو لُب لُبابها، بل هو أنبَلُ ما فيها وأسمى رغم مكابرة المُكابرين وإنكار المُنكرين، وإلا فماذا تكون هذه الحياة إذا جرَّدناها من الحب؟ إنها تكون ولا شك مَهزلةُ الصِّبية ولُعبة الأطفال، بل ماذا يكون الجسم إذا انتزعنا منه القلب؟ إنه يكون خرابًا يَنعق فيه الغِربان! نحن نُحبُّ؛ ولذلك نحن نعيش ونحيا في الحب ومن الحب وبالحب! وليس الحب كما يتصوَّره بعض الفارغين الذين حُرِموا «الروحية» والملائكية، والذين عاشوا ويعيشون طوال حياتهم في المادة والنفعية، ومن أجل المادة والمنفعة وحدها، وإنما هو كما قال «تاجور»: كمال الشعور بالنفس. أو كما يقول «لا مارتين»: «لم يُخلَق الإنسان إلا للحب؛ فهو لا يشعر برجولته وإنسانيته إلا يومَ يشعر حقيقةً أنه يُحب!»

فأين للفلَّاح إذن إدراك الحب هذا الإدراك وتصوُّره هذا التصور؟! ولكن أُنسيت! هو يفهم الحب ويُدركه؛ لأنه أحيانًا يُحب، ولكن أي حب وأي شعور بالحب؟! ذلك الضرب الخبيث المُنكَر من الحب؛ الحب الذي يستقي منابعه ويستلهم وحيَه من شهوات النفس الجسدية ونزواتها الدنيئة، ذلك الصنف من الحب الساقط الذي يعيش على استمتاع الجسد وحده، وإشباع النفس وحدها بأحطِّ أغذية الهوى؛ فإذن هو يتَّخذه وسيلةً لا غايةً، ولهوًا لا مثلًا أعلى، وإشباعَ جسد لا غذاءَ روح، وقضاءَ شهوة لا فناءَ الحبيب في الحبيب، فناءَ اندماج لا فناءَ اتحادٍ فقط، ولا سعيًا وراء الكمال الإنساني وكمال الوجود من طريق الحب!

ومن الطبيعي ألَّا تنتظر أن يكون زواجه قائمًا على دعامات الحب من الطرفَين المُتعاقدين، أو يقصد به الشركة الروحية والصِّلة القُدسية الطاهرة بين الزوجَين الشريكين المُتحابَّين المُكمِّل أحدهما نقص الآخر، الفاهم المُدرِك كلٌّ منهما وظيفة وحقوق الآخَر. ولسنا نُحبُّ الآن أن نتبسَّط معك في هذه المسألة، ولكننا نُرجِئها إلى حين نُخصص الحديث عن الريفية كما أخذنا على أنفُسنا أن نتحدَّث عن الريفي!

ومما نُحبُّ أن نُقرره هنا بمناسبة هذه المسألة، أننا لا نحكم على الفلَّاح وحده هذا الحكم من حيث النظر والإدراك لمعنى الحب وتقدير الجمال، بل نُشرِك الكثير جدًّا من أبناء مصر في هذا الحكم؛ فلا يزال الكثير منا ينظر إلى الحب وإلى من يُحبون، فِتيانًا كانوا أو فتَيات، نظرةَ الفاسقين المُرتكبين أمرًا فيه عارٌ ووصمة، ولا يزال الكثير جدًّا لا ينظرون إلى الحب ولا يُدركونه إلا بقدر ما يُشبِع نفوسهم ويُغذي جسومهم ويُرضي شهواتهم الجسدية، ويقولون لمن يتحدَّث عن الحب المُخالف لذلك: إنك خيالي، أو إنك شاعر لا تعيش في الأرض بل في السماء! وكثيرٌ جدًّا منَّا أيضًا من لا يزال يلوم ويُقرع كلَّ من يجده يقرأ في كتاب أو روايةٍ تتحدث عن هذا الحب الذي نقصده بالذات، مهما سمَت معانيها ونبلتْ مراميها؛ لأن الحب عندهم محرَّم، والحديث فيه محرَّم، والذي يُحبُّ عاطل لا عمل له، وهكذا يريدون أن يعيش الناس في أديار أو صوامع، أو ينزلوا بأرواحهم من سمواتها لتعيش في أرضهم ووسط عالمهم الذي يقوم على عبادة الجسم وحده، وعلى إهمال القلب وتجاهُل الروح!

وإذا حدَّثناهم برسالة المرأة في هذا الوجود، المرأة الكاملة الجميلة المثقَّفة المُريدة، أو بقوة الحب الخالقة أو الباعثة، فما أسهل أن تجريَ على ألسنتهم: شُعراء! كأن الشعر مُستودَع الكذب ومَنبع الإفك والبهتان في هذه الحياة في هذا البلد!

يسمع كثيرٌ منا في المدن عن الفلَّاح أنه شِريرٌ سفَّاك، أبعَدُ الناس عن الخير والشفقة، وأكثر الناس تعطشًا للدم وللشر. ولا شك أن في هذا الحكم جانبًا كبيرًا من الظلم على هذا المسكين، وقد يَطغى الشر على الخير، فلا يذكُر الناس إلا الشر، وينسَون أو يتناسَون الخير، والشر كثيرًا ما يُذكَر، والخير قليلًا ما يُتحدَّث عنه كما يقول العظيم شكسبير!

لا يُمكِننا مُطلَقًا أن نقول إن الفلَّاح بعيد عن الشر، فقد يكون هذا إسرافًا منَّا دونه أي إسراف، بل إنكارًا للحق دونه أي إنكار، ولكنَّا نقول إن هذه الصورة التي تُنقَل إلينا في المدن عن الفلَّاح المصري قد كُبِّرت ولا شك، وفيها نصيبٌ كبير من البُعد عن الحق وعن العدالة.

كلٌّ منَّا في هذا الوجود مركَّب من عُنصرَي الخير والشر، بمقدارٍ يختلف ضعفًا وقوة، وقلةً وكثرة، ولا يُمكِننا مُطلَقًا أن نعمل على مَحوِ الشر في الوجود وإلغائه من عناصر الإنسانية اللازمة؛ فهو عنصرٌ ضروري للحياة، لكمالها ولنظامها ورُقيِّها وحفظها، ولقد قال «تاجور» في هذا المعنى: «سؤالنا «لماذا كان الشر في الوجود؟» هو نفس سؤالنا «لماذا كان النقص؟» أو بمعنًى آخَر: لماذا كانت الخليقة جميعًا؟»

ثم ما لنا ننظر إلى الشر هذه النظرة القاسية الخاطئة؟ فهل كان يكون للوجود بغير جوانب مُتضادة وظاهرات مُتعاكسة وأوجُه مُتقابلة؟ إن هذا التقابل أو هذا التضاد هو السر في ضبط نظام الوجود وتوازُن الإنسانية الدقيق المُحكَم، هو النغم الرقيق الهادئ في موسيقاها الخالدة، الناتج من ضرب أوتارها العديدة المختلفة.

إذن ليس الشر إلا ظاهرة من ظاهرات الوجود الضرورية كان لا بد منها ليبقى للوجود قوته وإنتاجه وجماله وتوازنه، وليس هو من الوجهة الفلسفية البَحتة الجهةَ المُضادة للخير، كما أن النقص — كما يقول «تاجور» — ليس هو نفيَ الكمال، أو أن النهاية تُضادُّها اللانهاية، ولكنها جميعًا ليست إلا كمالًا يبدو موزَّعًا، واللانهاية تظهر في خلال حدود وتُخوم!

لا الخير ولا الشر غريزة فينا كامنة في نفوسنا من يوم أن وُلِدنا وظهرنا في هذا الوجود، وليس الإنسان طيبًا بطبعه كما يقول صاحبنا «روسو» حينما أراد أن يُبرئ أخاه الإنسان من الاستعداد للشر، ويُسند كل هذا إلى الاجتماع الذي أفسده بعد صلاح، وفي هذا ولا شك إسرافٌ أي إسراف من صاحبنا «روسو»، الذي أراد أن ينسب كل الشرور إلى المجتمع الإنساني حتى اشتطَّ في الاتهام وسوء الظن، وكاد أن يؤلِّه الإنسان ويُنزهه عن الخطايا ويعصمه من الشرور؛ ولذلك نصحه بالرُّكون إلى الطبيعة وحدها؛

ففيها النجاة من الشر ومن الرذيلة، ثم قال إننا ما صِرنا إلى ما نحن عليه الآن إلا لبُعدنا عن أمِّنا الطبيعة؛ فنحن في الأصل أخيار، والجماعة أو المجتمع هو الذي جعلنا أشرارًا!

يريد روسو منَّا أن نكون في مِثل وحدة حي بن يَقْظان أو روبنسن كروزو، فهل لو تأتَّى لنا هذا اللون من الحياة نكون سُعداء كما يُصور لنا روسو؟

وهل إذا أمكننا نحن أن نهرب من المجتمع الإنساني وأن نركن إلى الطبيعة وحدها، فهل نكون في هذه الحالة قادرين على تحقيق آمالنا وبلوغ أطماعنا؟ ليس المجتمع وحده هو الذي يُفسدنا، بل نحن شُركاء أيضًا في الجريمة، وليس المجتمع هو الذي يدعونا إليه، بل نحن الذين نسعى إليه ونُلحُّ في السعي؛ لأننا لا يُمكِننا مُطلَقًا أن نحيا حياةً راضية إنسانية محترمة بعيدين عن الاجتماع الإنساني.

يقول روسو إن عنصر الخير هو الأصل فينا، أما عنصر الشر فعارِضٌ جديد ونَزيلٌ علينا. وفي الحق حسبما نعتقد ونؤمن إننا لسنا أخيارًا في الأصل كما يقول روسو، ولا أشرارًا أيضًا كما يريد البعض أن يقول، وإننا يوم نُولَد ونظهر في هذا الوجود لا نعرف ما هو الخير ولا ما هو الشر، ولكن المسألة أننا نُولَد ومعنا غرائز تنمو معنا وتُكافح معنا الحياة كما نُكافح، وهذه الغرائز ليست إلا قُوًى نستعين بها على العيش وعلى الحياة، وهذه الغرائز دائمًا في كفاح مع بعضها وفي تفاعُل مع أخواتها، وتتنازع على البقاء كما يتنازع الأحياء جميعًا؛ فالأقوى منها يتغلَّب على القوي، والقويُّ يتغلَّب على الضعيف، وهذه الغرائز ولا شك تتكيَّف وتتوجَّه وتتلوَّن بحسب روح الجماعة، وبحسب التربية، وبحسب البيئة الزمانية والمكانية معًا. وفي كلٍّ منَّا جانب من الخير وجانب من الشر يتنازعان دائمًا الإنسان، والظَّفر أخيرًا في جانب الأقوى كما هي سنة الوجود. ويبدأ تاريخ هذا النزاع من أول مظهر للوجود الإنساني، حتى جعلت الأمم القديمة من مِصريِّين وفُرْس وغيرهم لهذين العُنصرَين المُتنازعين آلهةً؛ فعندهم إله الخير وإله الشر ضِمن آلهتهم المُتعددة!

ولقد ذكَرنا قبل الآن أننا من الوجهة الفلسفية البَحتة لا يُمكِننا أن نقول إن الخير نقيضه الشر كما نتجاوز في ذلك في التعابير اللفظية والبيانية، كما أنه لا يُمكِننا مُطلَقًا أن نقول إن الأبيض نقيضه الأسود، أو إن الفضيلة تُقابلها الرذيلة، أو إن الحب يُقابله البُغض؛ فليس كل هذا في الحق إلا تجاوزًا منَّا وتعابير اصطلاحية ورثناها أو تساهَلنا في تردُّدها. وليست كل هذه الظاهرات إلا مسائل اعتبارية نِسبية تخضع لمبدأ النسبية الذي يخضع له الوجود جميعًا، أو على الأقل الوجود الإنساني؛ فلا يُمكِننا مُطلَقًا أن نجزم

بأن هذا العمل خير وذاك شر، فلا الخير خيرٌ محض ولا الشر شرٌّ بحت، وقد يكون خير في شر، وقد يكون شر في خير، وقد يكون العمل الواحد خيرًا وشرًّا معًا، وقد يكون لا إلى الخير ولا إلى الشر، وقد يكون خيرًا في عصر وغير خير في عصرٍ آخَر، وقد يكون شرًّا لك وخيرًا لي؛ مما يُثبِت أن الحياة تمنع منعًا باتًّا «الإطلاقية المحضة» Absolutisme، وأن العقل الإنساني يقوم بوظيفته في حدود النِّسبية وحدها!

ونعود الآن إلى موضوعنا: هل الفلَّاح خيِّر أو شِرير؟ وأي العنصرَين أغلب فيه على الآخر؟ وما العلة في ذلك التغليب؟

كل ما ذكَرناه إلى الآن عن نفسية الفلَّاح كانت نِسبة الخير فيه أكثر من نسبة الشر؛ أي إننا ذكرنا وشخَّصنا الناحية الخيِّرة فيه، ونُحبُّ الآن أن نتحدث عن الناحية الأخرى إتمامًا للحديث واستيفاءً للموضوع. ويُلاحَظ أننا لم نشَأ التعمُّق العلمي التحليلي في بسيكلوجية الفلَّاح وتشخيص «عالمه الباطني» في هذه الرسالة التي، كما قلنا كثيرًا، تأخذ صبغة «الأحاديث» أكثر مما تأخذ صبغة التحقيق العلمي!

يبدو لنا من ملاحظاتنا العديدة في ريفنا أن الفلَّاح فيه جانبٌ كبير من الشر قد يكون خطرًا فاتكًا حين يُساق إلى ذلك مُكرَهًا بدوافع خارجية؛ فهو في مُعظَم الأوقات هادئ مُسالِم وديع، ولكن إذا اندفع إلى الشر تكشَّفت عنه طبيعةٌ فاتكة ونفسيةٌ خَطِرة، فهو ينقاد إلى الشر لأتفه الأسباب؛ فلرُبَّما لأن جاره في الغيط اقتلع قليلًا من زرعه، أو اعتدى على مَجرى الماء الذي يصل إليه، أو لأن جاموسة جاره أو بقرته اعتدت على «جُرنه» أو على زرعه في غيطه، بل ربما لأن صبيَّ جاره اعتدى على صبيِّه وهما يلعبان في الحارة، أو لأن امرأة من نساء القرية تشاتمت أو تشاجرت مع امرأته، أو لأن غيره مَدين له ولو بخمسة غروش لم يسدِّدها، أو لأن أحدًا قد بلغ عنه يومًا وهو يسرق أو قال عنه نميمة، أو لأن أهل جاره قد سرقوا منه فرخة أو بطة.

ولقد رأيت يومًا — أستغفر الله — بل لقد سمعت أن فلَّاحًا رأى غنمَ غيره تعتدي على جُرنه حيث قمحه وشعيره، فحدَث النضال والتجاذب بالحديث، ثم أن بيَّت كلٌّ للآخَر الشرَّ وتربَّص به الأذى، وفي الساعة المحدَّدة تقابَل الخَصمان وحدث التصادم، فضرب أحدهما الآخر بالنبُّوت فشجَّ رأسه، فما كان من الثاني وهو يتضرَّج بدمائه الحارَّة التي خضَّبت وجهه إلا أن بحث عن آلة يُدافع بها المُعتدي، فلم يجد خيرًا ولا أسرع في الإجهاز على خصمه إلا فأسه الحادَّة. ولقد بلغت أيضًا بأن زوجًا أساء الظن بزوجه، فلم يجد طريقًا إلى تأديبها — إن كانت مُذنِبة — إلا أن سحب نَبُّوته وأثخن تلك الزوج ضربًا

بالعصا، حتى هشم أحد ذراعَيها وأشلَّه عن الحركة وهو باسمٌ فَرِح بانتقامه الموهوم، وهو مع هذه الروح المُجرِمة لم يستطع أن يُثبِت قالة الناس فيها كما يدَّعي. ثم عَلِمت أيضًا أن امرأتَين تشاتمتا على أمرٍ يخصُّ زوجَيهما، وأذكُر أن هذا الأمر هو أن كلًّا منهما أخذت تسبُّ الثانية في عفافها، فلكَيدِها أخذت تتَّهمها أن زوجها نفسه هو الذي داس شرفها وأتى معها فعلًا غير شرعي، وبعد التشاتم بالكلام قامت كلٌّ منهما للأخرى، وسحبت النبُّوت وطحنتها به كما يفعل الرجال. فترى هنا أن الغَيرة النسائية التي هي من أخصُّ صفات النساء نُسِيت نسيانًا تامًّا في سبيل الكيد وحب التشفِّي والغلبة.

تلك الصور المُقتضَبة المُوجَزة من نفسية جانب كبير من الفلَّاحين والفلَّاحات تُعطينا فكرة ولو تقريبية — جانب الحق فيها أقوى من جانب الباطل كما نعتقد — عن انقياد الفلَّاح لعوامل الشر؛ هذا اللون الأحمر القاسي الخطر، ويُبيح لنا هذا أن نقول إن الفلَّاح إذا طاوَع الشر فعسيرٌ عليه أن يعتدل أو يترفَّق في شره بخلاف معظم إخوانه المدنيين، وحسبك أنه لا يُكافح إلا بالنبوت أو الفأس أو البندقية.

ثم هناك شيءٌ آخَر يُمكِننا أن نستنتجه من هذه الصورة الأخيرة، وهو أن العدوى الشِّريرة قد انتقلت من الرجل إلى المرأة، ومن الطبيعي كما قرَّر العلماء أن عدوى الشر أسرع خُطًى من عدوى الخير؛ فظهرت المرأة التي كنَّا نحسبها ولا نزال نحسبها ملاكَ رحمة ورسولَ لِين ونعمة، في مظهر اللَّبؤة الضارية التي لا تعتدل في البطش ولا تترفَّق في الفتك، حتى كِدنا نؤمن بأن رِقَّة المرأة ولُيونة النسائية ورخاوة الأنوثة قد استخفت في الريف بين الكثير من النساء، وغادَر البيتَ مَلاكُه وسكَنه الشيطان!

والفلَّاح إذا ما اعتزم الشر والأذى بغيره لا يهدأ له بال ولا يطمئنُّ له قرار حتى يُرضيَ شهوة انتقامه التي تُهيمن على كل شهواته؛ فكثيرًا ما يعتدي على زرع غيره تشفِّيًا وكيدًا؛ فإما أن يقتلع زرعه حتى يُيئسه من المحصول والنتاج، ويُضيع تعب عامه وعصارة دمه وما سكب فيه من عَرَق الجسم؛ وإما أن يُطلِق لماشيته عِنانها فتعبث بزرعه حتى تأتيَ عليه؛ وإما أن يُشعل النارَ في جُرنه حتى لا يبقى له محصولٌ شتوي يقوت به نفسه وأولاده، ونحن لا نجهل بأن هذا المحصول الشتوي هو تُكأة الفلَّاح وسنده في العام، منه يعيش ومنه يبيع جزءًا منه ليبتاع به حاجاته المنزلية؛ وإما أن يسمِّم ماشيته حتى يَحرِمه نفعها له في العمل واستدرار اللبن منها، ويَحرمه أيضًا قيمتها أو لحمها، وماشية الفلَّاح كما نعلم هي كل حُطامه من العيش، وثروته في الوجود، وسنده في العمل، وساعِدُه حين اشتداد الأزمات المالية أو حين تستحكم حلقات

الحَجْر وأوامر «المُحضرين»؛ وإما أن يلجأ إلى السرقة فيسطو على داره أو على ماشيته أو على نورجه أو محراثه، وهذا أو أقل منه هو كل ما يملك فلَّاحنا المسكين.

ولقد شاهَدت جماعةً من الفلَّاحين أحبُّوا أن ينتقموا من خصوم لهم في قرية، فأفضى تفنُّنهم المُبدِع في الانتقام إلى أن سطَوا ليلًا على جُرن خصومهم حيث الغِلال جاهزةٌ مُتوفرة ومُعَدَّة للتخزين، فأخذوها ثم بعثروها بِددًا في الحقول التي بجوارهم؛ حتى لا يمكن بعد ذلك لخصومهم أن يستجمعوها ويُفيدوا منها، وتلك أكبر رزيئة لو يُفلِحون، وهيهات أن يُفلِحوا!

هذه الصور من الفلَّاح تُرِينا جانبه الأسود بعد أن رأينا جانبه الأبيض، وتُظهِر لنا أنه يتَّخذ كل الطُّرق للفتك بخصمه حتى ولو أدَّى الانتقام إلى الفتك بحياته نفسها.

قد يظهر ما أتينا به هنا من الصور عن فلَّاحنا لبعض القُراء تصويرًا ظالمًا أو حقيقةً مُرة كما يقولون، فما أدلَينا به يُشتمُّ منه رائحة الدم، أو يُلحَظ منه الروح الشرِّي الخطر للفلَّاح، ويعلم الله أننا لم ننتهج في هذه الرسالة إلا الحرص على الحق وعلى رضاء الضمير فقط دون أي نظر إلى اعتباراتٍ أخرى، سواء أكانت قومية أم لم تكُن؛ فإنَّا بما نأتي به من الصور لا نبغي إلا أن يكون العمل الذي أخذنا أنفُسنا به كاملًا أو قريبًا من الكمال، ولن يكون الكمال إلا إذا أرضى الحق وقدَّس الضمير!

ولكن ما الدوافع التي تدفع الفلَّاح إلى هذه الشرور؟ نحن لا نشكُّ مُطلَقًا في أن للبيئة القروية بكل محيطاتها ومؤثراتها، وللوراثة ولعدم تربيته وتعليمه، ولسوء حكم الحُكام وسياسة المُلاك، ولمرور عصور الظلم والجبروت؛ يدًا لها خطرها وأثرها في تكوين وفي تنمية هذا الروح الشري؛ فلو كان القدر يُسعِده بنعمة التعليم، ولو تُحيط به ظروفٌ خيِّرة، ولو يعيش في أوساطٍ راقية مهذَّبة مُستنيرة، ولو يهبُه الله حُكامًا ومُلاكًا يخافون الله ويعدلون ولا يظلمون ويُجرمون، إذن لَساعَد كل هذا على أن يشذِّب من شره، ويهذِّب من خُلُقه، وعلى أن يُقلل من إجرامه؛ وإذن لاستراح القُضاة وعلماء الأخلاق والاجتماع وزعماء الإصلاح من التفكير في علاج لهذا الوباء الفاشي، ولهذا الروح الإجرامي، ولكان الريف المصري مُستراح المكدودين حقًّا، الذين يطلبون الدعة والأمن والهدوء، ولأمن الناس ولو قليلًا وإلى حدٍّ ما على أرواحهم المهدَّدة بسيف الروح الانتقامي المُهيمن على كثير من فلَّاحينا، والذي يظلم بسَطوته وبرهبته سماء الريف الصافية، فلا تعود تُسبح فيها الملائكة، ولا تعود تبعث لأهل الأرض نورًا وحكمة وسرًّا يستمدُّون منها القوة على العمل، والقدرة على الكفاح، والعَون على الإيمان.

وإذن لبطَلت دعوى دُعاة الاستعمار في أن الفلَّاح المصري راضٍ عن حكمهم، مُغتبِط بعدالتهم، مهلِّل لسياستهم، مؤيِّد لاستلابهم حقَّ شعب في الحياة وفي الحرية؛ لا لسبب إلا لأن القوة تريد ذلك، ولأن النفوس الجشعة تريد أن ترتويَ وأن تأكل وتشبع، وإذن لأراحونا بذلك من اليأس في إصلاحه حتى لا نضطرَّ أن نذهب مع القائلين: اليأس إحدى الراحتَين! ولكن اليأس لن يكون وفي مصر إصلاحيُّون، وفي مصر شعبٌ كريم ينصر قضية الإصلاح وعملية التطهير والإحياء!

نعم! تَرُوعنا هذه «الشرِّية» في ريفنا؛ لأنها تجعل الحياة هناك عند الكثير غير مطمئنة، وتجعل لأولئك «الجزَّارين» واللصوص فضاءً واسعًا يمرحون فيه، وعملًا سهلًا يضمنون منه أرزاقهم بعيدين عن أيدي القضاء وانتقام العدالة. ففي الليل، وإذا ما تلفَّع الوجود بأستاره وبعباءته السوداء، وإذا ما سكن كل حي، وجلس الزوج إلى زوجه وأولاده يستمتعون بحلاوة العيش وبنعيم الحياة، تخرج جماعات السَّفَكة والمُجرِمين والجزَّارين تطلب قوتًا تأكله من أرواح الناس ومن جسومهم الطريئة الغضَّة، ومن عويل النساء وبكاء الأطفال وصراخ العجَزة، تخرج مسعورةً كالكلاب الجائعة التي يمسُّها شيءٌ صوب الرجل الذي تزعم أن لديه مالًا يملأ جيوبهم وبطونهم، ويُريحهم من عناء البحث عن العيش من طُرُق العمل الشريف؛ فإن وقف أحد في طريقها يَذُود عن حياته الغالية التي منحه إيَّاها الله، والتي لا يجوز لأحدٍ أن ينتزعها منه إلا الله، فليس أيسر لديها إزاء ذلك من البلطة يُشَج بها رأسه، أو من البندقة تخترم صدره وحُشاشة قلبه.

ولا تزال للآن هذه الجماعات الشرِّية مُنتشرةً في نواحٍ كثيرة في ريفنا، وهي منظَّمة تنظيمًا مُتقَنًا ككلِّ الجماعات المنظَّمة، فلها رئيس ولها وكيل ولها أعضاء، وقد تكون لها جمعية أو لجنةٌ تنفيذية وأخرى فرعية أو عامة، والرئيس هو الذي يُديرها، وهو الذي يوجِّهها نحو السلب والقتل، والأعضاء كلهم مُتضامنون يشعرون جميعًا بشعورٍ واحد يؤلِّف بينهم ويُجانس بين روحهم، وهم مسئولون أمام الرئيس العام الذي له حق توقيع العِقاب بمن يُخالف مبادئ الجماعة أو يخرج عليها أو يُذيع أسرارها، وليس لأي عضو إذا أمر بأمرٍ أن يتنصَّل منه أو يتنحَّى عنه، مهما جلَّ خطره وفدح شأنه. ولهذه الجماعات طُرقٌ مُدهِشة في تنفيذ مبادئها، وفي الهرب من يد الحُكام؛ فلديها أحيانًا ألبسة رجال البوليس، ولديها خيولٌ تُشبِه خيولهم، وبهذه الأردية يسخرون من البوليس ويُرهبون الناس ويتَّخذونها درعًا يَقِيهم الضبط ثم الزجَّ في السجون، ولها ضلائع أو جواسيس تُخبر الباقي عن العثور على جهاتٍ جديدة يمكن لهم أن يغنموا فيها شيئًا.

ولهذه الجماعات مراكز إدارة يعقدون فيه جلساتهم؛ فإذا ما اعتزموا على شيء في ليلةٍ ما، بثُّوا رُسُلهم ونشروا جواسيسهم، وعيَّنوا رجالًا منهم يقفون في منافذ القرية، ومخارجها ومداخلها، ليقوموا بالحراسة، ثم عيَّنوا آخَرين للعملية الخطرة المَهيبة للسلب والسفك والتعذيب، بعد أن يكونوا قد ضمِنوا عيون الناس ونوم كل القرية الهادئة إلى حياتها الفطرية الطيبة؛ فإذا ما انتهت العملية، ونفَّذوا أغراضهم، واستراحت ضمائرهم — إنْ كانت لهم حقًّا ضمائر — وزَّعوا الأسلاب والغنائم لتُشبِع كل نفس ويتورَّم كل جيب وبطن.

هذه الجماعات الشرِّية المنظَّمة هذا التنظيم الذي رأينا قد تتألَّف من بعض العاطلين الذين لا عمل لهم، أو من بعض سُذَّج مساكين انخرطوا في الجماعة بدافع الإغراء والإيهام، أو من الذين اتَّخذوا السلب والقتل وانتهاك الحُرمات وترميل النساء وتيتيم الأطفال وتخريب البيوت وهدم الأُسر والعائلات، حِرفةً ومهنة لهم يتَّجرون فيها ويرتزقون منها؛ فكما يرتزق المُحامي من مهنته والطبيب من عمله والموظف من وظيفته، كذلك يرتزق هؤلاء المُجرِمون المُحترِفون من الدماء المسفوكة، والأرواح المزهوقة، والأشلاء المُبعثَرة، والأنَّات الصاعدة، والزفرات الحارَّة، والنفوس المصدورة، والعيون المُحترِقة من لهيب الأسى والفجيعة لا من قطرات الدمع الصافية! وهذا الصنف الأخير من المُجرِمين هو الأغلب والأقوى والأجلى خطرًا في هذه الجماعات الإجرامية؛ فإذا تصوَّرنا الحالة الاقتصادية للسواد الغالب في ريفنا، أمكننا بكل سهولة أن نفهم كيف يوجِّه المال هؤلاء المُجرِمين المُحترفين إلى حيث يريد؛ فإذا أردتَ أن تنتقم من خصم لك كبير انتقامًا نهائيًّا لا يعود منه إلى هذا الوجود، فليس عليك إلا أن تضع يدك في جيبك وتدسَّها في يد أحد هؤلاء المُحترِفين، الذين أصبحت عندهم صناعة القتل والسفك وقبض الأرواح سهلةً هيِّنة مُريحة، كما تصبح صناعة الكلام سهلةً للمُحامي المُقتدِر، وصناعة الكتابة سهلةً للكاتب الكبير، وإذا ما وصل المال لليد الأثيمة، ضمِنت رأس خصمك مُنتزعًا من جسمه في راحة يدك، فتفعل بها ما تشاء لك الخصومة!

هذا اللون من الإجرام وذلك الضرب من الشر الخبيث، ونقول خبيثًا لأنه قد يكون هناك شرٌّ طيِّب نافع، هذان اللونان الخَطِران من الإجرام ومن الشر يتفاوتان قوةً وضعفًا؛ فلسنا ننظر إلى السارق كما ننظر إلى القاتل، ولسنا نحكم على صاحب السرقة الكبرى بما نحكم على صاحب السرقة الطفيفة الصغرى، ولسنا ننظر إلى جريمة القتل بنظرٍ واحد؛ فأشدُّ المُجرِمين في رأينا خطرًا وأولاهم بالضرب على الأيدي وبالقِصاص

والعِقاب البالغ أقصى حدود الشدة، هم أولئك الذين اتَّخذوا الإجرام «حِرفة»، واتَّخذوا أرواح الناس وحيواتهم تجارة ومُرتزَقًا، هؤلاء تُشدد عليهم النكير، ونُناشد رجال الحكم والقضاء في مصر ألا تُحركهم نحوهم عاطفةُ شفقة أو رحمة؛ لأنهم جزَّارو البشرية، وهؤلاء هم الذين نُحبُّ أن تتوجَّه إليهم جهود الإصلاحيين والمطهِّرين حقًّا، حتى يبقى للريف هدوءه وطمأنينته، وحتى تعيش مصر في دعة وأمان، وحتى يستريح الناس ويطمئنُّوا على أرواحهم وحيواتهم.

أما حوادث السرقة العديدة في الريف، فلقد يكون الباعث الأقوى على معظمها هو فقر الفلَّاح هذا الفقر المُدقِع الذي عرفناه، والذي لا يتناسب مُطلَقًا مع الغنى الواسع العريض لأصحاب الثروات والقصور والضِّياع. وقد يكون العامل النفساني عامل الأسى والنقمة والحسد والغضب والألم لتلك الظروف القاهرة التي جعلت غيره يتوسَّد الحرير، وجعلته هو يفترش المَدر والحصى، وجعلته يقضي طوال حياته في الكدِّ والشقاء واستدرار الثروة لأصحاب الأرض، وجعلت غيره هانئًا مُطمئنًّا إلى حياته الرغيدة الرافهة، وثروته العريضة الواسعة التي قد يكون لم يدفع من ثمنها دانقًا أو سحتوتًا، بل ورثها بقيَّة من بقايا «عصر الإقطاع»، عصر المَثل الأعلى في التعسُّف والاستبداد واستلاب الحقوق والعبث بالناس وبحيواتهم، هذا العصر الذي كاد أن ينقضيَ من أوروبا وتندثر معالمه، ولكن لم يستحِ أن يظهر في مصر حتى في القرن التاسع عشر؛ قرن العلم والاختراع! فإذا أضَفنا إلى كل هذا سوء سياسة الحُكام ومعاملة المُلاك له، تكشَّف لنا بعض التعليل الحق لحوادث السرقات العديدة التي يقوم بها؛ فهو يريد أن يعيش كما يعيش الناس، وبما أن أُولي الأمر حرموه أن يعيش عيشًا كريمًا شريفًا، عيش إنسان حُر يشعر بأن له حقًّا في الوجود ونصيبًا في الحياة، فقد بحث عن طريقٍ آخَر ليعيش، ولو أنه طريقٌ مُعوجٌّ إلا أنه طريق إلى الحياة، والحياة ثمينةٌ عزيزة!

ماذا يفعل ذلك الفلَّاح الذي يأتي عليه الليل فلا يجد لأولاده ما يقدِّمه لهم من العَشاء، وقد رآهم يتضوَّرون من الجوع ويشكون برح الفقر ومرارة الأسى، وهم لا يزالون بعدُ في سن الطراءة والرخاوة، ولم تعرف بعدُ عيونُهم معنى البكاء أو الدمع، وهو يعرف أن هؤلاء الأطفال الصغار أمانة في عنقه، بل فِلذة من كبده، وقطعة من نفسه، وأنه مسئول عن حياتهم أمام الله وأمام ضميره. ماذا يعمل هذا المسكين إذا سمع أنَّاتهم الموجعة، ونفثات صدورهم المكلومة، ورأى قطرات الدمع تسحُّ على خدودهم النضرة عصارةً لقلوبٍ آسية ونفوسٍ مُتألمة تطلب العيش وتستجدي الحياة؟ ماذا يعمل

هذا المسكين وقد عزَّ عليه الطريق الشريف إلى العيش، وقد شحَّ عليه إخوانه، وضنَّ عليه الصديق، وتنكَّر له الزمن، وكسر المالك خاطره، وصدع قلبه، وضيَّق عليه الخناق؟ ليس لديه إذن ليعيش وليعيش أبناؤه الصغار إلا ذلك الطريق المُعوج وتلك الوسيلة الدنيئة الساقطة؛ السرقة.

وماذا يعمل ذلك الأب الذي أتى عليه العيد وألحَّ عليه أولاده الصغار في شراء ملابس جديدة لهم يتزيَّنون بها، وهم في هذه السن المرِحة اللاهية بين إخوانهم ورفاقهم؛ حتى لا يُطأطئوا رءوسهم ذلةً وانكسارًا إذا وقعت عيونهم على إخوانهم في القرية من الأطفال وهم يلبسون جلاليبهم الجديدة البيضاء والحمراء، ويَجرون ويلعبون؟

ثم أرجو أن تتصوَّر معي أيها القارئ الكريم استعداد أطفال القُرى، بل شبابها ورجالها ونسائها إلى العيد، وتصوَّرْ معي أنه يومُهم الأكبر الفرد، يوم راحتهم الوحيد من عناء العمل، ويوم يجتمع الأب والأم وحوالَيهما هؤلاء الأطفال والأبناء الأعزَّاء، وقد يعزُّ عليهم مثل هذا الاجتماع العائلي المقدَّس السعيد في الأيام الأُخَر.

ثم تصوَّرْ معي أنهم يحسبون له الأشهُر والأيَّام ليخرجوا من ديارهم في ثيابٍ جديدة وعلى وجوههم ابتسامة البِشر والتحية للعيد. وإذا فرَغت من هذا التصور ورسم هذه الصور في ذهنك وخيالك، عُدْ معي ثانيًا وتصوَّرْ أطفالًا صغارًا لم يعرفوا بعدُ معنًى للألم، ولم يتذوَّقوا بعدُ طعمًا للشقاء، وخرجوا صحيفةً بيضاء إلى الوجود تجهل ما في الكون من ألم، وما في الحياة من ضنك، وما للآباء من مسئوليات وواجبات، وما يتحمَّلون في سبيل أبنائهم من ضنك العيش وفداحة الأعباء، تصوَّرْ هؤلاء الصغار يأتون إلى أبيهم المسكين الفقير باكين شاكين لأن العيد قد أوشك أن يأتي ولم يُحضِر لهم بعدُ ثيابًا جديدة، مع أن غيرهم من رفاقهم الأطفال قد ابتاع لهم آباؤهم من السوق ما سيخرجون به يومَ العيد مرفوعي الرءوس فَرِحين مَرِحين، ثم تصوَّرْ معي أن هذا الأب الفقير ليس عنده في داره ما يأكله يوم العيد، فضلًا عما يريد أن يشتريَ به لأولاده ما يكسو جسومهم العارية، ويُرضي قلوبهم الباكية، ونفوسهم الشاكية!

من القسوة كل القسوة أن نَحكم على هذا الصنف من الناس ونحن مُستمسِكون بمبادئ الفضيلة والصدق والأمانة والشرف وما إليها جميعًا، ومن القسوة كل القسوة، بل من البُعد عن الحق وعن العدالة كل البُعد أن نكون قُضاةً بعيدين عن الحياة وعن المجتمع وعن البشر، جاهلين الظروف والعوامل والنواميس السِّرية المختلفة الغامضة التي تقود الناس إلى أعمالهم، واللصوص إلى سرقاتهم، مُضطرِّين كارهين، وإذا تجرَّد

القُضاة وهم على كراسي القضاء من مبادئ الواقع والحياة وطبيعة الوجود، وتقدير نفسيات الناس وظروف الأحوال، وتصوير أن الناس ناسٌ لا ملائكة ولا آلهة، ثم استمسك القاضي بمبادئ الخيال ونظريات الفضيلة والعلماء والفلاسفة، وحبس نفسه عند نصوص القانون ومختلف الكتب والمَراجع، لم يَسلَم حكمه من البُعد عن الحق وعن العدالة وعن الروح الإنساني!

لسنا بذلك القول نشجِّع ونُذيع مبادئ «المدرسة المكيافيللية»؛ فلقد نكون أشدَّ الناس عَداءً لهذه السُّبل الوضيعة من العيش، ولكننا نبحث عن هذه البسيكلوجية الشرِّية في الفلَّاح، ونُحاول جهد استطاعتنا أن نرجعها إلى مصادرها الأولى، ونعثر على تعليلها الحق كما نعتقد وكما نؤمن، ولكننا نُحسُّ ونشعر أن «المبادئ الإنسانية» وناموس الحياة وبسيكلوجية الشِّرير واللص يجب أن يكون لها الاعتبار الأول، فإذا نظرنا إلى حادثة سرقة أو قتل، فقبْل أن ننظر فيهما يجب علينا أولًا أن ننظر إلى «الإنسان» الذي ارتكبهما؛ لأنه يهمُّنا أولًا إصلاح «الإنسان» ودراسته لنتمكَّن من إصلاح الجماعة ودراستها.

ثم ما لنا نستنكر هذه الحوادث من الفلَّاح ونقسو في الحكم عليه، وقد عرفنا جانبًا من حياته ومن ظروفه ومن تربيته ومن أوساطه! أليس الطبيب سارقًا حين يستبيح لنفسه أن يأخذ أجره من المريض وهو يعلم جِدَّ العلم بأنه لا أمل للطب في شفائه؟ أليس التاجر سارقًا حين يستبيح لنفسه أن يكسب في صنف من تِجارته ضِعف وأضعاف ثمنه، وحين يغشُّ في المكاييل والموازين سعيًا وراء الكسب الحرام الدنيء؟ أليس المعلِّم لِصًّا حين يتهاون ويفرِّط في واجبه نحو تلامذته، ثم لا يأنَف ولا يستحي من أن يقبض في آخِر الشهر مرتَّبه كاملًا موفورًا؟ أليس المُحامي لصًّا حين يعرف أن القضية لا شك خاسرة، وأنه بالدفاع فيها إنما ينصُر الباطل على الحق، والكذب على الصدق، والرذائل على الفضائل، والإلحاد على الإيمان، والعُهر على الشرف، ثم لا يأنَف ولا يستحي أن يمتصَّ دماء موكِّله؟ وما الفرق بين الفلَّاح الذي يسرق جاموسة أو بقرة ليعيش، وبين الطبيب أو التاجر أو المُحامي أو المعلِّم الذين يسرقون الرحمة والفضيلة والكمال والأمانة والوفاء؟ وأي السرقتَين أفدح مُصابًا وأضر بالعالم وبالإنسانية؛ الجاموسة أو الأمانة، البقرة أو الفضيلة؟

ألأنَّ الأول سرقته «محسوسة» وسرقة الآخرين «معنوية»، نُسمي الأول لصًّا دنيئًا، ونُسمي الآخَرين أطهارًا بَرَرة؟ ألأنَّ الأول شاء له قدره المنحوس أن يُضبَط تحت يد

القانون، وأن يُزَج في الأقفاص، ولأنَّ الآخرين يهربون من الوقوع في قبضة العدالة، نسمِّي الأول من طِراز السَّفَلة، ونسمِّي الآخَرين من طِراز الشُّرفاء؟

ولكن هكذا أرادت سُنَّة الحياة! وهكذا توزَّعت الألقاب والنعوت على الناس! وهكذا شاءت الأقدار أن يكون بعض من الناس لصوصًا سَفَلة، والبعض الآخَر أطهارًا بَرَرة! إذن فَلْتكن إرادة الحياة، وَلْتكن مشيئة القدر! وَلْنسلك كما يسلك الناس!

وليس لتخفيف هذه الحوادث في ريفنا إلا العمل على تخفيف آلام الفلَّاح وإزالة شِكاياته، وضمان حياة الراحة والرغد والنور له، وتمكينه من أن يعيش حرًّا مطمئنًّا إلى العدالة، شاعرًا بالرحمة وبالحرية وبحقوقه وبواجباته، وقبل كل هذا وذاك تعليمه وتربيته؛ لأنه لا يقوم إصلاح كما نعتقد ونرى بدونهما؛ فلو فعلنا ذلك لاطمأنَّ الفلَّاح إلى عيشه الهادئ، ولعكف على واجباته راضيًا مُستريحًا عن نفسه وعن عمله، ولفهم حقَّه وواجبه ومركزه في العالم ونصيبه في الحياة، ولرأى النور نقيًّا طاهرًا لا دخل ولا ضباب ولا ظلام فيه، ولاشترك معنا في كل عمليات الإصلاح ونواحي الإنتاج والخِصب والخير!

ذكَرنا قبل الآن كلمةً أو صورًا عن الإجرامية الخطرة في فلَّاحنا، وشدَدنا النكير، وناشَدنا رجال القضاء والحكومة ليقضوا القضاء الحاسم على فئة «المُجرِمين المُحترِفين»، أو كما يُسميهم البعض «المُجرِمين العاديين»، وألَّا تأخذهم فيهم شفقة أو رحمة؛ وذلك لسلام العالم وطمأنينة مصر ورخائها وأمنها. وبهذه المناسبة نودُّ أن نقول إن معظم الجرائم في الريف يكون الباعث عليها روح الانتقام، ونحن نعلم أثر وخطورة هذا الروح الفاتك، ونعلم أنه أقوى الغرائز الإنسانية بعد غريزة حفظ النوع، ونعلم تشبُّع كثير من عائلاتنا الريفية ومن الأفراد الفلَّاحين ومن كبار العشائر والأُسَر، نعلم تشبُّعهم وخضوعهم لهذا الروح الانتقامي الفاتك الرهيب، ونعلم أنه لا يزال في ريف مصر بَحريها وصعيدها — وفي الثاني أغلب وأقوى — عامل العصبيَّات المختلفة قويًّا مَكينًا؛ فتكاد لا ترى جناية من الجنايات الريفية يخلو الباعث عليها من «العصبية»، ومن العداء العشيري، ومن الروح الانتقامي وليد الماضي السحيق، ووريث الأحقاد الدفينة والإحَن المحبوسة.

وكنَّا قد سَمِعنا أن الحكومة عيَّنت وألَّفت لجنة المُصلِحين لتُصلِح ما بين العائلات والعشائر والعصبيَّات فيما يحدُث بينهم، قبل أن يُعرَض الأمر على القضاء ليقول فيه كلمته الحاسمة؛ وذلك لتخفيف ويلات الناس وآلامهم، ولحِفظ العائلات والعشائر من أن تتمزَّق وحداتها وتنفصم عُراها، وللتوفير على المُتقاضين من مال ومن جهود ومن

وقت إذا ما احتكموا للقضاء وللعمل جهد المُستطاع، وإلى حدٍّ ما على تصفية النفوس من الإحَن والعداوات القديمة والسخائم الدفينة، وتحل محلَّها الصفاء والود والوفاق والحب، فما لنا لا نرى لهذه اللجنة المزعومة ولهذه اللجان المحلية الفرعية وجودًا محسوسًا ولا صدًى مسموعًا؟ هل قُدِّر علينا طوال حياتنا — حتى في هذا العصر — أن نقضيَ أعمارنا كلها في تأليف لجان، وعمل جمعيات، وانتخاب رؤساء وأعضاء، وتحضير مواد، وتحبير أوراق، وعقد جلسات، ثم نُرهف بآذاننا أو نفتح عيوننا ونُعلي رءوسنا لنسمع عن صدى هذه اللجان والجماعات والجلسات، ولنرى آثارها وأعمالها ومدى خطواتها، فلا نسمع شيئًا ولا نُبصِر أثرًا؟ أنَقْضي أعمارنا عبيد المظاهر والأقوال والخُطب؟

لقد آنَ أن نبحث في طمأنينة الناس، وفي راحتهم الداخلية، وفي العمل على الصفاء والحب بدلًا من الضغن والكره، حتى تتآلف وحداتنا المُتنافرة وتتآزر كُتَل نشاطنا الاجتماعي على خِصب مصر وخيرها وسلامها وحريتها؛ فعسى رجال الحكومة يجدون لهذا الروح الانتقامي في ريفنا، ولهذه العصبيات ولهذه الشرِّية، علاجها ودواءها بدلًا من ضياع جهودهم وأوقاتهم في إلقاء وعود وإعداد خُطَب، وضمان حياة الرغد والرفاهة والطمأنينة لهم وحدهم!

قد يبدو ما أتينا به من الصور حين تحدَّثنا عن النفسية المُجرِمة في الفلَّاح قاسيًا مُنكَرًا، وقد يُتصوَّر للبعض أن هذه الأعمال التي يرتكبها من الوحشية بمكان، ومن الهمجية بحيث تتقزَّز منه النفس، ولكننا نقول لهؤلاء: مهلًا! ورُوَيدًا أيها اللائمون والعُذَّال!

لماذا ننظر إلى الفلَّاح المصري هذه النظرة القاسية، ولماذا نحكم عليه هذا الحكم الذي فيه من القسوة ومن الظلم كثير، ولماذا لا نحكم هذا الحكم وننظر هذه النظرة إلى الغربيين رُسُل النور والحضارة والخير والعدالة والمدنية والعلم والكمال في هذه الأرض؟

قرأت يومًا في جريدة السياسة من منذ سنتَين، لا أذكُر بطريق الجزم، أن ستة آدميِّين بشريِّين لا وحوشًا ولا همجيِّين، ستة أوروبيين مُتحضِّرين، لا أفريقيين أو آسيويين مُتوحشين في بولنده أو تشكسلوفاكيا — لا أتذكَّر — عزَّ عليهم الطعام في هذه الحياة العريضة الواسعة، وضاقت بهم الأرض على رحبها وسعة جنَباتها، فلم يجدوا غذاءهم وطعامهم، ولم يستمرئوا خيرًا من لحم بشريين مثلهم يجري فيهم دماء البشر، وتخفق بينهم قلوبٌ تُحبُّ وتُبغِض، وتميل وتحقد، ككل قلوب البشر؛ ستة من الحضر لا من البدو، من أواسط أوروبا الراقية المُتمدنة السيدة الحاكمة المُتألهة، لا من مَجاهل أفريقيا

أو بلاد السنغال أو غابات الصين وأدغال الهند؛ حيث فارَقتها أنوار الحضارة، وعزَّت عليها جميعًا نعمة التعليم؛ هؤلاء الستة البِيض لا السُّود ولا الحُمْر اعتدَوا على جماعةٍ أوروبية مِثلهم بِيض أيضًا، وأكلوا لحومهم أحياءً، وتلذَّذوا بذلك اللحم البشري الطريء، وجرى هذا الدم البشري القاني الطاهر البريء حارًّا في دمائهم وفي قلوبهم وبطونهم الغَرثى الظامئة إلى الدم وإلى اللحم. ويا ليت شِعري، هل انتظروا نُضْج هذه الفرائس والضحايا وشواءها، أو هل تعجَّلوها وأبَوا أن يصبروا فالْتَهموها حيةً شاعرة طريئة مخضَّبة بالدم القاني الحي البريء؟ ويا ليت شِعري، بماذا شعروا حين عبثوا بهذه الأرواح المظلومة الحُرَّة؟ أبِلذَّة الشبع من الجوع والارتواء من الظمأ، أم بتلك اللذة الكبرى التي تُنشيهم وتُسكِرهم؛ لذة انتصار المدنية الأوروبية على البربرية الآسيوية أو الأفريقية؟

هذه «الكانيبالزم» الأوروبية، نحمد الله على أنها قد ظهرت في أجلى صورها وأبيَن مظاهرها في أواسط أوروبا المتحضِّرة، لا في مَجاهل أفريقيا المتوحِّشة، أو أدغال آسيا البربرية كما يزعمون. ونحمد الله كل الحمد على أنها اختارت لظهورها على الناس القرن العشرين قرن الحضارة الذهبية والمدنية السامية الراقية، أو قرن النور والعِرفان كما يقولون. ونحمد الله أيضًا على أنها اتَّخذت مسرحها ومشهدها في الغرب الراقي المتمدِّن، وبين الإنسان الكامل العالمي لا في الشرق المنحطِّ المتوحِّش، وبين الإنسان الجاهل الساقط كما يُرغُون ويُزبِدون!

ونحن لا نذكُرها هنا إلا لتسجيلها عليهم دون أن نُعلق عليها أو نبنيَ عليها أحكامًا، ونكتفي بأن نقول لهم وبخاصة لـ «رديارد كبلنج» شاعر الإمبراطورية البريطانية، صاحب القول المأثور الخالد: «الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيَا.» ونقول لهذا الشاعر الكبير ولأصحابنا الغربيين الذين يتبعون قوله:

تلك دالَّتُكم علينا، وهذا وِسامنا الشريف نُعلقه في فَخار وفي كبرياء وتِيه على صدورنا الكبيرة الشريفة؛ ليدحضَا فِريتكم الباطلة وكذبتكم الشَّنعاء.

وليطامنا من رءوسكم التي تركبونها عُتوًّا وصلَفًا، ونقول لهم أخيرًا: لسنا وحوشًا ولسنا «كانيباليين» نأكل لحم البشر طريًّا، ونشرب دمه جاريًا!

نريد الآن أن نفيَ بوعدنا حيالَ القارئ الكريم حين تحدَّثنا عن هذا الصنف من السعادة الذي يشعر به الفلَّاح المصري في أطواء نفسه وفي خبايا قلبه، رغم ما يُلاقي في حياته من نكد وعنَت وفقر وشقاء وحِرمان وجَور واعتساف وعناء في عمله الطويل

الشاق، ورغم بُعْده عن حياة اللهو والحضر والنور، واعتكافه في داره وفي حقله وفي قريته الهادئة المُنعزلة عن صخب الوجود وكفاح العالم وتطوُّرات الحياة.

لا يُمكِننا ونحن نأخذ على أنفُسنا القيام بالحديث عن هذا الفلَّاح المسكين، عن هذا السيِّد الحق لمصر، وبتصوير حياته ونفسيته في دائرة معلوماتنا واستطاعتنا، لا يُمكِننا ونحن نقدِّمه للبيئات المدنية المصرية والعالمية والشرقية بخاصة، لنخلق بذلك روابط الاتصال بينه وبينها حتى تزداد حياة مصر خِصبًا ونورًا وإنتاجًا وقوة، وحتى يفهم هذا الصنف المسكين من الإنسان حق الفهم، فيأخذ مجلسه الحق، وينال نصيبه العادل من «حقوق الإنسان» المكفولة الخالدة.

نقول لا يُمكِننا ونحن نقوم بهذا الواجب الذي أخذنا أنفُسنا به إرضاءً للحق وحده، واتباعًا لنداء الضمير الباطني العادل المُنصِف، وشعورًا بالمبادئ «الإنسانية» الطاهرة النزيهة الطيبة، إلا أن نُلِمَّ بناحيةٍ هامة من نواحي عالمه الباطني حتى تَكمُل الصورة بعض الكمال، وتقرُب من الحق ومن العدالة.

وهذا الصنف من السعادة الذي نزعمه لفلَّاحنا، والذي هو العِلَّة الحقَّة في رضائه عن حياته النَّكِدة، وعن عيشه النَّغِص المُظلِم، وفي سَلْواه وعزائه وهدوئه وراحة سِره «كما يقولون»؛ هو في اعتقادنا «نعيم الجهالة» الذي نُحبُّ أن نختتم به هذا الفصل!

لا يزال الناس جميعًا يختلفون في أوجُه السعادات، ويتضاربون في آرائهم عن معنى «السعادة»، وسيبقى هذا الاختلاف وهذا التضارب ما بقيَ الإنسان على هذه الأرض. ومما لا شك فيه أن لكل إنسان سعادتَه الخاصة به المتَّفِقة مع تكوينه النفسي وعالمه الباطني ومزاجه الذاتي وثقافته، ومما لا شك فيه أيضًا أن بُغْية كل إنسان في حياته إنما هي الحصول على السعادة التي يطمح إليها، وتلك هي طبيعة الإرادة الإنسانية كما يقول «بوسويه»، وهذا هو الباعث لكل الناس على العمل، حتى الذين يسعَون إلى الموت كما يقول «باسكال»!

وإذا كان معنى السعادة الحق يكاد يكون كالطائر الشارد، وإذا كانت السعادات كلها على اختلاف صُنوفها وتبايُن ألوانها لا يمكن أن نعرِّفها تعريفًا ثابتًا مرسومًا، أو نُشير بأصابعنا وبأقلامنا عليها في خرائط موضوعة، أو نحصر تعاريفها ونُحددها ونحفظها كما نعمل في القواعد الرياضية والقوانين الطبيعية.

وإذا كانت «السعادة» هذا اللفظ المُبهَم، وهذا المعنى الغامض المَرِن، قد تزورنا بين حين وحين بدون أن نشعر بها أو نُحسَّ بوجودها بيننا كما يقول «الأستاذ العقاد»، وإذا كانت السعادة كما نراها نحن هي عدم التفكير في السعادة، أو هي «راحة السر»

كما يقولون، فماذا تكون سعادة الفلَّاح؛ هذا الصنف من الإنسان المُنعزل عن العالم الصاخب والوجود المُكافح الحي؟

لا يُمكِننا مُطلَقًا أن نجرِّد فلَّاحنا المسكين من الشعور بصنف من صنوف السعادة، ولا يُمكِننا مُطلَقًا أن نُنكِر عليه سُوَيعاتٍ يجلس فيها إلى نفسه مطمئنًّا مُستريحًا، وقد جرَّد نفسه الظاهرة من العالم الخارجي ومن شهوات الحياة ومطامع الوجود، فعكف على نفسه ليعيش فيها ويستسلم للهدوء المُطلَق أو للفناء الحي؛ إذن فلِفلَّاحنا صنف من السعادة ولون من النعيم رغم عيشه عيشةً لا تليق بكائنٍ يحمل شارة النُّبل للمعنى النبيل السامي؛ «الإنسان».

في تلك القرية الهادئة الساذجة الحالمة في المستقبل الغامض المُريب، الخائفة من الغد المُبهَم المضبَّب، المتبرِّمة بعَسْف الحاضر وبمرارته وبصنوف شقائه وقسوته، الباكية على الماضي الدابر وعلى عهود الطفولة الناضرة، وجلالة القِدم المَهيبة وقت أن كانت الطبيعة لا تزال بِكرًا في غضارة شبابها وفي فتوَّة قوتها، وفي بَهر سِحرها وجمالها وفِتنتها، وفي تلك الحقول الخضراء المُترَعة بالخِصب وبالخير، والتي شهدت طفولة التاريخ الإنساني وشبابه وكهولته، ولم يَمحُ جمالَها وجلالها غدرُ الزمن، ولم يُضعِف من قوتها قسوةُ القدر، في تلك الحقول الشاعرة الساكرة المردِّدة أغانيَ الحب وتسبيحات القداسة الدينية، وتحت تلك الشمس الطيِّبة الخيِّرة باعثة الدفء والحرارة والنور للعالم جميعًا؛ شمس الريف المُحسنة الفاتنة الجميلة، وفي غيبوبة هذه الجهالة النائمة المُهيمِنة على ريفنا وفلَّاحنا هيمنة القوة والسلطان، وفي هذا الاستسلام المُطلَق لعسف السيِّد المالك وبطش الحاكم، والخنوع والخوف والجبن والضعف واليأس والشقاء؛ في كل هذا جميعًا، ورغم كل هذا جميعًا، يعيش فلَّاحنا كالحالم أو كالساخر مُغتبِطًا — شعر أو لم يشعر — بنعيم الجهالة التي يعيش فيها، فماذا يعنيه إذا كان العالم الفُلاني أثبت هذه الحقيقة ووصل إلى هذا الاكتشاف الجديد الذي ستتطوَّر من أجله توجُّهات العلماء، أو أن النبات يشعر كما يشعر الإنسان بل أكثر منه، أو أنه يُعاني الحالات النفسية كما يُعانيها الإنسان، وكما يقول السير جاجاديس بوز العالم النباتي الهندي الكبير، أو ماذا يعنيه هو أن يعرف وأن يقول مع القائلين بأن الأرض كُروية أو مُتحركة، فهل يحتاج إلا إلى قطعة منها يسعد بها في حياته، وإلى حفرة يُدفَن فيها بعد مماته كما يقول «جوت»؟

لِيَكُن البُعد بين الأرض والقمر ما يكون، وَلْتكن الأرض أو الشمس هي المُتحركة، وَلْيكن كل الكائنات الحية من أصلٍ واحد ثم تفرَّعت، أو من عدة أصول، أو أن القرد

والإنسان من أصلٍ واحد أو لم يكونا، وَلْيكن الدين يختلف مع العلم أو لم يختلف، وَلْتكن الأرواح خالدة أو فانية، وَلْيكن مُناجاة الأرواح حقيقة أو كذبًا، وَلْيكن لنا عقلٌ واحد أو عدة عقول، وَلْيكن العالم سائرًا إلى الأحسن أو إلى الأسوأ، وَلْيكن تفكير العلماء في ماهية السبرمان أو الإنسان الكامل، ولْيفكروا كما يشاءون في إصلاح النسل أو ما يُسمونه بـ «اليوجنية»، ولْيفكر الاقتصاديون في البحث عن تنويع الثروات وازديادها، والاجتماعيون في البحث عن إصلاح المجتمع الإنساني من الانتكاس الذي يعيش فيه، ورجال السياسة في البحث عن تقليل الحروب وربط العالم جميعًا بميثاق السِّلم وتخفيف ويلات الشعوب، ولْيخترع المُخترعون ما يشاءون من اختراع إنسان ميكانيكي يتكلم ويتحرك كما يريد، ومن اختراع طريقة علمية لتجديد الشباب أو أخرى لإطالة الحياة، ولْيبحث الباحثون في عُمْر الإنسانية كما يشاءون، وفي علاقة هذا الشعب بذلك، وهذه اللغة بتلك، وأخيرًا ليُفكر الفلاسفة كما يُفكرون، ولْيبحث علماء الاجتماع والطبيعة والجغرافيا والتاريخ وفقه اللغات وعلماء الشعوب كما يشاءون، وليَسِر نظام الوجود كما يسير، ولْتكن هناك «حقيقة» سنصل إليها يومًا أو لم تكن.

فكل هذا لا يُجْديه نفعًا ولا يؤثر في حياته النفسية الهادئة المطمئنَّة الراضية بجهالتها، القانعة بالبعد عن حياة التفكير والعلم، هل هو يأكل ويشرب؟ نعم! هل هو يتحصَّل على جلبابٍ يستر به جسمه؟ نعم. فلماذا إذن يُكدُّ عقله في التفكير، وخياله في المطامح، وهو يؤمن بأن حاله لن تتغير عمَّا هي عليه، ويؤمن بألا جدوى ولا غَناء من تعلُّل النفس بالآمال والأحلام والخيالات، ويؤمن أيضًا إيمانًا مَكينًا قويًّا بأن العلم لن يغيِّر حياته ولا نظام عيشه، ولن يُفيده قليلًا ولا كثيرًا، بل على النقيض ربما يُضعِف من إيمانه، ويزيد من شكوكه، ويجعله حائرًا مُضطربًا مُذبذبًا بينه وبين نفسه، فهل كان العالم سيبطل عن الحركة، وهل كانت الإنسانية ستقف عن سيرها، وهل كان الإنسان سيغيب في الثرى، وهل كانت القيامة تقوم، واليوم الآخِر يُعلَن، ورواية الحياة تُسدِل أستارها على الناس وعلى الوجود، لو لم تكُن الكُتب في المكاتب، ولو لم يكُن المعلِّم في الصدور وفي الرءوس وفي المدارس وفي الجامعات، ولو لم يكُن هناك علماء أو فلاسفة؟ ماذا كان يكون مصير العالم والإنسان لو لم تكُن كُتُب أو علوم أو مدارس؟ أليس الناس كانوا يعيشون في عصور ما قبل التاريخ وفي عصورنا هذه قبل نعمة الكُتب ورسالة العلم؟

وماذا يَنقُص هذا الفلَّاح الجاهل من أسباب السعادة التي يستمتع بها بعض الناس الذين نالوا نصيبًا كبيرًا من التعليم والتثقيف؟ أليس يجد لُقمةً يتبلَّغ بها وتُعِينه على

العمل في نهاره، وجُرعةً يُذهِب بها ظمأه، وقطعةً من القماش يتدثَّر بها ويستر بها نفسه؟ أليس له أب أو أم أو إخوة أو زوجة أو أبناء يجلس إليهم حين يَفرغ من عمله ويُبادلهم الحب والحديث والبر والصفاء، ويجد لديهم حسن السَّلوى عن عنائه وكفاحه وفقره؟ وماذا يريد هو من المال أو من المجد وهو لا يطمع في أكثر من الحصول على قوته وقوت أولاده، وعلى ضمان راحتهم وتخفيف آلامهم، وعلى أن يخرج المحصول مُرضيًا يمكنه من سداد إيجاره للمالك أو ديونه للدائن، أو من سداد المصاريف التي بَذلها وأنفقها عليه في أوقات الغِراس والبَذر؟ هل هو يطمع في سعادةٍ أكثر من الجلوس إلى جماعة من إخوانه وأصدقائه على قارعة طريق، أو ضفة نهر، أو شاطئ بحر، أو على مصطبة، أو في «مندرة»، أو على «جُرن» الغِلال، أو في حانوت القرية، يتبادلون الأحاديث المختلفة حول المحاصيل الزراعية، وحول صنوف الوباء و«النداوي» التي تلحق بالزرع، وبخاصةٍ القطن؟

أليس عقله نقيًّا طاهرًا أجوف من اضطراب العلم وتذبذُب التفكير، غارقًا مُنغمسًا بكلياته وجزئياته في بحر الجهالة الواسع الهادئ الحالم المطمئنِّ إلى مصيره؟ أليس يعتقد أن العالم والجاهل معًا سيتقابلان في الآخرة، وسيتساويان معًا في مرتبةٍ واحدة، وسيكون الكبير كالصغير، والعظيم كالحقير، والغني كالفقير، فلن يأخذ العالم معه في قبره أكثر مما يأخذه صاحبه الجاهل معه في لَحْده، ولن يكون شأن العظيم في العالم الأُخروي أحسن حالًا من شأن الحقير، بل يكونون جميعًا كأسنان المشط لا تفاوُت ولا فروق؟

وإذا كانت الشمس تُشرِق من الغرب أو تغرُب في الشرق، أو كانت الحروب خيرًا أو شرًّا، أو كان جحيم الحرية خيرًا من فردوس العبودية أو شرًّا منه، فماذا يعود عليه هو من كل ذلك، وهل سيؤثر على نظام حياته، أو بمعنًى آخَر هل سيؤثر على أسعار القطن وارتفاع السوق؟ ليكُن العالم كله نارًا حامية وحربًا زَبونًا ما دام سينتج من هذا ارتفاع الأسعار في مزروعاته! ليتجادل العلماء كما يشاءون في نظرياتهم، ولْيُفضِ الجدل إلى الكفاح وإلى الحرب، فلن يُغنيَه فتيلًا ولن يشغل من عقله ومن نفسه وقتًا للتفكير في هذا، ما دام مطمئنًّا إلى جهالته وراضيًا بما يعلم في عُزلته النائية ومُصلَّاه الهادئة وقريته الساجية!

في هذه الجهالة السعيدة بطمأنينتها وقناعتها وكفافها، القانعة بما تعرف، الراضية بما هي فيه وبما شاءت لها الأقدار، البعيدة عن صخب الوجود وعن عراك العلم وكفاح

الكتب، يعيش فلَّاحنا المصري عاكفًا على نفسه مُستمتعًا بهذه الراحة الكبرى، راحة السر، وبهدوء الضمير واطمئنان العقل ورضاء النفس، قانعًا بعيشه على كفافه وشظَفه وعُسْره، مؤمنًا مُعتقدًا بتلك الإرادة الإلهية العُليا المقدَّسة التي تدبِّر حياته وتنظِّم مصيره وتختار له مآله، مفوِّضًا أمره ومصيره إليها وحدها تُحدِث به كيف تشاء وما تريد، مُنعزلًا عن العالم وجهوده واضطرابه، وعن العلم ونظرياته وتعقيده وتفكيره وكدِّه وبُحوثه، راضيًا لنفسه بتلك القطعة من الأرض الضيِّقة، يحصر فيها جهوده الجسمية، ويُعالج فيها أعماله المعيشية في هدوء وفي وداعة وفي إيمانٍ قوي مَكين لا دخل فيه ولا ضعف؛ إيمان العبد الضعيف بإلهه القوي العظيم، إيمان الفناء بالبقاء الخالد، والجزء الأصغر بالكل الأعظم!

في هذه الجهالة السعيدة إذن، وفي هذا الكهف المُتعبد الخاشع البعيد عن شهوات الناس ومطامح العباد، يعيش فلَّاحنا سعيدًا بجهالته على الرغم من شظف عيشه وبؤس حاله. وإذا كان العلم سعادة عند بعض الناس، فالجهالة أيضًا سعادة ونعيم عند البعض الآخر، أو بعبارةٍ أخرى إذا كان للعلم سعادته فللجهالة أيضًا نعيمها، وهذه الجهالة كما قلنا هي نعيم فلَّاحنا الذي يشعر به ويستعيض به عن سعادة العلم ونعيم النور! ولعلنا بذلك قد كشفنا إلى حدٍّ ما عن هذا العالم الباطني لفلَّاحنا بحسب ما يتَّفق والحق والواقع، ولعلنا بذلك قد أرضينا ضميرنا الذي لا نعمل إلا بأمره وعلى هُداه!

الفصل الرابع

المرأة في ريفنا

تحدَّثنا في الفصل السابق عن حياة الفلَّاح المصري وعن خُلُقه ونفسيته بما سمحت لنا معرفتنا به، وبما استطعنا أن نُجليَ صورته على وجهها الحق أو القريب من الحق للبيئات المدنية التي تجهله، ونُحبُّ الآن في هذا الفصل أن نتحدث أيضًا عن المرأة الريفية كما تحدَّثنا عن الرجل؛ لأنه إذا ذُكِر الرجل فيجب أن تُذكَر معه المرأة جنبًا لجنب ليتآخى النوعان، ويتآلف الشقيقان.

نظنُّ أن القارئ الكريم قد يكون كوَّن لنفسه الآن رأيًا تصوريًّا في المرأة الريفية المصرية، بعد أن وقف على ناحية من حياة الرجل الريفي المصري وخُلُقه ونفسيته ومركزه الاجتماعي العام؛ وذلك لأنه قد عوَّدتنا الإنسانية وكذلك التاريخ أن نرى تطوُّر المرأة يُلازم دائمًا تطوُّر الرجل، وأن الحكم على الرجل في أي أمَّة من الأمم يَتبَعه حتمًا أو غالبًا الحكم على المرأة حكمًا مُتناسبًا مُتضامنًا مع الحكم الأول، وما دُمْنا إلى الآن قد فَهِمنا بعض الفهم مركز الرجل في القُرى، فليس بعسير علينا إذن أن نفهم بعضَ الفهم أيضًا مركزَ المرأة!

نرى من الواجب علينا قبل أن نبدأ في الحديث عن المرأة في الريف، أن نُسجل لها في هذه البداءة حسنةً هي خير حسناتها، وفخرًا هو خير فَخار في جهادنا النِّسوي؛ ذلك هي أنها خير ساعد لرَجلها وأحسن مُعِين لشريكها، كأنها تفهم حق الفهم مركز المرأة بإزاء الرجل، وواجبات الزوج حيال زوجها، وكأنها تقدِّر حق التقدير معنى الشركة الزوجية، ومعنى التعاقُد الروحي الذي هو خير ما نريده نحن أنصارَ المرأة.

المرأة القروية على جانبٍ كبير من النشاط الحي العملي، ومن الوفاء لزوجها ومشاركتها إيَّاه في عمله مشاركةً فعلية؛ فهي تخرج معه سافرة الوجه أمام كل الرجال، لا تتحرَّج ولا تتقنَّع بقناع قد يحجُب وجهها وقد لا يحجُب سوءتها، تخرج معه إلى

الغيط أو إلى الحقل وتسحب معه مواشيَه وحميره وأغنامه، ترعاها في الحقول والمراعي، وتسقيها من التُّرع، وتقوم بأكلها وبحاجاتها جميعًا، تقف بجانبه في الغيط تُساعده في عمله، وقد تحمل الفأس مِثله وتَفلَح بها الأرض أيام الغِراس، وقد تسهر بجانبه ليلًا وتكشف عن ساقَيها وتُشمر عن سواعدها وتروي الأرض، وقد تُمسك هي المِحراث بجَلَد كريم وصبر جميل، أو تحمل الردم والسباخ مع الرجل، تجلس على النورج أيام الدراس ولا تخشى على نفسها هجير الحَر وقت الظهيرة، ولا تُشفِق على وجهها السافر من أن تَلفحه الشمس أو يسفعه التراب، وعند الحصاد تراها خير مُعِين لزوجها، وأحيانًا تجدها موفَّقة عليه في عمله وأشدَّ منه نشاطًا وتوفيقًا؛ ففي أيام جني القطن، وهو موسم الفلَّاح، تجدها جنبًا لجنب معه، مشمِّرةً عن ملابسها، يجري النشاط في دمها فيزيدها نُضرةً وجمالًا تحت الشمس المُحرِقة، لا تكلُّ عن العمل، ولا تتبرَّم من الكد، ولا تشكو من التعب، ولا تتأذَّى من الشمس ولا من الشوك المبثوث وسط الزرع بكثرة.

في كل هذه المواقف من العمل ترى المرأة جنبًا لجنب مع الرجل، سافرةً كاشفة عن وجهها لكل رجل في الغيط أو في الطُّرق العامة أو في دارها؛ فهي لا تعرف للقناع أو للحجاب سبيلًا أو حاجةً، فقناعها هو عفافها، وحجابها هو شرفها، هو ثقتها بنفسها وإيمانها بطُهْرها، ثقةً تُهيمن على كل ملَكاتها، وإيمانًا يتغلغل في كل أعضائها. وماذا يُجدي القناع للمقنَّعات إذا كان وراءه نفسٌ تلعب بها الأهواء المُنكَرة الخبيثة، ووجهٌ تُحملق فيه عينان برَّاقتان حائرتان يكشفان عن غرضٍ سافل، وينمَّان عن هوًى مُجرِم، ويُترجمان عن عُهرٍ مكتوم واستعدادٍ محبوس للشهوات الوضيعة؟ لماذا تلجأ إلى ذلك القناع وهي ترى في نفسها قدرةً كافية لأن تجلس مع الرجل وتُحادثه وتُعامله وتُسايره مُحتفظةً بجمالها وبعفافها وبشرفها، مُعتبرةً إيَّاه أخاها لا خصمها؟ لا نحسب إلا أن القناع على النقيض يزيد في الإغراء وفي الفتنة، ويُساعد على التهتُّك وعلى الفساد الخُلقي وعلى الغواية. ولقد أذكُر هنا قول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى: «من ألزمِ لوازم الحجاب أنه يهيِّئ الذهن في الرجال والنساء معًا لتخيُّل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت.» وقال أيضًا: «لا ريب في أن استلفات الذهن إلى اختلاف الصنف من أشد العوامل في إثارة الشهوة.»

وكل هذا متَّفِق وطبيعةَ الناس وبديهة العقل والمنطق؛ فكلَّما اعتَدْنا على شيء أَلِفْناه وأصبح لدينا أمرًا عاديًّا، لا نأبَه له كثيرًا، وكلما بَعُد عنَّا شيءٌ وحيلَ بيننا وبين معرفته ورؤيته، كلما ازداد لهفنا عليه وتقصِّيه؛ والقناع إذن عاملٌ كبير على جعل المرأة مُغْريةً

للرجل، وقد يُتَّخذ في كثير من الأحيان عند كثير من النساء للغواية وللفتنة وللتجميل، وقد يُتَّخذ ستارًا لبعضهن يرتكبن من ورائه ما تسوِّل لهن نفوسهن، وما يشاء لهنَّ الهوى، بعيدات عن الأنظار وعن الأقاويل، مؤمنات بأنهن في مُنعزَل عن الكاشحين والعُذال وعن الشبهات.

من الاحتقار للشرف أي احتقار، ومن الزِّراية بمعنى العفة أي زراية، أن تكون هذه القطعة السوداء أو البيضاء من القماش أو الحرير الشفَّاف هي ضمان هذا الشرف، وهي الحارس على هذه العفة دون أي اعتبار للوازع الخُلقي ولوحي الضمير وضابط القلب!

إذا كان السُّفور مَدعاة إلى تدهوُر الخلق كما يريد أن يقول بعضُ الجامدين الذين لا يعرفون في الحياة إلا «لا»، فلماذا تكثُر حوادث السطو على الأعراض في المدن عنها في الريف، والنساءُ في الأولى معظمهن، وخصوصًا الطبقة الوسطى، مُتحجبات مُتقنعات بهذا الستار الصفيق، وبهذا «الحارس القوي الأمين»؟

ليس السفور هو الذي يُفسِد الخلق أيها الجامدون، وإنما هو سوء التربية الحقَّة الكاملة الذي يَخرق كلَّ حجاب، ويفتح على المرأة كلَّ باب من الفساد كما قال بطل الدعوة النسائية المرحوم قاسم أمين.

تخرج المرأة الريفية سافرةً كما قلنا، ومع ذلك لا يحدِّث شابٌّ نفسه أن ينظر إليها نظرةً خبيثة، ولا هي تُقربه منها وتُغْريه وتُبادِله الغمز واللمز تحت ستار شفَّاف بمَعزل عن الأنظار؛ لأن كلًّا منهما يرى في الثاني أخاه كلَّ يوم، فلا حاجة من التغامز والاستشفاف والبحث عن مواضع الجمال وأماكن السحر والفتنة والإغراء، ومع كل هذا جميعًا فليس السفور مُطلَقًا بباعث على الغواية والخضوع لسلطان الجمال؛ فليس أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة كما يقول المرحوم قاسم أمين، بل من أهم أسبابها ما يصدُر عنها من الحركات في أثناء مشيها، وما يبدو من الأفاعيل التي تُرشِد عمَّا في نفسها.

وكم نأمل نحن أنصارَ المرأة أن نرى كل نسائنا مِثل المرأة القروية، يُسفِرن عن وجوههن ويمزِّقن الذي يُسمونه حجابًا، ويخرُجن إلى العالم وإلى الأنظار وإلى الحياة ليبعثن في الجو المصري القوةَ والحركة والنور والجمال والخير، وليُعطِّرنه بوُرود الحق وأزاهير القداسة والجمال والسحر والفتنة. لقد حان الحين بأن نعيش في صراحة وشجاعة وفي نورٍ بعد أن سئمنا وعِفْنا العيش في الغموض والجبن والظلام! نريد أن

تخرج المرأة المصرية من مَحبسها المُظلِم وعالمها الضيِّق إلى الفضاء الواسع الحر؛ لتعرف مركزها، وتُقدر واجباتها، وتعمل مع الرجل في إسعاده وهناءته ومشاطرته البؤس والنُّعمى على السواء، وتُشاركه في العمل على خدمة البلاد وعلى سعادة الإنسانية جميعًا، وتأخذ نصيبها معه من الواجب حيال الإصلاح الوطني والبعث القومي. نريد أن تدخل ميدان العمل والإنتاج متسلِّحةً بمواهبها النسوية الراقية، وبقدرتها على تجميل الوجود للرجل، وعلى بعث القوة والنشاط في نواحي العمل والإنتاج المختلفة. نريد أن نُحسَّ بأثر «رسالة المرأة» في الرجل وفي الحياة، وأن نخضع لإلهام المرأة ونعمل بوحيها! كم نتمنَّى ونأمل أن نرى منَّا نساءً يبعثن بإلهامهن وبجمالهن وبسِرِّهن عظَمَةَ العُظماء وفلسفة الفلاسفة وأدب الأدباء واختراع المُخترِعين، ويخلقن بهذا الإلهام العالي وبهذا الإيحاء القدسي ما خلقت نساء أوروبا وأمريكا من أمثال «ماركوني»، الذي لم يخترع تليفونه اللاسلكي إلا حينما أقعدته كلُّ السُّبل عن الاتصال بحبيبته، ففكَّر في خلق هذا التليفون اللاسلكي الماركوني ليُرضيَ به حاجة نفسه من حبيبته، قبل أن يفكِّر أن يُرضيَ به حاجة الإنسانية جميعًا من نفعه واستخدامه! نريد إذن أن يبرُز نساؤنا إلى الوجود الحي، ويقُمْن برسالتهن الكبرى، ويتولَّين عمليةَ البعث والخلق!

كم هو جميل عندما ترى قُبَيل الغروب جماعات النساء كسِربِ الطيور حاملاتٍ جرَّاتهن من الفَخار في عُجبٍ وتِيه، متوجِّهات إلى التُّرع، متحدِّثاتٍ في طريقهن بأعذب الأحاديث، وأين عذوبة الحديث في خير من النساء؟

تمشي تلك النساء سافرات الوجوه في حشمة وجلال، مُبتسماتٍ في عفَّة وكمال، تتسلَّل أشعة الشمس الذهبية الوردية الغاربة بين سعف النخيل وأوراق الصَّفصاف المتدلِّي لتقعَ على وجوههن النضِرة الجميلة، فتُكسِبها حُمْرة الشمس الوردية جمالًا؛ لتعوِّضها بذلك الجمال عن نضرة النعيم وترَف الغِنى. هذه الوجوه النضِرة الجميلة الناعمة تراها في بساطة جمالها وعفو طبيعتها لا تلجأ إلى مسحوقات الكيميا ولا أصباغ المدنية، بل هي الجمال كما أراد الله أن نُحبَّه ونعشقه فيه، لم تُفسِده يد الإنسان، ولم تُلوثه أصباغ الصناعة، جمال الله لا جمال الإنسان!

ونُحبُّ أن نقول بهذه المناسبة ونقرِّر حقيقةً لا نشكُّ فيها، هي أن المرأة الريفية من جهة «النسائية أو الأنوثة» تختلف كثيرًا عن أختها المدنية؛ فالأنوثة في الثانية أكثر حياةً وقوة، وألَين رخاوةً ونعومةً، وأشد إغراءً وفتنةً وسحرًا؛ وذلك لأنها تُحسِن طُرُق الإغراء والفتنة في حديثها وفي حركتها وفي نظراتها، بخلاف أختها الريفية؛ فإن جمالها ينقصه

«الحيوية»، وتنقصه أيضًا القدرة النسائية على البعث والخلق والإيقاظ، وهي إذا كانت جميلة لا تُحسِن كثيرًا أن تجعل من جمالها سحرًا وفتنةً للقلوب، وغذاءً للعقول، ووحيًا للأفكار، كما قد تفعل جميلات المدن الفاتنات!

سبق أن قلنا إن المرأة الريفية خير شريك للرجل بكل ما تسعه معاني الشركة، ولكن ماذا تعمل غير عملها العملي في الغيط؟

يكاد يكون برنامج عملها اليومي المَنزلي كالآتي: لا تلبث أن تصحوَ من نومها حتى تحتلب جاموستها أو بقرتها وتُزيل ما تحتها، ثم تكنس دارها وتخرج حاملةً جرَّتها لتملأها من التُّرعة، وإن كان لديها فراخ أو ما إليها من بط وإوَز تقدِّم لها طعامها. وإذا لم يحضُر زوجها في الغداء حملت سلَّتها وبها غداؤه وتوجَّهت إليه في الغيط تقدِّمه له. وعند الغروب تخرج كما قلنا إلى التُّرعة تغسل أطباقها أو تملأ جرَّتها، ثم تعود لتطبخ للعشاء إذا كان لديها ما تطبخه، ثم ينقضي النهار ويعود إليها زوجها. وطبعًا إن كان لديها عمل في الغيط مع زوجها تُشاركه فيه.

هذه الأعمال البسيطة أبلَغ حدود البساطة في حياة المرأة المنزلية هي كل ما تعمله المرأة تقريبًا في يومها؛ لأنه من الطبيعي ليس لها منزل كما نفهمه يحتاج إلى التنسيق والعمل الدقيق الطويل. وفي فترات راحتها تجلس إلى جاراتها في الحارة أو في الدار يتبادلن الأحاديث المختلفة، والحديث شُجون كما يقولون؛ فيَذكُرن فلانة التي ستتزوَّج، والأخرى التي طُلِّقت، والثالثة التي أحضر لها زوجها جلابيةً جديدة أو خَلخالًا ثقيل الوزن، والرابعة التي ضربها زوجها ضربًا مبرِّحًا لأنها لم تَبِع شيئًا مما عندها ليشتريَ به دخانًا أو شايًا. وهذه الأحاديث المختلفة لا تخلو دائمًا من نميمة أو اغتياب، وهذه هي أسوأ ظاهرة خُلقية في المرأة الريفية؛ كثيرة الحديث، كثيرة الشجار؛ لأن حدود أعمالها في المنزل قليلة، ودائرتها ضيقة؛ ففي أي شيء تقضي فراغها إذا لم يكن لها عمل في الغيط؟ في الحديث حيث تجوز به المحبوب والمكروه والمألوف وغير المألوف. وهي إذا لم تجد لها عملًا تعمله أخذت تقطع الوقت بهذه الأحاديث الطويلة الفارغة، أو أخذت «تعدِّد» إن كانت محزونة، وتلك تكاد تكون عادةً شاملة في ريفنا كما يقول أستاذي الجليل الدكتور طه حسين!

ظهر لنا إلى الآن أن المرأة الريفية خير ما تكون وفاءً واحترامًا لرَجلها، تُساهمه معه في أعماله العملية، وتأخذ نصيبها معه في السعي حول رزقهم وحياتهم، ولكن ما لون حياتها المنزلية وأعمالها الداخلية التي هي صُلْب واجباتها وأولاها بالعناية والاهتمام؟!

كيف تُدير منزلها، وكيف تَسُوس مملكتها لو صحَّ أن يكون لها مملكة؟ كيف تقوم بتربية أولادها، أو بعبارةٍ أدقَّ وأهم كيف تقوم بوظيفتها الكبرى؟

تعيش المرأة في القرى في منزلها عيشةً مُهمَلةً قَذِرة بأوسع معنًى تتصوَّره من الإهمال والقذارة؛ فهي كما تَعلَم جاهلةٌ جهلًا فاحشًا، فلا نَعجَب كثيرًا إذا رأيناها في منزلها صورةً صادقة من جهلها وغبائها، حتى لو أن نابليون لو كان قد رآها في دارها وحياتها لَأصدرَ مرسومًا رسميًّا بإنكار وإبطال ما قاله عن المرأة، هذا القول الخالد: «المرأة التي تهزُّ المَهد بيمينها، تهزُّ العالم بيسارها.» نعم! كِدنا نيئس نحن أنصارَ المرأة المصرية من النجاح في ناحيتنا النسوية، كلما رأينا العدد الأكبر والغالبية العظمى بل الساحقة من نسائنا على هذا الجانب المُخجِل من الجهل ومن الإهمال، ولكننا نُعلل النفس بالآمال، ولا نريد أن ندع لليأس سبيلًا إلى قلوبنا؛ لأنَّا نؤمن بسُنَّة التطور وبقانون الحياة، ولو أن تحقيق هذه الآمال في ريفنا قد يكون لا يزال بعيدًا مستكِنًّا في بطون الغيب. وبهذه المناسبة نوجِّه إلى القائمات بالنهضة النسوية، وبخاصة إلى الزعيمة الكبيرة السيدة هدى هانم شعراوي، رجاءً مِلؤه محض الإخلاص وحب الإصلاح والنهوض الاجتماعي والتعليمي والأدبي لنسائنا عامةً، أن يوجِّهن جانبًا كبيرًا من عنايتهن وجهودهن المشكورة المحمودة إلى القرى وإلى الريف المصري؛ فهناك يَجثم الخطر الوبيل على تقدُّمنا، وهناك يَربِض الداء الكمين الذي يهدِّد نهضتنا ويعوقها عن الإزهار والنمو!

حَمِدنا للمرأة الريفية مشاركتها للرجل في أعماله الخارجية، وأُعجِبنا بنشاطها ووفائها له أبلغ حدود الإعجاب، ولكن لا يمكننا أن ننسى أو نغفل أن تلك الطاقة الجميلة من الزَّهر يتخلَّل وُرودَها وأزهارها السمُّ والشوك!

تصوِّري معي أيتها القارئة وأيها القارئ امرأةً لا تزال يدها ملوَّثة بأوحال البهائم والمواشي، ثم تضنُّ عليها بالغسيل من الكسل أو من قلة الماء، ولا تأنف أن تشرع مع كل ذلك في عجين خبزها أو عمل جبنها أو حليب لبنها. تصوَّروا امرأةً قلَّما تعرف أن تَحُوك جلابيتها، أو أن تغسلها غسيلًا ترتاح إليه العين وتميل إليه النفس. تصوَّروا امرأةً لا تفهم عن سياسة دارها وتدبيرها أكثر مما تفهم من زريبة مواشيها. تصوَّروا امرأةً لا تعرف كيف تكون أمًّا مطلقًا بكل ما تسعه هذه اللفظة الكريمة المقدَّسة، تترك أطفالها في فسحة الدار أو في الحارة يعبثون ويتمرَّغون في التراب وعلى الأكوام، حيث هناك مَجمع قاذورات القرية وأوحالها من دُورها المختلفة. ولقد تُلقي الأم طفلها أحيانًا في القاعة أو

في فسحة الدار ينتحب من البكاء والعويل، وتقفز عليه الكتاكيت والبط والفراخ تعبث بعينَيه وتلعب على وجهه، ثم تذهب هي لتقضيَ حاجة لها أو تجلس إلى جماعة من النساء ينَلْن الناس بالحديث والغِيبة، وأما الطفل فلْيَمُت أو فلْيَعِش «وهو وبخته». وكم من الأطفال عندنا كانوا يكونون نابليون أو الإسكندر أو فولتير لو عُنِي بتعليمهم، ولو عُنِيت بهم أمهاتهم في عهود الطفولة، وتعهَّدتهم في هذه السِّن التي يتأثر بها الطفل بما تلقِّنه له وما توجِّهه إليه وتُعامله به أمه؛ فليس من أحد على ما نظنُّ يُنكِر أثر الأم في ابنها، وهذا نابليون يحدِّثنا عن أمه، وعن أنها الأثر الأول والعامل الأقوى في عظمته وفيما صار إليه اسمه وصيته.

ولكن هل ننتظر من أمهاتنا وخصوصًا في الريف ذلك الأثر وهذا الواجب؟

كِدنا نيئس حقًّا أيها القائمات بشئون المرأة، ولو أننا نؤمن بأن لا يأس مع الحياة كما قال المرحوم مصطفى كامل! هنا يَجثم مرضٌ وبيل وداءٌ خطير كما قلنا يهدِّد كِياننا القومي وأُسرتنا وأطفالنا وناشئتنا، نخشى أن يَفتك بمجموعنا ما لم تمتدَّ إليه يد الإصلاح والعلاج؛ فوَجِّهن عنايتكن قبل كل شيء إلى موضع الداء الكمين الخطِر هنا، إلى المرأة القروية التي تحيا حياةً كلها جور وإهمال وجهل وقذارة، نخجل ونبكي عليها ومن أجلها، فيا رجالات مصر ويا أنصار ونصيرات المرأة! عطفًا ولو قليلًا على القرى؛ فهناك يكمُن الداء، وهناك يجثم الخطر وينتشر الوباء؛ تلك وصمةٌ كبيرة في جبين فخارنا القومي لن يرضاها نصيرٌ للمرأة، فاعملوا يا أنصار المرأة على إزالتها لتمزِّقوا صحيفةَ عارٍ وخِزي في سِجلِّ نهوضنا القومي وإصلاحنا الشامل وإحيائنا المصري!

نريد الآن بعد أن كشَفنا عن ناحية من نواحي حياة المرأة الريفية أن نصوِّر تلك الناحية الداخلية البَحتة للمرأة في الريف، وهي الحياة القروية الزوجية.

نظنُّ أنه قد أصبح يسيرًا علينا إلى حدٍّ ما أن نتصوَّر تلك الحياة الداخلية، ما دُمْنا وقَفنا إلى حدٍّ ما أيضًا على حياة الرجل ونفسيَّته ومركز المرأة وحياتها في القرى. وهذه الحياة الداخلية النفسية قد تصحُّ أن تكون المِقياس الذي يُساعدنا على تصوير وفهم الحياة القروية عامةً، وبخاصةٍ الداخلية منها، تصويرًا وفهمًا أقرب إلى الصدق؛ وبهذا يُمكِننا أن نستجمع ونحصِّل فكرةً ما عن هذا الجانب من الحياة المصرية، المجهول أو الغامض لمن لا يعرفه أو لا يريد أن يعرفه.

وإلا فأين توجد حياةٌ أغزر مادةً للكاتب وأوسع دائرةً لخيال المصوِّر وتأمُّلات الفنَّان، من حياةٍ تَجمَع الرجل والمرأة تحت سقف واحد، يعكس كلٌّ منهما على الآخَر

خُلُقه وذهنه ومذاهبه، ويتبادلان الأخذ والعطاء، وحيث تبدو فيها حسنةُ كلٍّ منهما وسوءته بارزةً للناقد، وواضحةً جليَّة لريشة المصوِّر؟

ذكَرنا حين تحدَّثنا عن الرجل في الريف أنه لا يكاد يفقه أو يشعر بمعنى «الحب» الذي قد نفقهه هنا ونشعر به ونقدِّره، ونريد الآن هنا أن نُشرِك المرأة أيضًا في هذه الصفة أو هذه النفسية الشعورية؛ فهي بعيدةٌ كل البُعد عن حياة «الحب»، غريبة عن الشعور به شعورًا ساميًا نبيلًا يُحرك عواطفها بأنبل المشاعر وأسمى المعاني، ويرقِّق خُلُقها، ويهذِّب كائنها، ويملأ وجودها حياةً وقوةً ونورًا، هي كأخيها الرجل لا تفهم من الحب إلا ذلك الضرب الخبيث من الاستغواء الجنسي، وإلا هذا النوع الحيواني من أسفل دركات الحب؛ فهذا القلب الذي يسكن بين جنبَيها لا يخفق بالحب السامي الخالد في نُبْله وفي عليائه، ولا يكون رسولَ رحمة بالناس أو طبيبَ أدواء الرجال، حتى لو استفحل الداء وعَظُم المُصاب.

يقول «جوت» فخر الألمان: «ما قيمة العالم بأسْره في نظر القلب إذا ما خلا من نعمة الحب؟» ولكن المرأة الريفية المصرية بخاصةٍ لا تقوم بوظيفة قلبها الذي مُنِح لها ليَخفق وليَطرب وليُحب؛ ولذلك فقيمة العالم عندها شيءٌ كَلَا شيء، وعدمٌ كوجود. وإذا كانت حياتها هكذا من الجمود الروحي، ومن الموت الشعوري، ومن البلادة في الحس وفي العاطفة، فهل نتصوَّر أن يكون لها حياةٌ روحية بجانب تلك الحياة المادية الكثيفة، تعيش فيها بقلبها ومن أجل قلبها لتُجمل وجودها وتزيد حياتها خِصبًا وإنتاجًا ونورًا؟ وماذا تكون تلك الحياة التي يحياها الناس لو لم تكُن خِصبةً مُنتِجة مُنيرة؟ وكيف لنا أن نصبر على مضض حياة لا نشعر فيها بحب يخفِّف عنَّا آلامَ تلك المرحلة من العمر، ويغذو عواطفنا وميولنا وذهننا، ويخلق عبقريتنا ونبوغنا، ويوقظ خامد شعورنا، ويُنسينا مرارة الزمن وقسوته وهموم العيش ونكده، ويجعلنا نهزأ بالشَّوك ونسخر من الألم ونتلذذ بالعذاب ونستحلي العَلقم والصاب؟ وكيف لنا أن نُعانيَ من هذه الحياة ما نُعاني، ونرضى بنكدها وبظلمها وبشقائها صابرين مُرغَمين، ثم لا نُحسَّ بأن لنا قلوبًا في حاجة إلى أن تخفق وإلى أن تُحبَّ، وخلقها الله لتنموَ وتنهلَ من نَبْع الحب، وتزدهر وتحيا في رياض العشق، فحَجْرنا عليها إنما هو تعطيل لوظيفتها، وجمود وكُفران بنِعَم الخالق الأعظم؟ ومتى كان الحب كفرًا والعشق البريء جريمةً في أسفار الله المقدَّسة وفي شرائع العدالة؟

ولَمن إذن خُلِق نور القمر، وندى الأزهار، وعبير الرياحين، وظلال الشجر، وزقزقة العصافير، ونَوح الحَمام، وغناء البلابل، ورجرجة الماء، ومُداعَبة النسيم؛ إذا لم يكُن للحب، وإذا لم يكُن للأخوَين الحبيبين، الرجل والمرأة؟

إذا لم تكن حياتنا التي نحياها حياة قلوبنا وعواطفنا وشعورنا وأرواحنا، فإنا لنؤثِر أن تُنتزَع منَّا هذه القلوب التي لا تخفق ولا تحب؛ حتى لا نشعر بوجودها بين جنوبنا معطَّلةً خامدة ذليلة أسيرة، وحتى لا نُطأطئ الرأس ذلةً وصغارًا أمام ظلال الشجر ونور القمر ورجرجة الماء!

فلْتؤخَذ منَّا طائعين راضين إن عجَزَت عن القيام بوظيفتها وواجبها؛ فلن نريدها أبدًا لعب الأطفال ولا عرائس الصِّبية، ولن نذرف عليها دمعة!

ونعود الآن إلى موضوعنا، إذا كان هذا هو حياة الرجل والمرأة في الريف من ناحية العواطف والشعور، أو بعبارةٍ أدق من الناحية الروحية، فهل ننتظر ونتصور أن تكون الحياة العائلية الريفية مدعَّمة بالحب، قائمة على التوافق والرضا من ناحية الجنسَين؟ ولكن كيف لنا أن نسأل هذا السؤال وننتظر هذا الجواب ونحن نرى أن معنى «الزواج» في مصر عامةً، وفي القُرى بخاصة، لا يُفهَم منه أكثر من أنه وسيلة، أو بمعنًى أصحَّ مَعمل لتفريخ النَّسل كمعامل الكتاكيت؛ فالزوج أو الزوجة إذا تعطَّلَ هذا المعمل عندهما أو أبطأ في التفريخ والتخريج صبَّا اللعنات على الزواج، واستغاثَا لله وللأولياء وللعرَّافين وللدجَّالين أن ينتظم هذا «المعمل»، وأن يُعاود حركته وإنتاجه، حتى أصبح الحرص على إنتاج هذه «المعامل» شهوةً مُتحكمة مستبدَّة بأمرها لدى الكثير جدًّا من أبناء مصر المُتزوجين، وبخاصةٍ الريفيُّون والريفيات منهم؟

ومن أشدِّ المصائب والنكبات التي تتألب على هذا الفلَّاح أن تجد له ما لا يقلُّ عن خمسة وستة أولاد، وقد يبلغون أحيانًا ثلاثة عشر أو أربعة عشر، ومع ذلك قد لا تجد في بعض الأوقات رغيفًا في داره؛ فإذا حدَّثته بوجوب تحديد النسل بحسب الرأي الطبي جلبًا لمنفعته ودرءًا للشقاء وللبؤس عنه، لوى وجهه عنك، وقد يتَّهمك في دينك أو في عقلك وشعورك!

لا يفهم كثير عن الزواج في مصر إلا أنه وسيلة إلى إشباع الشهوات الجسمية، وإرضاء حاجات البدن والحس، وإلا أنه طريقة من طُرُق الاستثمار والاستغلال والتجارة بالفتيات الطاهرات البريئات من أساليب ومن ظلم وتحكُّم الآباء والأمهات!

ما العلاقة بين المال والقلوب والمستقبَل أيها الآباء المُجرِمون في حقوق أولادكم؟ وما معنى زواج تزيِّفون به ما تُسمونه وثيقة الزواج إفكًا وزورًا دون أن يكون للزوجَين

وحدهما رأي في هذا الزواج؟ وما معنى زواج تُزَف فيه مجهولة إلى مجهول، وتُساق فيه الفتاة البريئة سوقَ الأنعام إلى من تجهله وقد تُبغِضه؟

ومن المُدهِش حقًّا أن تجد الناس هنا في مصر، حتى في الريف، إذا شاءوا أن يشتروا حُزمةً من الفجل أو الكرَّاث، أو أفة من اللحم أو أي صنف مما تعوَّدوا أن يأكلوه أو يشربوه لإشباع بطونهم وتغذية جسومهم، حَرَصوا جِدَّ الحِرص في انتقائه ونقده بين الرفض والقَبول، وتغليب الذوق الفني في الأكل أو في الشرب أخيرًا، ثم أخذوا يُساومون البائع ويُجادلون التاجر ليغلبوه على رأيهم، ولكن إذا شرعوا في الزواج، مسألة المسائل ومشكلة المشاكل ومِفتاح المستقبل الغامض، اندفعوا كالمسعورين أو كالعُميِ الذين لا يُبصِرون، دون أن يحقِّقوا وينقدوا كما كانوا يُحققون وينقدون حين كانوا يبتاعون الفجل أو البقول، فكأنَّ بطونهم أغلى لديهم وأسمى من قلوبهم ومن أرواحهم، وكأن الحاضر لديهم أولى بالعناية من المستقبل، وكأن الزوجة أو الزوج لا يتساويان في السوق مع الكراث أو البطاطس. وا خجلاه، بل وا حسرتاه!

ولقد يحضُرني هنا قول المُصلِح الأول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى، هذا القول المُقتطَع من قلبه والمُنبعِث من روحه، قال رحمه الله: «أرى الواحد من عامة الناس لا يرضى أن يشتريَ خروفًا أو جحشًا قبل أن يراه ويدقِّق النظر في أوصافه، ويكون في أمن من ظهور عيب فيه، وهذا الإنسان العاقل نفسه يُقدِم على الزواج بخفَّة وطيش يَحار أمامهما الفكر.»

وإذا كانت هذه الحال وهذه الفكرة ستدوم، فستشتدُّ أزمة الزواج عندنا تعقيدًا وقحطًا، ما دام هذا الزواج التِّجاري يهدِّد العائلات ويبعث الفساد في البنين والبنات ويقوِّض الأسرة. وكم أُحبُّ هنا أن أذكُر قول «ماكس نوردو» في هذا الموضوع، قال: «متى بطل النظر إلى المصالح المادية في أمر الزواج، وعادت المرأة مُختارةً في ميلها غير مُضطرَّة إلى بيع نفسها، وأصبح الرجال يتنافسون على إحرازِ ودِّها بذواتهم لا بأموالهم ووظائفهم، فحينئذٍ يصبح الزواج حقيقةً نافعة، لا أكذوبةً فاضحة كما نُشاهد في عصرنا هذا، وهنالك تُرفرف روح الطبيعة السامية على الزوجَين، وتُبارَك كل قُبلة من قُبلاتهما، فيُوضَع الولد مَحوطًا بهالةٍ من حب أبوَيه، وتكون هدية يوم ميلاده تلك العافية التي يورثها ذريتَهما زوجان كلاهما مُستجمع من صفات جنسه ما يحبِّب فيه قرينه.»

ونريد الآن بعد هذا أن نتحدَّث عن الزواج في الريف لنُكمِل إلى حدٍّ ما «الصورة الريفية»، ولكن إذا أمكننا أن نقف على «الحب» عند الرجل والمرأة على السواء في ريفنا

حين تحدَّثنا عن هذا قبل الآن، فيُمكِننا بكل يُسْر وسهولة أن نتصوَّر وأن نفهم لونَ الزواج وطريقته في الريف.

فتًى طيب وفتاةٌ بريئة لا يعرفان من أمر بعضهما شيئًا، وقد يكون كلٌّ منهما مجهولًا للآخَر كل الجهل، هذا في الشرق وهذه في الغرب، ثم يسمعان أو لا يسمعان أنهما مخطوبان، وأنهما سيصبحان زوجَين، وسيعيشان معًا تحت سقف واحد، وسيكونان عُضوَي شركة روحية أبدية، وسيصيران رأسَي أسرة.

لماذا كل هذا؟ لأن الآباء أهوَن لديهم طعنة الخنجر وضربة الرَّصاصة التي تصمُّ وتقتل، من أن يعرضوا فتاتهم لخطيبها وشريكها في الحياة وفي المستقبل، الذي هو مِلك لهما وحدهما، حتى يعرف من أمرها ولو بعض الشيء، وتعرف هي منه ولو بعض هذا البعض، ولا يزالون للآن يعدُّون هذا فجورًا دونه أي فجور، وبدعةً ليست بعدها بدعة، أتَت بها عصور المدنية المُتحذلقة المُلحدة الفاجرة، والفتى المسكين يَقبَل هذا مُضطرًّا ليوفِّر على نفسه عناء البحث.

ومن المُدهِش، بل من الاحتقار للعقول وللنهضة الكبرى ولآمال المستقبل ولبناء عهد جديد وإنشاء جيل جديد، من الاحتقار كل الاحتقار لمبدأ الحرية الفردية وللشعور بالذات وبالكرامة، أن تبقى مِثل هذه الفكرة الجامدة التعصبية وليدةَ الماضي المُظلِم، في هذا العصر المُتأهب للحياة في أجواء الحرية والنور والعدالة واحترام الشعور والعمل للمستقبل، من الاحتقار كل الاحتقار لـ «وحي الإصلاح» ورسالة الإحياء والبعث المصري أن تبقى هذه الفكرة سائدة في أجواء الأُسر المصرية، وبخاصةٍ الكبيرة منها، وفات هؤلاء جميعًا أنه لو سِرْنا على هذا النهج طويلًا فسنقضي عاجلًا أو آجلًا على نظام الأسرة، وسنُساعد بذلك على جعل البيوت أديارًا وصوامع للفتَيات الراهبات، أو على جعلها مسارح للَّهو الفاسد والمجون المتَّهَم، وسنُشجع الفِتيان والفتَيات على الزواج، ولكن غير الرسمي، أو بعبارةٍ أدق وأجلى، على قضاء حاجات نفوسهم وقلوبهم التي منعها عنهم الزواج الأسمى المعروف. وفيما نراه الآن أمام أعيُننا كل ساعة ما يزيد في خوفنا وقلقنا على الحياة العائلية المصرية التي نريدها مَنبعًا للسعادة ومصدرًا للنعيم والوفاء والحب! ويظهر لنا أن الآباء والأمهات لم يتَّعظوا إلى الآن بما يحدُث نتيجة هذه الفكرة الجامدة السخيفة في عصرٍ لا يتَّفق مُطلَقًا وكلمةَ الجمود أو الظلام، وأنهم لا يزالون يتجاهلون وينسَون أنه لا يمكن — كثيرًا — لفتًى أو لفتاة يحترم كلٌّ منهما نفسه، ويقدِّر مركزه وآماله ومستقبَله، أن يُقبِلا على زواجٍ أعمى مبني على الخفاء والظلام بدون أن يعرف

ويفهم كلٌّ منهما الآخَر معرفةَ وفهمَ الشريكِ للشريك، ولكننا نؤمن كثيرًا بأن الأيام وبأن المستقبَل وبأن الحياة نفسها ستضطرُّهم جميعًا على العدول عن فكرتهم التي لا تتَّفق والحاضر، وستُرغِمهم على أن يسلكوا الطريق التي يجب أن يسلكها من يفهم الحياة، ومن يُدرك سُنَّة التطوُّر التي تُهيمن على العالم والتاريخ جميعًا!

ولكننا لا نريد أن نترك هذه الفرصة قبل أن نقرِّر هنا حقيقةً نؤمن بها ونحرص على إثباتها في سبيل الحق وحده، وهي أن هذه الفكرة التي تحدَّثنا عنها أثرُ أو جانبُ الجمود فيها أقل في الريف بين الطبقات الصغيرة جدًّا منه بين الأُسر الكبيرة الريفية أو المدنية؛ فلقد قلنا إن الفلَّاح، ونقصد به هنا الصغير جدًّا كما أشرنا إلى ذلك في «المقدمة»، يعمل مع المرأة والفتاة في كل نواحي العمل وهي سافرة؛ أي إنه في زواجه يكون في الغالب قد رأى زوجه، وهذا إذا كانت من قريته أو من عائلته، وإلا فلا يُمكِنه مُطلَقًا أن يراها، ولكن نحن نفترض هنا أنهما ليسَا من قرية أو بلدةٍ واحدة ولا من عائلةٍ واحدة؛ أي نفترض ونتصور الحالة التي فيها حرية اختيار الزوجَين محرَّمةٌ تحريمًا مُطلَقًا؛ فإذا كان حال الزواج هكذا فماذا يبقى إذن من معنى الزواج الذي نفهمه هنا أو الذي نتطلع إليه وننشُده؟

بعد أن يدبِّر الآباء مكيدتهم في كهف الخفاء والظلام، ويعزمون على الاعتداء والعبث بمستقبَل فتاهم أو فتاتهم، وبعد أن ينتهيَا إلى رأيٍ أخير، وبعد جريمة الاعتداء على قلبَين بريئين، بعد كل هذا وأخيرًا يَعلَم الخطيبان بخطوبتهما، فيُقابلان هذا الخبر بصمت ووُجوم، ولكن في أسًى كمين أو حزنٍ دفين، ثم يؤتى بالمأذون المُجرِم الثالث بتلك العمامة الكبيرة التي يغشُّ بها البُسطاء، والتي قد تطوي بين تلافيفها خير ما وصل إليه الناس من لؤم ونصب وكذب وتزوير، يؤتى بذلك المُحتال الذي يوهم الناس بأنه أُرسلَ من عند الله ليُبارك هذا الزواج، فيذكِّرنا بذلك «البابا» الذي أرسل رسوله ليبيع للعباد «صُكوك الغُفران» ودخول الجنَّة الموعودة، ويمحو سيئاتهم ويعفو عن خطيئاتهم، فإذا ما ذكرت هذا المُحتال الكذَّاب وذلك «البابا» النصَّاب، ذكرت قول «روسو»: «ما أكثر الوُسطاء بيني وبين الله!» يؤتى بهذا المأذون ليكتب تلك التي يُسمونها «وثيقة الزواج»، ويوهمون الناس وأنفُسهم أيضًا بأنها عَقدٌ نتج من توافُق الإرادتين ومن رضا الطرفَين المُتعاقدين، قُتِل الإنسان ما أكذَبَه وما أكفَرَه! هل هذه الورقة حقًّا هي صدى شعورهما الحق ومرآة حبهما ومظهر إرادتهما ورضاهما لهذه الحياة الجديدة المليئة بالمسئوليات الجِسام، وبالأعباء الفادحة والواجبات الكبيرة؟ هل هذه القطعة من الورق هي الرباط بين قلبَين

مُتحابَّين ورُوحين مُندمجين، لإعداد عهد جديد وتحقيق آمال كبيرة؟ هل هذه الورقة هي كل ما نفهم من الزواج حتى إذا ما حبرها المأذون وشهد الشهود كان الزواج وصدق العقد، وكان عملًا قانونيًّا مشروعًا صحيحًا ممثِّلًا الإرادتَين حق التمثيل؟ ما هذا العبث بالقلوب البريئة الضعيفة أمام قوة المكر وسطوة الكذب ودولة التغرير والخِداع! ما هذا الاعتداء على أجسامٍ غضَّة طريَّة، وأرواحٍ سابحة حالمة في آمالها وفي مستقبَلها، ونفوسٍ طاهرة كريمة لم تعرف الخُبث والاحتيال، ولم تتعود بعدُ احتمالَ الأذى والصبرَ على المكروه والبلاء، والقوةَ على إساغة الكذب وتجميل النصب؟ وهكذا تُكتَب وثيقة الزواج في معمل الكذب والتزوير، وليس للخطيبَين أي شأن فيها مباشر، ثم يُعلَن للناس ويُذاع أن فلانة خُطِبت إلى فلان، وأن ليلة الزفاف يوم كذا، كأنَّ الأمر جِد لا هزل، وصدق لا كذب، وحقيقة لا تدجيل، وعدالة لا ظلم!

وبهذه المناسبة لا نجد غضاضة في أن نَجْأر برغبةٍ نؤمن بعدالتها وبوجوبها إيمانًا قويًّا مَكينًا لنُصلِح من نظام أسرتنا، بحيث يُساعد على تسهل الزواج وجعله وسيلةً إلى الحب وإلى السعادة، وتلك الرغبة القوية هي أن ننظر إلى الزواج كأنه عقدٌ مدني كأي عقد، ونُتمَّه بكل إجراءات العقود المدنية، فيتم مِثلها بالإيجاب والقبول، وإذن فنستغني عن هذا العدد الوفير من المآذين، ونستغني عن وساطتهم، ونأمن الطُّرق التي يتفنَّنون فيها، والتي ليست من الشرف ولا من الدين الحق في شيء، ونُسهل بذلك عملية الزواج، ونضمن توافُق الإرادتَين ومعرفة الزوجين بعضهما لبعض، ونأمن تعسُّف وتجارة الآباء والأمهات بأبنائهم وبناتهم، وفي هذا خير وأمن وإصلاحٌ كثير!

والآن وبعد كل هذا، نريد أن نُصور في حدود خطتنا التي رسَمناها لأنفُسنا طريقةَ الزواج، أو بعبارةٍ أدق وأصح ليلة الزفاف في الريف عند فلَّاحنا المصري الذي نقصده، والذي نكتب هذه الرسالة في سبيله ومن أجله وحده.

في ليلة الزفاف الموعودة تُزَف العَروس إلى العريس زفافًا لا يخلو من البساطة ومن الجمال الريفي أيضًا، وقبل أن يذهبوا بها إلى دار زوجها يُنقَل عفشها عصرَ يوم الزفاف، إما على جِمال أو على «عربات الكارو»، وحول العفش ومعه تذهب جماعة من أهل العروس وأصدقائها، ويُطلِقون الرَّصاص في الجو إظهارًا لفرحهم وإعلانًا لسرورهم، والنسوة في طول الطريق يغنِّين أغنيات الريف الجميلة في بَداوتها. وبعد ذهاب العفش إلى دار العريس، وبعد الاحتفال به وزفافه، يجيء دور العروس فتملأ دارها بالنساء وبالفتَيات وبالأطفال الذين يركبون كل مَركب خشن إلى الوصول إلى العريس؛ ليرَوها

في زينة زفافها وفي جمال هندامها، ولو يصل بهم الحال إلى تسلُّق الحائط والتطلُّع من ثقوب الباب أو ثغرة في الجدار أو فجوة في السقف، ولكن قد نسيت! قبل يوم «الدخلة» أو ليلة الزفاف هناك ليلةٌ أخرى لها خطرها وجلالها وعظمتها، وهي «ليلة الحنَّة» (الحناء)، حيث يخضِّبون أيدي العروس ورِجلَيها بعد اغتسالها واستحمامها، وهناك في هذه الليلة تجتمع كل فتَيات القرية وأطفالها ليتبرَّكن من حناء العروس، والفتاة الناهد التي زيَّن لها شبابها وصِباها وجمالها أن تفكِّر في الزواج تُنافس أخواتها الأخريات على «قرص» العروس في فخذها، قائلةً لها: «قرصتك في ركبتك، حصلتك في جمعتك.» ظنًّا منها أو أملًا لها بأنها ستصبح قريبًا عروسًا مِثلها؛ حيث تستمتع بشبابها وتحظى برجلها بُغيتها في حياتها، وعندما تُعَد العروس للخروج إلى دار زوجها ووداع دار أبيها التي ترعرعت فيها طفلةً ثم فتاةً وصبيَّةً في أحضان الشباب الناعمة الدافئة، فإما أن تُحمَل على جملٍ يُغطونه بملاءةٍ حمراء في شكل خيمة أو مثلَّث وتجلس هي فيه، ثم يزيِّنون رأس الجمل ورأس المثلَّث ببعض الورود الحمراء إن وُجِدت، ثم بسعف النخيل المُتعالي المُتراوح حول العروس وفوقها، وهي في هذه الحال مع بعض أهلها أو صديقاتها، ثم يخرج وراءها على جِمالٍ أخرى أو عربات — لو وُجِدت، ولو كان أصحاب العُرس ذوي يسار قليلًا — بعضُ نساء القرية وفتَياتها زميلاتها في عهود الشباب المَرِحة اللاهية، ببُلَغهم الصفراء الجديدة، وجلاليبهم السوداء الشفَّافة، ومن تحتها الجلاليب الحمراء أو الصفراء، وقبل أن تخرج العروس من دارها إلى دار زوجها يقف أحد إخوانها أو أقاربها على بابها، ولا يُسلمها لأحدٍ ما حتى يأخذ في يده ما يُسمونه «البلصة»، ولا يُمكِنني وأنا أخطُّ الآن هذه السطور أن أجزم أو أنكر استمرار هذه العادة القديمة في ريفنا، وبين المراتب الدنيا من مراتب فلَّاحنا، ولكني شاهَدتُها بعيني في بعض أفراح هذا الصنف من الفلَّاح الذي أقصده، والذي أذيع هذه الرسالة من أجله وحده، وأذكُر أني قرأت للمرحوم فتحي زغلول باشا وصفًا جميلًا للأفراح الريفية، وذكرًا خاصًّا لهذه العادة التي أذكُرها هنا وأصفها؛ فمن المُدهِش إذن حقًّا أن تبقى مثل هذه العادة المستنكَرة في أفراحنا، وألا تكفيَ المدة بين كتابة فتحي زغلول وبين عصرنا هذا لمحو وسحق مِثل هذه العادة الريفية، ولكنَّا نأمل أن تنقرض بفعل السنين والزمن!

وعندما يخرج هذا الموكب يُحيُّون العروس بطلقاتٍ نارية ذاهبة في الجور وتكاد تصمُّ الآذان من الضجَّة، ثم تقف جماعة من الرجال بين حين وحين تلعب بالعصا أو النبُّوت، وهي ما يُسمونها «لعبة الحطب» التي ذكرناها ووصفناها حين تحدَّثنا عن

حياة اللهو في ريفنا، وهذه اللعبة على بساطتها وريفيتها وبداوتها لا تخلو من جمال ولا من لذة؛ فهي ضربٌ جميل من ضروب الشجاعة القديمة، ومظهر من مظاهر النخوة والرجولة. ويحيِّي هذا الموكبَ أيضًا جماعاتٌ من الفتَيات والنساء يُزغرِدن في الأجواء ويغنِّين جماعات CHORUS أغاني لا تخلو أيضًا من جمال، إحداهن تغنِّي والأخريات يتبعنها بصوتٍ واحد له جماله وفيه حسنه، وعلى هذا الضرب من السير يسير موكب العروس حتى تبلُغ دار عريسها، وهناك ينتظرها العريس أو أحد أقاربه أو أخواته، فيحملها بيده ويدخل بها إلى الدار.

هذا مَوكب العروس، أما العريس فمن الصعب جدًّا أن تجده أو تراه يوم العُرس، وبخاصة في عصر اليوم أو في مغربه، فهو يُحاول أن يُخفيَ نفسه عن العيون، وقبل أسبوع أو أسبوعين لليلة الزفاف يدعوه أحد أصدقائه الخالصين المقرَّبين إليه إلى داره للاستحمام والاغتسال عنده، فإذا كانت ليلة الزفاف الموعودة أخذ هذا الصديق الداعي ملابسَ العريس الجديدة من عصر اليوم تقريبًا، وفي ساعة الاستحمام يكون أهل القرية جميعًا قد عَلِموا بذلك، فيذهبون إلى دار ذلك الصديق الداعي ويجلسون مُنتظرين خروج صاحبنا العريس، فإذا ما انتهى من عمله وانتهى الحلَّاق من تزيينه وتجميله، خرجوا به وسطهم رافعين الشموع والمشاعل، إما على أيديهم، وإما على رءوس عِصيِّهم الغليظة، وإما في «شمعدانات» بسيطة أعَدُّوها لذلك، وصاحبُنا العريس في الوسط أو «واسطة العِقد» كما يقول ابن الرومي، يحمل منديلًا أبيض في يده يسدُّ به فمه وأنفه، وحوالَيه عشيرته وأهله وأصدقاؤه، مخضَّب اليدَين بالحناء، وفي هذا الجمع العديد المؤلف من الرجال والنساء يؤتى ببعض أصدقائه الذين يُحسِنون فن الغناء، والذين وهبهم الله نعمة الصوت الجميل، فيتناوبون معًا غناء «المواويل» التي تدور جميعًا حول الغرام والمُغرَمين، وعذاب الحب وشكايات المحِبين، ودلال ذوات الجمال ومالكات القلوب، واستبدادهن وعبثهن بما يمتلكن من قلوب الرجال، وبُخْل الجميلات بجمالهن، وقلوبهن التي لا تعرف إلى الرحمة بعُشَّاقها سبيلًا، وبين الحين والحين تُطلَق البنادق في الجو بعد الفراغ من إلقاء المواويل، ثم تنثُر النساء بدرات المِلح على الرجال في الموكب الزاخر خوفًا من الحسد كما أظن، ثم يستمر الموكب على هذا النهج، حتى إذا وصل أو اقترب من دار العريس ومعه أصدقاؤه دفعوه بقوة وجرَوا به بسرعة، وانسلُّوا به بين الجمع العديد إلى داره، وأدخلوه إلى «قاعته» التي خصَّصها له أهله هو وزوجه، فيأخذ بعد ذلك في فضِّ بكارة العروس أو ما يُسمونه أخذ الفلاح، أما هم فيقفون بالباب أو

خارج الدار ينتظرون خروجَه على مضضٍ، ويتعجَّلونه في إنهاء وظيفته ببعض أغانٍ ساقطة لا تخلو من وقاحة؛ فإذا ما دخل هو عند عروسه وجد عندها جماعة من النساء من قريباته وقريباتها، أتَين ليشهدن كيف يقوم بهذه العملية الفنية، التي هي لديهم من أحسن المشاهد جمالًا وأبهرها فتنةً. ولست أدري أي مشهد يكون مشهد فتاة بِكْر تُفَض بكارتها على مشهد من المتفرِّجات المُعجَبات بهذا المنظر الجميل الفني البديع، كأنهن يَشهَدن روايةً تُمثَّل أو لعبةً تُلعَب! ولستُ أدري ما شعور تلك الفتاة البريئة حين ترى نفسها في هذه الحال المُخزِية التي لا تتَّفق مُطلَقًا وأبسطَ صنوف الشعور والذوق والأخلاق، وحين ترى نفسها مُلقى الأنظار وهدف الأبصار؟ ومن المؤلم جد الألم أن هذه الصورة الفاحشة المُخجِلة المُزرِية لا تزال إلى الآن مستعمَلة في بيوت الكثيرين جدًّا من الريفيين، ولا يزالون ينظرون إليها نظرة الإعجاب والاستحسان، وحجة هؤلاء النساء اللائي يرتكبن هذه الفاحشة المُخجِلة أنهن حارسات على عفاف العروس، شُهداء على طُهْرها وشرفها. يا له من اعتداءٍ صارخ على العفَّة والشرف!

وإذا حدث أن العريس لم يُحسِن هذه العملية، لَطَمته «الماشطة» وأنحته عن العروس وقامت هي بعملية فض البكارة. مشهدٌ مُخجِل فاحش يذكِّرنا دائمًا بحياتنا التي نحياها، وببقائنا في هذه الوهدة العميقة من التأخُّر والانحطاط، وأخشى أن أقول: الوحشية.

وفي أثناء هذه العملية المهمَّة يتسلَّق الأطفال والفتَيات حائط الدار، وينظرن من ثقب أو فجوة إلى هذا المشهد الجميل؛ مشهد فتاة عذراء تُفَض بكارتها على مرأًى من جمع من المتفرِّجات الحارسات الشاهدات! ثم يخرج العريس ظافرًا مُنتصرًا من كفاح تلك العملية، فيُقابله أصدقاؤه وأهله بالقُبلات والأحضان، وتستقبله البنادق بالنيران والطلقات، والنساء بالتهليل والزغاريد. وفي اليوم الثاني تطوف جماعات من النساء في القرية جميعها، حاملاتٍ قطعةً بيضاء من القماش ملطَّخة بدم العروس، الذي هو مظهر شرفها وشارة عفافها وحجة طُهْرها؛ حتى يرى أهل القرية جميعًا أمانة الفتاة على شرفها، وحِرصها على طُهْرها، وهُنَّ في هذا التَّطْواف يغنِّين بعض الأغاني الريفية المُلائمة لهذه الحال، مثل: «بيَّضت الشاش يا عروسة!»

تلك صورةٌ مُقتضَبة مُوجَزة من أفراح القرى، ويُلاحَظ أني أتحدَّث هنا عن أصغر مرتبة من مراتب الفلَّاح المصري كما أخذت نفسي في كل نواحي الرسالة، وكما أشرت إلى

ذلك في مقدمتي. ولقد دعاني إلى اختيار هذا النوع من الفلَّاح المصري عِلمي ومعرفتي بأنه يكوِّن في الوحدة القومية المصرية الأغلبيةَ الساحقة على حدِّ التعبير الدستوري.

ذكَرنا قبل الآن أن كلًّا من الرجل والمرأة في ريفنا المصري ينظر إلى الحب ويفهمه بنظرةٍ واحدة وفَهمٍ مشترك، وتحدَّثنا عن هذا اللون من الحب كثيرًا وقلنا أكثر من ذلك، قلنا أيضًا بأنه يندُر جدًّا أن يكون زواج في الريف نتيجةً لعواطف مُتشاركة وإحساساتٍ مُتبادلة وشعور بالحب والوفاق والميل، وقلنا إن الزواج في مصر عامةً، وفي الريف بخاصة، رجعيٌّ جدًّا على أقدم نُظُم الجمود ووسائل الرجعية، وبأن نظام هذا الزواج على ما هو عليه في عصرنا هذا لا يتَّفق مُطلَقًا وروح العصر الحديث، ولا مع ميول الناس وتوجيهات عقولهم ومشاعرهم؛ فمن الواجب علينا أن نبحث عن علاج وإصلاح لهذا النظام الذي يشوِّه من جمال نهضتنا، ويكاد يهدِّد بيوتنا وعائلاتنا، ويقضي على آمال شبابنا في المستقبل، ويُشجع على الفساد والغواية أولئك الذين يمنعهم هذا النظام الأعرج الفاسد أن يعيشوا العيشة الزوجية الهادئة السعيدة المحترمة!

وإذن فقد أصبح من اليسير علينا — كما نظن — أن نتعرَّف الآن ونفهم ونتصوَّر الحياة الزوجية القروية الداخلية؛ فإذا كانت هي كما قلنا نتيجةَ الصُّدف والقسر والإرغام أحيانًا، لا نتيجةَ الحب والتعارف وتبادُل الإحساس واشتراك الميول والعواطف كما نفهم نحن من الزواج العصري، وكما نريد أن يكون في مصر جميعًا، فلا تَعجَب كثيرًا إذا رأينا أن هذه الحياة الزوجية الداخلية لا تخلو دائمًا من نضال وعداء وتجاذُب الزوجَين؛ فالمرأة هناك قلَّ أن تنجوَ من الضرب والإهانة والتعذيب لأتفه الأسباب وأبسط البواعث.

تصوَّرْ معي أن الرجل قد يُوسِع امرأته ضربًا بالنبُّوت، وما أدراك ما النبُّوت! وذلك لأن إحدى نساء القرية قد أتت تشكوها إلى زوجها، أو لأنها تحفظ وتدَّخِر لديها بعضَ نقود له، فيحدث أن تمتنع أحيانًا عن أن تُعطيَه ثمنَ لفافة تَبْغ إبقاءً على نقوده من الضياع، وتوفير الشراء وقضاء الحاجات المنزلية الأساسية الأخرى! تصوَّرْ أن الرجل في ريفنا يجد في مُناداته لزوجه باسمها عارًا له وتنقيصًا من قدره ومن سيادته وسلطانه وكرامته، فلا يُناديها دائمًا إلا بهذا النداء العجيب المُتكبر الصَّلف: يا بنت!

وإذا ما جلس إلى إخوانه أو أصدقائه في مجلس وأراد أن يذكر زوجه، فتأبى عليه النَّعرة والكبرياء إلا أن يقول الأولاد أو العيال؛ خوفًا من أن يقول زوجي أو حرَمي أو ما اعتاد المُتعلمون المُستنيرون أن يقولوا!

وتصوَّرْ أيضًا أنه إذا استولد بنتًا وجَمَ وعلَت وجهَه الكآبةُ والأسى؛ لأنه كان يريد ولدًا، ولأنه ينظر إلى البنت وإلى النساء عامةً نظرات احتقار وازدراء وإنقاص، ولأنه يرى

في النساء عامةً رأي صاحبنا «المَعرِّي»: «باعثات ركابك في مهالك مقتمات»، «فوارس فتنة أعلام غي»، «يلدن أعاديًا ويلدن عارًا»، «إلا أن النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد».

بمِثل هذا المِنظار الأسود الظالم ينظر فلَّاحنا إلى المرأة.

ثم تصوَّرْ معي أخيرًا حياة زوجية تُستفتَح صباحًا عند مَطلع الشمس الخيِّرة المُحسِنة بأبغض الحلال إلى الله، بالطلاق كما قال النبي الكريم، ولا يستحي الرجل ولا يتعفَّف ولا يتحرَّج أن يُقسِم بالطلاق مرَّات ومرَّات، ثم يستأنف حياته الزوجية كأنه لم يفعل شيئًا يمنع هذا الاستئناف، بل يُبطله ويُلغيه، وفي هذا يُساعده ذلك النصَّاب الكبير أس البلاء، كما قلنا، المأذون نظير رغيفَين أو دعوة عشاء أو كيلة أذرة! كم من الفلَّاحين مَن إذا حادَثتَه عن أي شيء، أقسم لك في الحال يمين الطلاق مرَّات ومرَّات في هذره وجده، في عمله وسمره، في سِلمه وحربه، في حديثه بطلب وبغير طلب، وامرأته المسكينة قابعة في دارها، أو مُزاولة أعمالها في حقلها أو في بيتها، تجهل كل شيء عن زوجها، تجهل أنه يبيعها ويهدمها ويقضي على أولادها، ويتصرف فيها وفي أبنائها الصغار كيف تشاء أهواؤه وتريد جهالته. تجهل أنه يعيش معها في حرامٍ يُبغِضه الله ويَمقُته، أو بعبارةٍ أدق وأجلى تجهل أنه يعيش معها لا في زواجٍ حلال، بل في زنًا محرَّم فاجر، وكل ما ترتَّب على هذا الفساد والحرام فاسدٌ حرام، فساد الفرع من الأصل والبناء من الجدار!

المرأة في القرى إذن — كما لا حظت بعيني — لا تُعامَل من الرجل أكثر ممَّا تُعامَل الماشية والسوائم، ولا يُنظَر إليها أكثر من أنها «مَعمل» لتخريج الأطفال كمَعامل الكتاكيت الذين يعيشون في قذارة وبيئةٍ أهوَنَ وأحبَّ لدينا أن نراهم موتى أو لا نراهم مُطلَقًا من أن نراهم أحياءً على هذه الصورة المُخجِلة القَذِرة المُبكية، ولا يُنظَر إلى المرأة أيضًا أكثر من أنها «وعاء» يصبُّ فيه الرجل لذَّاته وشهواته الجسمية الزائلة الفانية! أتُرضي هذه الحال المُبكية والمُخجلة معًا أنصار ونصيرات المرأة؟!

ومن المؤلم أيضًا بل من المُبكي حقًّا أن الفلَّاح المصري قد يهون عليه أحيانًا ألا يكذب على وليٍّ من الأولياء الصالحين، ثم يُبيح لنفسه ولدِينه ولضميره أن يكذب على ربه وخالقه! نفسيةٌ غامضة غريبة لا تخلو من العَجب، ولا من الأسى والإشفاق الكثير!

وهكذا تكون حياتنا الزوجية الريفية الداخلية القائمة كما قلنا على الصُّدف حينًا، وعلى الجبر والعمى حينًا آخَر، مع أن النبي عليه السلام أشاب بوجوبِ معرفةِ كلٍّ من الخاطب والمخطوبة كلَّ ما يهمُّهما معرفته قبل الزواج، فقال: «إذا خطب أحدكم المرأة،

فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل.» وقال عليه السلام للمُغِيرة حين أخبره بأنه خطب امرأةً: «انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدَم بينكما.» ولكننا لا نريد أن نفكِّر ولا أن نبحث ولا أن نسير في حياتنا حتى كما كان يسير من قبلنا، فضلًا عن أن نُساير عصرنا ومُقتضيات زمننا! الآن وقد تبيَّن لنا مركز المرأة في القرى بإزاء الرجل ومعاملة الرجل ونظره إليها، وبعد أن تبيَّن لنا أن هذا التعاقد الجنسي من الرجل والمرأة تعاقُدٌ باطل قانونًا في أغلب الأحيان، وشرعًا ودينًا أيضًا؛ لأنه لم تُراعَ فيه مُطلَقًا شروط التعاقد الأوليَّة التي من أهمِّها رضاء الطرفَين المُتعاقدين، وتوافُق الإرادتَين المشتركتين في العقد، ولأنه شرعًا ودينًا باطل لما يُرتكَب فيه وباسمه من أمورٍ يُنكِرها الشرع ويمقُتها الدين، كتلك الكميات العديدة من القَسم واليمين دون احترامٍ لدين، ودون خوف أو رقابة من الخالق صاحب الأديان جميعًا!

إذا تبيَّن لنا كل هذا، فَهِمنا وتصوَّرنا مقدارَ خلل الحياة الزوجية في الريف والفساد السائد فيها، وأمكننا بذلك فهم العلاقة النفسية الباطنية بين الزوجَين هناك؛ زوجان مات في كلٍّ منهما تقريبًا الشعورُ بالحب، اللهم إلا في العلاقات والأحوال الجنسية، زوجان يعيشان عيشًا استبداديًّا مُطلَقًا، يرى الرجل نفسه هو الحاكم والسيِّد المُطلَق الباطش بأمره ونفوذه حيث يريد ومتى يشاء، والمرأة المسكينة ترى نفسها مُجبَرة لأن تخضع وتستذلَّ لرَجلها؛ فلقد تربَّى فيها روح الاستكانة والخضوع للجبروت وللذل من الرجل ومن غيره، فأصبحت تخاف رجلها وترهبه بدلًا من أن تُحبَّه وتحترمه! فهي جاهلةٌ مسكينة، وهو جاهلٌ مسكين، والمرأة الجاهلة كما يقول المرحوم قاسم أمين: «تجهل حركات النفس الباطنة، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور؛ فإذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك.»

ولذلك هي لا تعرف مُطلَقًا أن تتقرَّب منه وتتحبَّب إليه؛ وذلك لجهلها بهذه الأساليب أولًا، ولروح الخوف والنفور والجبن التي غرسها الرجل فيها ثانيًا، ولكنها قد تُحسِن هذه الأساليب أحيانًا إلى حدٍّ ما إذا كان للرجل زوجاتٌ أخرى معها، وهذا مُنتشر بدرجةٍ مُخِيفة مُرِيعة في الريف، رغمًا من فقر الرجل المُبكي وشقائه المُفرِط، ولكن لا تدهش كثيرًا؛ فثمن المرأة رخيص جدًّا، وأقصد بها المرأة التي تُقابل الرجل الذي أقصده أيضًا، والذي نوَّهت عنه في كثير من صفحات هذه الرسالة، لا تدهش إذن إذا علمت أن الرجل قد يتزوج امرأة بجنيهٍ واحد أو ببضعة ريالات؛ حبًّا في الزواج أو حبًّا في النسل.

ففي هذه الحالة وحدها إذن قد تتقرَّب المرأة من الرجل، وتتودَّد وتتملَّق إليه ليُعِينها على الزوجة أو الزوجات الأخريات، وليَهَبَها حبه وقلبه دونهن جميعًا، وكثيرًا ما

تنشب المعارك وتحتدُّ الشتائم بين هؤلاء الضرائر استجلابًا لحب الرجل، لا! لشهوات ولذَّات الرجل!

والمرأة التي خُلِقت لتبعث في البيت جمالًا وحياة وسحرًا، ولتكون جنَّته أو ملاكه، ولتُجمل لرجلها حياته، وتخفِّف أو تُزيل عنه همومه وأعباءه، وتُشاركه لا جسمًا فقط بل قلبًا وشعورًا وروحًا وإحساسًا في نِعَمه وفي بؤسه، في تعبه وفي راحته، وتُذهِب عنه السآمةَ والضجر والتعب بما تُسرِّي عنه وتُلاعبه وتُداعبه بأناملها الناعمة الدافئة القطيفية، وبأنفاسها الحرَّى المُتصاعدة من قلبها المُحب الرحيم النابض، وبأحاديثها العذبة المُعطرة المتأرِّجة التي يصفها الشاعر في قوله:

فمِن لؤلؤٍ تَجْنيه عندَ ابتسامِها ومن لؤلؤٍ عندَ الحديثِ تُساقِطُه

وبنظراتها ولِحاظها المُسترخية الفاترة النافذة الساحرة، ولتربِّيَ أولاده تربيةً صحيحة قوية، ولتخلق فيه حبَّ الحياة وروح العمل والكفاح.

مِثل هذه المرأة تكاد تُفارق ريفنا، وتكاد تكون مجهولة هناك كل الجهل؛ إذن فماذا تكون وظيفة المرأة إذا لم تكن لزوجها ملاكًا يحرسه، وطبيبًا يُعالجه، وفنَّانًا يُجمل له الحياة، ووحيًا يُلهِمه القوةَ وحبَّ العمل، وقلبًا متمِّمًا لقلبه، وروحًا أليفًا لروحه؟ وإذا كانت المرأة في القرى تكاد لا تفهم ولا تقدِّر واجباتها نحو وظيفتها بإزاء الرجل وبإزاء البيت الذي هي مَلِكته، وبإزاء أولادها، وإذا كان الرجل أيضًا مَن هو لا يفهم واجبه نحو المرأة، ولا يعترف لها بمركزٍ محترم سامٍ، ولا يقدِّر وظيفتها في الحياة ورسالتها في العالم، ولا يفهم لها وجودًا ذاتيًّا مستقلًّا محترمًا في حدود عملها ووظيفتها، فلا ننتظر مُطلَقًا أن تكون حياتهما الزوجية سعيدةً هنيئة كما نفهمه ونُحسُّه حين نتصوَّر ونذكُر السعادة والهناءة!

الفصل الخامس

آمال ورغبات

وما هذه الآمال والرغبات إلا آمالُ ورغباتُ شابٍّ من أبناء الريف شَهِد بعينَيه هذه الحياة الشقيَّة البالغة أقصى مراتب الشقاوة، التي يعيشها الفلَّاح المصري ويحياها هذا المسكين الطيِّب، فلم يشَأ أن يكتم آلامه ويُسكِت أنينه، بل رأى أنه من الواجب ومن الوفاء للوطن وللقرية، ومن الاحترام لنفسه ولضميره، أن يَجْأر بالثورة على هذه الحياة التي تتنافى وكلَّ مظهر من مظاهر الإنسانية أو الرحمة، في عصرٍ يقولون كثيرًا ويردِّدون أنه عصر الحريات وعصر الإنسانية، وما هذه الآمال والرغبات إلا مزيج من الرحمة والإشفاق والألم والأمل والشعور الحق بالقومية، والصرخة الحارَّة للأنَفة وللعزة الوطنية والدعوة المُبتعَثة من الجسم ومن الروح، المُتقطعة من اللحم ومن الدم، إلى الهدم ثم إلى الإنشاء؛ فلقد آنَ الأوان بأن نُعمِل مَعاولَ الهدم والتقويض في كل ما يؤخِّرنا في سيرنا ويتَّخذه الغربيون سُبَّة ووَصْمة لنا، وفي كل ما لا يتَّفق وصورَ حياتنا المدنية الغربية المُتحضرة، وفي كل ما يكون نشزًا أو ضعفًا أو اضطرابًا في لحننا القومي وأغنيتنا الكبرى الوطنية. نعم، آنَ الأوان بألَّا نُشفِق على قديم لمجرَّد أنه قديمٌ يخلع عليه القِدم صبغةً من القداسة، وبألَّا نجبن مُطلَقًا في العمل على تغيير وجهات جميع مرافق حياتنا تغييرًا كليًّا شاملًا، تغييرًا لا يفصل بيننا وبين الشرقية بصفةٍ عامة، والمصرية بصفةٍ خاصة، التي تمتزج بنا لحمًا ودمًا، والتي هي في ماضينا وفي حاضرنا وفي مستقبَلنا أيضًا، والتي هي في عقولنا، وفي قلوبنا، وفي أرواحنا، وفي أحلامنا، وفي نزعاتنا، وفي ثقافتنا، وفي أعصابنا، وفي كل خلية حية من خلايا وجودنا، تغييرًا يُبقِي لنا الطابع المصري الجميل في مصريته الفرعونية، ومصريته العربية، ومصريته الحديثة المصفَّاة من هذه الحضارات والثقافات الفرعونية واليونانية والرومانية والعربية واللاتينية والسكسونية، والمُمتزجة المُتفاعلة بهذه جميعًا.

نعم، لا نريد أن نتغيَّر كأمَّة لها من حضارتها الأولى ومن هذه الحضارات جميعًا مجدها وعزها المقدَّس طفرةً واحدة، ونقطع كل صلتنا بالماضي الحبيب إلينا المُتغلغل في كل أعصابنا وحواسنا، بل نريد أن نوفِّق ما استطعنا بين الماضي والحاضر والمستقبَل ليتألَّف من هذا جميعًا لحنٌ جميل واحد للفَخار المصري وللقومية المصرية، نريد أن تكون «مصر» التي وسعت أرضها الخِصبة ونيلها الخالد كلَّ الحضارات الإنسانية جميعًا، والتي غذَّت من تُربتها ومن مائها ومن سمائها ومن تاريخها كل الثقافات القديمة العريقة في القِدَم، نريد أن تكون «مصر» هذه لا تتأخَّر في عصرها الحديث وفي نهضتها الكبرى عن أن تستأنف غذاءها وإلهامها ووحيها لهذه الحضارات والثقافات الحديثة العالمية، وأن تؤدِّيَ رسالتها الكبرى إلى خدمة العالم جميعًا مؤتلِفةً من فن الشرق ومن علم الغرب!

إذن ليس لنا مَناص وقد اصطنعنا وسِرْنا على نهج الحياة الغربية الراقية من أن نهدم كلَّ ما لا يستطيع البقاء، وما يَعُوقنا عن أن نكون أمَّة المستقبل الفاخر كما كنَّا أمَّة الماضي الخالد، وما يؤخِّرنا عن أن نبعث من جديدٍ مصر العلوم والفنون، مصر الحكمة والفلسفة، مصر الحب والخير، مصر الحق والجمال، مصر السلام والجلال!

وإذا كنَّا في حاجة إلى الهدم لنبدأ في عملية الإنشاء، فنحن أحوَج إلى أن نهدم نظام حياتنا الريفية رأسًا على عَقِب كما يقولون؛ فإن وصمات العار التي تلطِّخ فَخارنا القومي وسخريات الغربيين التي يتفكَّهون بها علينا، وعوامل التأخُّر والجمود التي تُعرقل خطواتنا الواسعة في الإصلاح وفي البناء، كل ذلك جاثم لنا في الريف ومُلازمنا أبدًا في حياتنا الريفية.

لقد وقف القارئ على صورةٍ بسيطة من حياة فلَّاحنا وآلامه وضروب إرهافه وغَبْنه، وعرف أن هذا الفلَّاح النَّشِط العامل سيِّد مصر حقًّا إنما يعيش عيشةً خشِنة قذِرة كلها التعسُّف والإهمال والفقر والجهل والجمود والحِرمان والظلام، رغم ما يسكب المسكين من دمه، ويقتطع من قلبه، ويُريق من عَرَقه ليُطعِم أبناء مصر وليكسوَهم وليُنميَ ثروتهم، بينما هو يتقلَّب على أشواك الخصاصة والمَسغبة، وبينما هو يمشي بين الناس نِصف عُريان لا يمتلك إلا اللباس الذي يستر به جسمه. وبينما هو في معظم الليالي يبيت طاويًا جائعًا هو وأولاده المساكين وزوجه الوفية، ورغم حِرمانه كل حقوقه في الحرية الحقَّة والتعليم وضروب السلوى والعزاء واللهو، وحرمانه حتى حق إبداء شكواه، ورغم عبث الحكام واستغلالهم لجهله ولفقره، ورغم تحكُّم الملَّاك فيه وفي أولاده، ورغم تجاهل

رجال الحكومات إياه كأنه ليس هو الذي على أكتافه يَصِلون إلى ما يَصِلون من كراسي الحكم ومراتب الجاه ومنازل السطوة والسلطان!

لا نريد الآن أن نعود إلى تصوير تلك الحياة الشقيَّة لفلَّاحنا المسكين؛ فإنَّا لنحسب أن فيما أوردنا في الفصول السابقة، وفيما حاوَلنا تصويره من حياته كما نعرفها وكما نُشاهدها وكما نشعر بها، وكما نعتقد ونؤمن أنها الحق، نحسب أن في هذا الكفاية النسبية لمن لا يعرف شيئًا عن الفلَّاح المصري، وعن لون حياته التي يحياها في عصر النور والحريات، خصوصًا إذا لاحظنا وتذكَّرنا أننا لا نريد من هذه السطور إذاعةَ رسالة علمية دقيقة؛ فليست هذه السطور كما قلنا في «المقدمة» إلا شعورًا حَرَصنا على تصويره كما هو دون تصنيف أو ترتيب، وإلا نداءً باطنيًّا أحسسنا بقوته وسمعنا صرخته، فقمنا بتبليغه في سبيل الواجب وفي سبيل الضمير!

والآن، تُرى، ماذا تكون تلك المكافأة وهذا الاعتراف بالفضل وبالجميل من حكومتنا ومن ملَّاكنا وأغنيائنا لهذا الفلَّاح المصري النَّشِط، فخر الصبر والنشاط والعمل في العالم جميعًا؟ أتدري ما هي هذه المكافأة، وما هو هذا الاعتراف بالفضل وبالجميل؟ تعسُّفٌ وحرمانٌ واستغلال وإرهاق وإهمال واحتقار! وهكذا يُخرِج المسكين أثمار الأرض للملَّاك، ثم يُحرَم هو كفاية عيشه ورزق أولاده. وهكذا تُبْنى المدارس من غَرْس يده ودمه، ومن عَرَقه ومن لحمه ومن شقائه ومن نشاطه، ثم يُحرَم هو التعليم فيها، كالشمعة التي تُنير للناس لتنطفئ هي. هكذا تُخطَّط المدن وتُرصَف الشوارع وتُنار وتَزْدان على حسابه ومن جيوبه، بل من قلبه، ثم يُحرَم هو دارًا نظيفة، وعيشةً راضية، وحياةً محترمة موفورة إنسانية!

يا رجال الحكومة، ويا أصحاب الأرض والطين! لقد آنَ لكم أن تدخلوا الميدان وأن تعملوا بجد للإصلاح وللإنشاء، فلئن صبر الفلَّاحُ طويلًا في العصور القديمة على الضَّيم والحِرمان والإهمال، فلن نضمن ولن تضمنوا هذا الصبر وهذا السكوت في هذه العصور، ولئن كانت سياسة الاستعباد قد حالت بيننا وبين الإصلاح المرجوِّ في العصور الماضية، فلقد زالت هذه السياسة ولو ظاهريًّا، وأوشكت أن تنفض يدها من مصالحنا الداخلية الخاصة، وأصبحنا الآن مسئولين وحدنا عن نواحي الضعف والإهمال والفساد والخلل في حياتنا الاجتماعية.

جُودوا يا رجال الحكومة على الفلَّاح المسكين بالتجوُّل في القُرى والعِزب والكُفور، وتنازلوا بالاستماع إلى شكاياته التي يبعثها فقرُه وحِرمانه، وتكرَّموا بالنظر وبالتأمُّل

والتفكير في حياته، فسوف تجدون معنا أنه من العار كل العار، بل من الظلم وأي ظلم، أن يعيش هذا الصنف من الإنسان العامل النبيل الطيِّب الكريم هذه العيشةَ الوبيئة التي نعرفها وتعرفونها، والتي تُحرك عيوننا بالدمع السخين، وتُفجر قلوبنا بالرحمة والشفقة عليه، والتي لا نشكُّ مُطلَقًا في أنها تحرِّك فيكم وتفجِّر ما تحرِّك فينا وتفجِّر، وتدعوكم إلى نسيان مراكزكم ومناصبكم وجاهكم حينًا لتُفكروا في وضاعة وحقارة ومَسكنة هذه الحياة التي يحياها صنفٌ مسكين ضعيف من الإنسان، تربطكم به رابطةٌ نبيلة مَكينة مقدَّسة، لا رابطة الوطنية وحدها، ولا رابطة اللحم والدم وحدها، ولا رابطة اللغة والدين والإحساسات والآلام والآمال وحدها، بل رابطةٌ أسمى وأعلى وأقدس من هذه الروابط جميعًا؛ رابطة الإنسان بالإنسان، رابطة الأخ بأخيه!

وليس ما نَعرِضه هنا من الآمال والرغبات سوى مطالب مُتواضعة تدفعنا إلى البوح بها وإلى إذاعتها العدالةُ البشرية والمبادئ الإنسانية، التي لا نشكُّ مُطلَقًا أنها سوف تجد لها بين أبناء هذا الوادي الطيِّب الخصيب المُبارَك أنصارًا وأعوانًا، إن لم يكُن يدعونا إليها شعورنا القومي وإيماننا الوطني، ولا نشكُّ مُطلَقًا في أنكم تشعرون معنا هذا الشعور، وتؤمنون معنا هذا الإيمان!

وقبل أن نبدأ في ذِكر هذه الرغبات، نرى من الحق ومن الواجب علينا أن نسجِّل حقيقةً لا مناص لنا من الإقرار والاعتراف بها بين سطور هذه الرسالة، وهي تلك المُحاوَلة المبدئية التي توجَّهت نحو التفكير في شئون الفلَّاح المصري والريف المصري، تلك المحاولة المشكورة التي أهدتها إلينا حياتنا النيابية، والتي تُشجعنا على التفاؤل وعلى المُضيِّ والسير في واجبنا هذا الذي أخذنا نفسنا به؛ ليتمَّ السعي وتنجح المحاولة، ونرى ريفنا وفلَّاحنا كما نحب أن نراهما!

وإذا شكَرْنا هذا السعي الشريف المبرور إلى إصلاح العامل المصري، والذي أخذ مظهره في بناءِ حي جديد خاص بالعُمال، وفي تشريعٍ خاص يحمي حقوقهم إزاء وتجاه أصحاب المصانع وأصحاب رءوس الأموال، نقول إذا شكَرْنا لحياتنا النيابية ولحكومتنا هذا السعيَ المبرور، وهذه الحركة المُبارَكة بخصوص حماية وتنظيم حياة وحقوق فئة عاملة نَشِطة حية، هي إحدى فئات وبنايات ودعامات حياتنا الاقتصادية وثروتنا الإنتاجية القومية، وهي فئة العُمال، مُجاراةً لتلك الحركات الشريفة القومية التي قامت بها جميع دول أوروبا وأمريكا المُتحضرة؛ نقول إذا شكرنا لها هذا، فكم نُنحي عليها باللائمة لأنها عُنيت بطائفةٍ كبرى من طوائف الإنتاج وأهملت طائفة قد تكون أهمَّ وأكبر

وأخطر في كل نواحي ثروتنا وإنتاجنا، وهي طائفة الفلَّاحين، خصوصًا إذا راعينا أننا بلدٌ زراعي، وأننا نعتمد في كل ثروتنا ومَرافق حياتنا المختلفة على الزراعة وعلى الفلَّاح بمعنًى أدق، فكان يجب أن نبدأ أولًا بطبقة الفلَّاح، ثم طبقة العامل إن عجزنا عن البدء بالطائفتَين معًا. وإذا كان العامل المصري سيُوفَّق في القريب إلى تشريعٍ يحمي حقوقه تجاه أصحاب الأعمال ورأس المال، ويحدِّد أجوره وساعات عمله حتى يكون بمَنجاة من استغلال واستبداد أصحاب المصانع؛ ثم إلى سُكْنى مُريحة هنيئة في حيٍّ خاص وفي نظامٍ جديد يتَّفق ومُقتضيات الحياة الجديدة وروحها ونزعاتها، فكم هو أحرى بالفلَّاح المصري فخر مصر وسيِّدها بلا نزاعٍ أن يكون له تشريعٌ خاصٌّ يَحميه من ظلم ومن استبداد واستغلال ملَّاكه أصحاب الأرض والطين، وأن ينصَّ صراحةً في هذا التشريع على وجوبِ تحديدِ حدٍّ أقصى للإيجار حتى لا يستغلَّ الملَّاك جهالةَ الفلَّاح وسذاجته وفقره، وحتى يخافوا الله فيه وفي أولاده، ولْيكُن هذا التحديد كما أشار السير «ويليم ويلكوكس»، وخبرته بالشئون المصرية وبشئون الفلَّاح المصري خاصةً، لا يمكن نُكْرانها أو الجدال فيها.

أشار هذا الرجل الإنجليزي مدفوعًا بالعامل الإنساني النبيل، لا العامل الجنسي، بوجوب عدم زيادة قيمة الإيجار عن خمسة أو ستة أمثال الضريبة المفروضة على الأرض، وهي تلك الضريبة العقارية التي تختلف قلةً وكثرة.

فكم يُنقَذ الفلَّاح المصري من وطأة الملاك الذين لا يهمُّهم إلا أن يسدِّد لهم المسكين قيمةَ الإيجار، سواء أكان من جيبه أم من دمه إذا سُنَّ تشريعٌ خاص للإيجارات يحمي الفلَّاح من مظالم المُلاك، ويمكِّنه من أن يعيش حياةً متوسطة مُعتدلة إنسانية محترمة. ويحدِّد هذا التشريع حدًّا أقصى للإيجار، وتُحدَّد عقوبة أو غرامة لمن يُخالفه؛ فإذا فعلنا هذا — ونأمل أن نفعله قريبًا — هذَّبنا إنسانية الغالبية الساحقة منَّا، وخفَّفنا عليها بعضًا من أرزائها ومصائبها ومظالمها، وأتَحنا لها الأمل في حياةٍ جديدة مُريحة واسعة عادلة!

وإذا كنَّا قد فكَّرنا في شئون العامل وشرعنا في وضع تشريع خاص له ينظِّم حياته ويحمي حقوقه، فأولى بنا أن نفكِّر في شئون الفلَّاح المصري، وأن نَشْرع في وضع تشريع خاص له أسوة بأخيه العامل، وأن نضع أيضًا نظامًا خاصًّا لسُكْناه كما نريد مع أخيه العامل، ولقد آنَ لنا ونحن في عصرنا هذا وفي عهد إحيائنا القومي العام أن نضع لائحةً خاصة لنظام البناء والسُّكنى في الريف؛ فمثلًا نشترط على من يريد بناء دار له ألَّا يخرج

على قواعد تلك اللائحة بأن يبنيَ داره بالشكل وبالنظام، وبحسب الشروط المدوَّنة في تلك اللائحة، وإن خالف ذلك فيُعاقَب بعقوباتٍ مختلفة.

ولهذا الغرض نأمل كلَّ الأمل أن تُكوَّن لجان خاصة في الدوائر الحكومية، يكون من اختصاصها النظر في هذه المسألة الهامة، وأن يُعيَّن من الفنيِّين والمُهندسين في كل مركز من مراكز المُديريات، يُباشر كل واحد منهم ويُراقب في حدود مركزه واختصاصه عمليةَ البناء بهذا النظام الجديد، وهو الذي يضع لهم الرسوم والتصميمات التي يجب عليهم أن يبنوا وفقًا لنظامها وقواعدها، وتكون هذه الرسوم واحدةً مُتجانسة في كل أبنية القرية.

إذا فعلنا هذا — وأملُنا كبير في فِعله — جعلنا من القرية المصرية وحدةً شكلية مُتجانسة تُريح النفس وتُرضي القلب والذوق، وتذكِّرنا بأن في حياتنا المصرية الريفية نظامًا وذوقًا وتجانسًا.

ولكني نسيت! ليتمَّ لحياتنا الريفية جمالها كما نَبْغي، يجب أيضًا أن يُسَن في تلك اللائحة على وجوب إلقاء الردم والسباخ وما إليهما من أوحال وقاذورات في الجهات القبلية من القرى، لا من بَحريها، وبعيدًا عن الدُّور بمسافةٍ تضمن عدم وصول رائحتها للأهالي.

نظنُّ أنْ لا مبالغة فيما نقول ولا إسراف فيما نطلب؛ فإنه قد وجب علينا كأمَّة تشعر بحيويتها وبكرامتها وبذاتها أن نُنظم كل مَرافق حياتنا، وخصوصًا الداخلية منها، ولا نظنُّ شيئًا هو في أشد الحاجة إلى هذا التنظيم مِثل حياتنا الريفية التي بقيت على حالها إلى الآن، كما كانت في عهود العرب والأتراك والمماليك ومن إليهم!

ومن واجبنا جميعًا حكومة وشعبًا أن نجعل من ريفنا جنَّاتٍ خضراء نحجُّ إليها إذا تكدَّست على قلوبنا همومُ الأسى، أو أضعفت المدن وملاهيها من إيماننا، من واجبنا جميعًا أن نسير بالريف كما سِرْنا بالمدن وبكل نواحي الإصلاح التي سِرْنا بها والخُطى التي خطَوناها؛ حتى لا نهرب بذلك من بلادنا إلى ربوع الغرب، نبحث هناك عن السلوى ونتفقد العزاء والراحة واللهو، ومن واجبنا جميعًا أن نحبِّب إلينا ريفنا الذي درجنا على أرضه وبين ربوعه الهادئة البريئة بأن نُجمله، وبأن نُنظمه ليكون دائمًا جميلًا أمامنا حبيبًا إلينا عزيزًا علينا، فإنه في حالته الآن وبصورته التي هو عليها في النظام القديم الذي شهد عصور الإقطاع وعصور السُّخرة وعصور الاستبداد، ينفر كثير منَّا عنه، وقد تربَّينا في أحضانه بين حقوله وقنواته وسواقيه وأجرانه، وقد نُقِشت ذكرياته الحبيبة الخالدة في رءوسنا وفي صدورنا وفي قلوبنا، ونمَت مع عقولنا وخيالاتنا وأحلامنا؛ إذ

ماذا نشعر الآن في هذا العصر وريث وربيب تلك العصور القديمة المُظلمة، والذي يأخذ شيئًا فشيئًا إلى الانسلاخ المُعتدل عنها؟ كآبةٌ دائمة وقُطوبٌ مستمر؛ فلن نشهد في الريف جديدًا، ولن يتغير شعور يومنا عن أمسنا، ولن نأمل كثيرًا أن يكون غدنا خيرًا من يومنا؛ حياة ثابتة جامدة لا جدة فيها ولا حياة، ما نراه اليوم نراه غدًا، الشمس تُشرِق من الشرق وتغرُب في الغرب، والحقول تخضرُّ وتيبس، والمواشي تذهب وتجيء، والفلَّاحون يعملون في الغيطان ثم يعودون، والنساء يحملن جرَّاتهن أو يعملن في الحقول مع رجالهن، والأطفال في الحارات يتمرَّغون في التراب أو يلعبون! حياةٌ مُبقية على ثيابها خلال كل هذه الأجيال المُتناسلة والعصور الطويلة؛ فالرجل الذي تُقابله اليوم قد لا يُقابلك إلا هو في الغد بنفس الصورة والشكل والوضع الذي رأيته عليها بالأمس واليوم، والمرأة التي تُشاهدها اليومَ في الغيط أو على التُّرعة هي هي التي قد تُشاهدها غدًا بنفس ملابسها وهيئتها، ومشاهد الطبيعة وكل ما حولك من أرض وسماء وماء وشجر هي هي التي شَهِدتها بالأمس وتشهدها اليوم وستشهدها غدًا وبعد غد، وإلى أن يرث الله الأرضَ ومَن عليها، والساقية التي تمرُّ بها الآن وتسمع غناءها وموسيقيتها هي التي مرَّ بها غيرك مئات المرَّات، وهي التي ستمرُّ عليها أنت آلاف المرَّات، لن تتحوَّل عن مكانها ولن تغيِّر من موسيقيتها أو تجدِّد في غنائها، والأصوات التي تسمعها اليومَ من أفواه الناس ومن غِناء الفلَّاحين ومن الأُرغول والمِزمار والسلَّامية، هي التي سمعتها بالأمس، وهي التي ستسمعها غدًا وغدًا، وصاحبُها اليومَ هو صاحبها بالأمس، بل صاحبها من منذ أعوام، في صوته وفي هيئته.

وهكذا حياة الريف عندنا في كثيرٍ من بقاعها ونواحيها؛ جمود لا يَعدِله جمود، وقديمٌ عريق في قِدَمه، حياة لا يشعر فيها الغريب أو المدني أو المُستنير بجدة في الشعور أو حيوية في العواطف أو ائتلاف في الميول، وإنما يشعر أنه غريب عما حوله بنزعات فِكره وبخواطر نفسه وبآماله وبآلامه وبميوله وبشهواته، ويكفي كل هذا لأن يجعل الإنسان غريبًا حقًّا بكل معاني الغُربة!

فكم نحن في حاجة إلى أن نجعل من هذا الريف المُهمَل المنبوذ جناتٍ نحجُّ إليها، ونجدِّد فيها حبنا وعواطفنا، ونتغذَّى منها مبادئ عبادة الجمال!

وإذا كنا قد جهَرْنا بتنظيم حياة السُّكنى في الريف وبتجميله، بحيث يتَّفق مع ما نصبو إليه من مظاهر الحضارة والقوة والنظام والجمال، فلن يكون جهرنا بالإكثار من المستشفيات والمصحَّات وكل وسائل الصحة في تلك الربوع الريفية المحرومة منها أضعف

أو أخفت! كلنا نعلم أن الأمراض العديدة، كالبلهارسيا والأنكلستوما وأمراض الرمد وما إليها جميعًا، تغزو فلَّاحنا المسكين وتهدِّد حياته، وتجعل من لون بشرته ووجهه لونًا حائلًا باهتًا مائلًا إلى الصُّفرة وإلى الذبول، وإلى فقد الدم والحياة، وكلنا نعلم أن فقره وبؤسه يَحُولان بينه وبين تطبيب نفسه، ونعلم أنه حين يعجز عن وجود المال يضطرُّ إلى الاستدانة، ولو بفائظٍ فادح من جماعة المُرابين، وقد يضطرُّ المسكين إلى بيع ما عنده من غلال أو مواشٍ أو نعاج! كل هذا نَعلمه ونُشاهده كل يوم، ونسمع أَنَّات المرضى، ونرى الوجوه الحائلة الباهتة والصدور الشاكية، فهل لم تبلغ بنا إلى الآن الشفقة والرحمة بهذا المسكين الذي يُدرُّ علينا الخير والنعمة والخِصب من فوقنا ومن تحتنا ومن يميننا ومن شمالنا؛ أن نبنيَ له المستشفيات التي تُنقِذه من غزوات أمراضه العديدة، ومن فتكها بحياته الغالية علينا جميعًا! لا لأنه مصري تربطنا به رابطة الجنس واللغة والدين والمشاعر والإحساسات وحدها، بل لأنه أكبر وأشرف من ذلك، بل لأنه إنسان؟!

وبهذه المناسبة لا نودُّ أن يفوتنا تسجيل تلك الظاهرة الطيِّبة، التي أخذت تبدو تحت سماء مصر المُحسِنة الخيِّرة خلال هذه الشهور الأخيرة، بفضل جماعة من أغنيائنا نسُوا جاههم وأنفُسهم حينًا، وذكروا مصر التي من أرضها وتحت سمائها نشأ غِناهم ونما وترعرع وازدهر، نعم يسرُّنا كل السرور أن برزت هذه الجماعة الفاضلة من رجال المال في مصر تحمل راية الخير والإحسان، وتتزعم وتقود عملية البناء في بلدٍ حديث العهد بالبناء، والذي يسرُّنا أكثر من هذا ليس العمل نفسه، بل تلك الدلالات التي يمكننا أن نستقيَها منه؛ فلقد بدأنا نُقدر الإحسان، وبدأنا نشعر ونأسى لجِراحات المُعوزين، وبدأنا نذكُر أننا لا نعيش في هذه الحياة لأنفسنا فحسب، بل نعيش لأنفسنا وللجماعة وللوجود وللإنسانية جميعًا، وبدأت قلوبنا تتفجر عن حب الخير لمن أَمَضَّهم العَوَز وذلَّهم السؤال وهدَّهم الفقر، وبدأنا نفهم ونعرف أن الحياة ليست في جلب المال وتكديسه واكتنازه فحسب، وأنها ليست في بناء القصور وإنشاء الرياض وحيازة الخدم وعبادة الطين والمال فحسب، ولكنها أيضًا في جبر القلوب الكسيرة، وفي تضميد الجِراحات الدامية، وفي تجفيف سيول الدموع الذليلة، وفي إعلاء شأن هذا الوطن الذي درجنا على أرضه وتغذَّينا من ثماره وارتوينا من مائه، وفي تهذيب ناحية من نواحي الإنسانية المعذَّبة بالبناء وبالصَّقل وبالتجميل.

إذن ليست الحياة أن نأكل ونشرب فحسب، ولكن أن نشعر وأن نعطف، أن يكون لنا بطون وأمعاء تُحسِن ازدراد الطعام وهضمه، وأنوفٌ تتلذَّذ برائحة الطهي، ولكن أن

يكون لنا قلوب تَخفق بالحب وبالرحمة، وأعصاب تتأثر للعوز وللذلة، ونفوس وأرواح تأنف الضعة وتقدِّس الكرامة وتعبد الجمال!

نسجِّل إذن والسرور يملأ نفوسنا ويغمر قلوبنا تلك الحركة المُبارَكة المشكورة في سِجل مصر الحديثة، ونأمل من كل قلوبنا أن تُفشيَ ثقافة الخير والإحسان في مصر الخِصب والجود والخير والجمال والإحسان! ونستزيد تلك الحركة المُبارَكة نشاطًا وعملًا وسعيًا، ونأمل أن يكون عندنا في مصر بين رجال الطين والمال غَيرةٌ ومنافسة في عمل الخير والإحسان، وفي عمليات البناء والإنشاء، كما يغارون ويتنافسون في تكديس الأموال وفي بناء القصور وتوسيع الضياع!

ونريد أن نذكِّرهم دائمًا بأن مصر الحديثة في حاجة إلى بعض أموالهم ليتمَّ بعثها وإحياؤها، ولتقف على أرجُلها بين الأمم التي تشعر بوجودها وتتيه بمجدها وفخارها، وبأن الواجب يقضي عليهم أن يتحمَّلوا نصيبهم من الإصلاح في سبيل مصر وفي سبيل الإنسانية جميعًا!

ونريد أن نذكِّرهم أيضًا بأن الأمم بأفرادها لا بحكوماتها؛ فالأفراد هم تلك الخيوط المنسوجة في ذلك الثوب المُزركَش المحبوك، وليست الحكومات إلا أداةً تقوم بإرادة الشعوب، ولْيكُن لهم من أغنياء أوروبا وأمريكا خير مثال يُحتذى، إذا كانوا يريدون أن يقوموا بواجبهم ويُلبُّوا النداء الصارخ، ونحسبهم فاعلين!

تأتي بعد ذلك مسألة التعليم، وهي مسألة المسائل بلا جدل؛ فلا يزال الجهل أعدى أعدائنا، ولا يزال هو المُستعمِر مصر لا حراب إنجلترا كما نظن. وللتعليم في القرى أهميةٌ خطيرة؛ لأنه التعليم الأوَّلي، وهو اللَّبِنة الأولى في البناء التعليمي، وأولى باللبنة أن تكون قويةً مَكينة ليكون البناء مدعَّمًا مَتينًا. ونحن وإن فَرِحنا وشِدْنا بتلك المدارس الأوليَّة الإلزامية الصغيرة التي خلقتها حياتنا النيابية، فإننا نحب أن نسجل هنا في تلك الرسالة الصغيرة أسفنا الكبير على اندثار الكتاتيب القديمة اندثارًا نُشاهده يخطو خطواته بالتدريج؛ فلقد كانت هذه المدارس الحديثة عاملًا كبيرًا في هدم هذه الكتاتيب، فهُدمت بذلك تلك الصور والذكريات الجميلة الأولى في فطرتها وفي بداوتها، وكانت أشد خطورةً من ذلك، كانت العامل الأكبر في إلغاء التعليم القرآني شيئًا فشيئًا، وتلك نكبة النكبات جميعًا!

نعم! فإننا ننسلخ شيئًا فشيئًا من الروح الديني في مدارسنا الأولى ومن التعليم القرآني، وابتدأ يطغى علينا وعلى عقول ناشئتنا الصغيرة تلك السيولُ الجارفة من التعليم الحديث الذي هو إلى القشور أكثر منه إلى اللُّباب، وإلى حشو الأدمغة أكثر منه إلى تنمية العقول وصقل النفوس. ومن العجيب حقًّا في هذه المدارس الريفية الصغرى أن الصبي يتلقَّى من هذه القشور ما لا يتَّفق مُطلَقًا وعقله الصبي الناشئ، فلست أدري كيف يُسيغ عقل في سن السادسة أو السابعة مبادئ التاريخ الطبيعي أو التربية الوطنية؟ إن هذه طفرةٌ تُشبِه الجنون. ومن أعجب العَجب أيضًا أن كثيرًا من المُدرسين في هذه المدارس الريفية لا يعرفون من هذه العلوم الحديثة إلا ما في الكتب المقرَّرة للتدريس، وكان الله يُحبُّ المُحسِنين!

وكم نأمل ونحن نكتب هذه السطور أن تكون خطواتنا جميعًا أكثر اتِّزانًا وريثًا واعتدالًا حتى لا يُتخِمنا الطعام فننفجر.

نأمل ألا يذهب أبناؤنا وأخواتنا في التعليم الأوَّلي ضحيَّة هذه البرامج المزوَّقة كما ذهبنا نحن ضحاياها، نأمل أن نقضيَ على تلك الفكرة القديمة، والتي لا يزال فيها بعض من الحياة إلى الآن، وهي أن الغرض من التعليم كما أراد السيد «دنلوب» تخريج الموظفين وكَتَبة الدواوين وسُعاة المصالح والتعهُّد للمشارب والقهاوي وللأندية وللأرصفة بما يكتظُّها ويملؤها من شباننا!

ونأمل أن يكون التعليم القرآني هو الأساس الأول لهذه المدارس الإلزامية؛ لأن في القرآن الكريم كِياننا ووجودنا وقوميتنا كما قال بحقٍّ أحدُ المُستشرقين حديثًا!

ونُحبُّ هنا بمناسبة التعرُّض لمسألة التعليم أن نسجِّل رجاءنا الكبير لوزارة الزراعة بأن تجعل من الفن السينمائي وسيلةً إلى تعليم الفلَّاحين الطُّرُق الحديثة في الزراعة التي توصَّل إليها الفنُّ الزراعي في أوروبا وأمريكا، وتُعلمهم بذلك زراعة محصولات جديدة، وتعهد الزرع بالحفظ والعناية، وتُعلمهم بخاصةٍ فن الخضراوات والبساتين، وتلك الصناعات الزراعية العديدة التي تنشأ مع الزراعة كعمل المربَّات والزبدة وتجفيف الفواكه وعمل الحبال، إلى غير هذه الصناعات الزراعية العديدة التي تمخَّضت عن الفن الزراعي حديثًا، وتُعلمهم بخاصةٍ كيفية حفظ الزرع من آفاته الزراعية التي تفتك به وتقضي على جزءٍ كبير من محصوله.

ونأمل مع تقدُّم الكهرباء أن يكون لريفنا نصيب منها حتى تتعدَّد صناعاتنا الزراعية، وحتى ينتقل الفلَّاح المصري من طور العمل اليدوي إلى العمل الكهربائي. وهذا

الأمل وإن يكُن لا يزال جنينًا فإنه على كل حال أمل، وكل الأعمال إنما كانت أولًا مجرَّد أحلام وآمال!

وكم نُحبُّ هنا بهذه المناسبة أن نَلفِت نظر أغنيائنا وكبار زُرَّاعنا إلى زراعة الفواكه والخضراوات، بدلًا من الانغماس في زراعة القطن والقمح وحدهما؛ فإن مصر فقيرةٌ من هذه الناحية فقرًا مُدقِعًا، وهم بذلك إنما يزيدون في إنتاجنا وفي خلق رُبوع للمناظر الجميلة؛ وبذلك يمكننا أن نزرع الذهب على حدِّ تعبير الأستاذ سلامة موسى.

وما أحوَجَنا ونحن بلدٌ حياته في الزراعة إلى الجماعات التعاونية الزراعية، خصوصًا بعد أن عَمِلنا كل جهدنا في تصوير حياة الفلَّاح المصري البائس البالغة حياته أقصى مراتب الفاقة والعَوَز؛ فالحكومات تتجاهل وجوده وهي مع ذلك تعيش عليه، والمالك يستبدُّ به ويُرهقه ويكاد يستعبده، وكل ما حوله إلبٌ عليه، إزاء هذه الحال المُبكية الأليمة كان من المعقول أن يكون له جماعاتٌ تشعر بشعوره وتفهم لغة آلامه، تُنجيه من استبداد المُرابين وطُغيان الملَّاك وتجاهُل الحكومات وعداء الأقدار ومصائب الحياة، وتُنجيه أكثر من ذلك، من شرِّ جهله فيما يبيع ويشتري!

ولقد وُلِدت عندنا هذه الفكرة حوالَي سنة ١٩٠٤، ثم مشت بعض خطوات وهي في طفولتها الأولى، ثم عجزت عن السير ولم تقوَ على الحركة، ثم عاوَدت نشاطها في عهدنا النيابي الحديث، وأخيرًا ركنت إلى الدعة وإلى النوم وإلى الخمول.

ولسنا ندري كيف تكون أرواحنا في الزراعة ثم لا تتشرَّب نفوسنا الروح التعاوني، ولا يكون لنا نظامٌ تعاوني منظَّم قوي مُنتِج؟ أمامنا بلاد التعاون الكبرى مثل دنمرك وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، فلماذا لا نبحث عن أسباب نجاحها وأسباب فشلنا، ونبني نظامنا التعاوني على تلك الأُسس القوية المَتينة الخالدة؟ لا ينقصنا شيءٌ سوى الإرادة، وسوى الشعور بالحاجة إلى هذه الجماعات، ولكن ما دامت حكوماتنا تنفُض يدها من مساعدة هذه الجماعات ماليًّا وأدبيًّا، وما دام أغنياؤنا أو أكثرهم لا يُعنَون إلا بأنفُسهم، وإلا وراء تكديس الأموال ثم بعثرتها في مصافي أوروبا وفي مشاتيها، فسنبقى على ما نحن عليه أبد الآبدين، وسيبقى فلَّاحنا المسكين نُهْبة الطامعين وضحيَّة المُرابين ولعبةً في أيدي اللاهين، وسيبقى المسكين ضحيةَ جهله، فيبيع محصوله بنفسه بثمنٍ بَخس، أو يبيعه له مالكه بثمن إن كان عظيمًا فالذي يستفيد من ذلك هو المالك لا الفلَّاح؛ فالمُلاحَظ في كثير من القُرى أن الفلَّاح ليس له إلا محصول الذرة والمحصول الشتوي،

أما القطن فللمالك؛ فإن لم يسدِّد منه الفلَّاح إيجاره فيولِّي وجهه شطر ما حصل عليه المسكين من الذرة والغلال، وإن زاد عن الإيجار كان الربح للمالك وحده، فيكون بذلك الغُرم على الفلَّاح دائمًا وليس له من الغُنم شيء.

وغير ذلك فإن جماعة المُرابين اللصوص تعيش على جهله وعلى عَوَزه وحاجته، ومن النادر ألا يحتاج إليهم خلال السنة، خصوصًا في شهور الضنك والجدب، وهنا يُعطونه من جيوبهم ليأخذوا ويقتطعوا من قلبه ويشربوا من دمه.

إزاء كل هذا كان من طبيعة العدل أن يكون لنا جماعاتٌ تعاونية تأخذ بيد الفلَّاح المصري من هذه الوهدة، وتُريه النور وتُشعِره الراحة والطمأنينة، وخصوصًا جماعات التوريد والمصارف التعاونية. ولتنجح هذه الجماعات يجب كما قلنا أن تتزعَّمها أولًا الحكومة ولو من طريق الإشراف أو المراقبة أو المساعدة، وأن نعمل الدعايات الكافية لبثِّ الروح التعاوني بين الفلَّاحين بواسطة جماعة من المُتعلمين، وبواسطة نشرات دورية عن الحركة التعاونية، ولكن نرى أن تكون الخطوة الأولى في ذلك استشعار الفلَّاح المصري أولًا بفائدة التعاون؛ لأنه بدون ذلك لن يقوم للتعاون في مصر قائمة، وهذا الاستشعار يكون بالتعليم وبالمحاضرات من رجال الزراعة، ونشر المعارف الأولى للنظام التعاوني وطُرُقه في غرب أوروبا.

ويوم يكون لنا هذا النظام، يوم نشعر ونؤمن أن الفلَّاح المصري بدأ يرى بعينَيه النور ويتَّصل بالوجود وبالعالم، وهذا العمل من واجب كل مصري تحرِّكه الشفقة بوطنه وبأخيه الفلَّاح، وهنا نقول لكل مصريٍّ ما قال «ولنجتون» لجنوده: «إن مصر تطلب من كلٍّ منكم أن يقوم بواجبه.»

ولقد آن الأوان لأن يكون لنا صناعةٌ زراعية؛ فمن العار كل العار أن نكون بلدًا زراعيًّا ثم نشترِيَ الجبنة والزبدة من يد الغربيين. وإذا كان البعض قد قال إن مصر لا تصلُح للصناعة، فإن هذا القول تخدير للأعصاب، ويُراد به قتل مصر؛ فلسنا نعرف لشعبٍ حياةً موفورة صحيحة بدون صناعة، خصوصًا وأن الصناعة الآن هي مِحور النظام الاقتصادي في كل ربوع العالم.

إذن من أول واجباتنا أن ندعوَ إلى الصناعة الزراعية في مصر كصناعة الألبان وعمل الزبدة، ويُمكِننا أن نتَّخذ «دنمرك» في ذلك مثالًا نُحاكيه، ثم صناعة الحبال بعد أن نُدخِل في مصر زراعة «القنب»، ثم عمل المربَّات وتجفيف الفواكه حتى يكون هناك بذلك مجالٌ فسيح لعمل النساء، إلى غير هذه الصناعات العديدة التي أشار بها تقرير لجنة التجارة

والصناعة في سِنِي الحرب، والتي بعثها من مَرقدها أخيرًا بنك مصر في تقريره القيِّم الجديد، يرفع به صوت مصر إلى الحياة وإلى البعث وإلى القوة وإلى الإنتاج.

نعم آن الأوان أن نخطوَ في عملنا خطواتٍ جريئة، وأن نقطع تلك المراحل التي قطعها العالم الأوروبي والأمريكي، وأن نستخدم ثرواتنا المُكتنَزة المدفونة المجهولة، وألَّا نعتمد مُطلَقًا على الزراعة وحدها، وإلا حُقَّ علينا الفناء، إن عاجلًا وإن آجلًا.

والماء! ليس ماءً ما يشرب الفلَّاح المسكين، ولكنه عُكارة وطين وميكروبات في مُستنقَعاتٍ مليئة بالجِيَف والنتن، ولن تُرضيَ هذه الحال السيئة إنسانًا له قلب وضمير.

لقد سَمِعنا بالمشروعات الحديثة حول تكرير الماء في القرى، وحول ردم البِرَك والمُستنقَعات، ونخشى كل الخشية أن يموت الجنين في بطن أمه قبل أن يظهر إلى عالم الوجود؛ فقد تعوَّدنا في مصر أن نسمع كثيرًا من معمل المشاريع الميتة ثم لا نرى شيئًا.

ولعلنا في هذه المرة نرى الجنين يحبو ويرتع ويلعب ويُكافح الحياة والوجود.

وبمناسبة الماء نريد ألَّا تفوتنا تلك الملاحظة التي نُلاحظها في كل ربوع ريفنا، وهي تلك الشكوى الصارخة من سوء التصرف في المياه، ويا ليتها تقف عند حد الشكوى والصراخ، إذن لَهانَ الأمر، ولكن هي أخطر من ذلك؛ فإن الفلَّاح المصري إذا ما عزَّت عليه المياه، وكثيرًا ما تَعزُّ، أخذ يلعن في الحكم المصري وفي الموظَّفين المصريين، وتدرَّج من ذلك إلى الإشادة بالحكم الإنجليزي وبالموظَّفين الإنجليز الذين كانوا يُحسِنون تصريف المياه وتوزيعها بعدل بين الناس. ولا يُمكِننا مُطلَقًا أن نَلُوم الفلَّاح على هذا؛ لأن في الماء حياته، ولأن الموظَّفين المصريين غالبًا يتخذون نحوه خطةً لا تُساعد على الأُلفة والعدل والطمأنينة، وهكذا يهدمون ما نَبْني، ويخمدون هذا الشعور الوطني البحت الحي، الذي خلقته في قلوبهم تلك النهضة الكبرى المباركة! فعسانا نُقبِل على عهدٍ جديدٍ حي، وعسانا نتعلَّم كيف ننظر إلى الفلَّاح وكيف نحترمه ونقدِّره!

والآن يجب أن نختتم ونقول إن هذه الآمال التي ذكرناها، وهذه الشِّكاية الصارخة التي بُحْنا بها ليست إلا صدًى لآمال الفلَّاح المصري ولشِكاياته ولجِراحاته، وليست إلا جزءًا مما يدور بخَلَدنا جميعًا من آمال لإنهاض البلد وهدم كل ما لا يتَّفق ونهضتَنا، ولإنشاء جيل جديد يشعر ويضطلع بالمسئوليات الكثيرة المُلقاة على كاهله، وبالتركات السيئة التي خلَّفها لنا السلف والآباء وقالوا: «وبعدنا الطوفان!»

نوجِّه إذن نداءنا الصارخ إلى كل مصري حُر كريم، إلى كل من تحرِّكه ولو أبسط عوامل الرحمة والإنسانية، أن يوجِّهوا أنظارهم جميعًا إلى الريف المصري النائم المنبوذ؛

فهناك الفقر فاغِرٌ فاه، وهناك الجهل جاثِمٌ في مَربضه وناشِرٌ أجنحته السوداء، وهناك ضروب البطش والجور على أحدث طراز، وهناك تلك البقية الباقية من عصور المماليك المناكيد، هناك يجب أن نبدأ بعملية الهدم لنشرع في عملية البناء!

الفلَّاح المصري يُناديكم يا أنصار «حقوق الإنسان»!

هنـــداوي